الإهــــــــــــداء

إلى كل مؤمن ومؤمنة، وكل مسلم ومسلمة، في أرجاء المعمورة الذين آمنوا بالله ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وبالإسلام دينا، يعبدون الله ﷻ وفق ما جاء به رسوله ﷺ، عقيدة وأحكاما وسياسة وحكما أقدم هذا الجهد، من خلال قراءة ماتعة، وتأملات نافعة، في كتاب الله ﷻ، بغية أن يتأملوا ما ورد فيه من الحلال والحرام، فيتخذوا كتاب الله منهجا في سائر شئون الحياة: الدينية بصفة خاصة إعدادا للآخرة، والدنيوية بصفة عامة، فيشمل ذلك كل مناحي الحياة وسياسةَ شؤونها الاجتماعية بكل مقوماتها: التربوية، والتعليمية، والاقتصادية، وعلاقة الأمة بعضها ببعض، وعلاقتها بغيرها من الأمم، كيما يسعدوا في الدنيا والآخرة، سائلا الله ﷻ أن يجعل عملي له خالصا، وسعيي فيه سعيا مشكورا، وأن يجعل خطئي مغفورا، ولا يحرمني ووالديّ أجره يوم الدين، ولا يحرم الأجر من أعان عليه نفقة وطباعة وتوزيعا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [١].

المؤلف.

١) الآيتان (٨٨، ٨٩) من سورة الشعراء.

المقدمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾١ والصلاة والسلام على البشير النذير الذي جلب بإذن ربه لأمته الخير الكثير، وحذرها من الشر والتدمير ﷺ وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه محمد ﷺ هما صراط الله المستقيم، من اعتصم بهما نجا، ومن خالفهما هلك، يزداد كل مؤمن بهديهما بصيرة، ومن ابتعد عنهما عمي عن الحق وكثر تدميره، وصدق علي بن أبي طالب ﷺ حين قال: "عليكم بكتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم والصراط المستقيم، هو الذي لاتزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"٢، ومع ذلك فإن ضعفاء الإيمان في كل زمان ومكان سرعان ما يُلَبس عليهم ابليس ويغريهم بالشقاق والنفاق، فيستجيبوا لشياطين الإنس والجن، وذلك من ضعف الإيمان، لأنهم ما عرفوا الله ﷻ حق المعرفة، وما قدَّروه حق قدره، فزين لهم الشيطان أنهم قادرون بأفكارهم المنحرفة على نقد كتاب الله ﷻ، والتشكيك في شمول صلاحيته لمناحي الحياة في كل زمان ومكان، بلسان حال يقول: إن الزمان فيه تطور لا يستوعبه كلام الله ﷻ، وما ذلك إلا لجهلهم بالخالق، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

١) الآية (١) من سورة الكهف.

٢) تفسير الرازي ٢٦٨/١.

مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ١، وقد صور الله ﷻ عظمة الكرسي فقال ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ٢، وفي هذا تنبيه لعباد الله ﷻ إذا كان العرش وهو خلقٌ من خلقه تعالى وسع السماوات والأرض، والخالق لا يثقله ولا يعجزه حفظ ما خلق، فلا يشق عليه تعالى حفظ السماوات والأرض، ومن فيهن وما بينهن، فما بالك بعظمة الخالق سبحانه، أبَعد هذا يجرؤ مخلوق على القول بقصور الشريعة الإسلامية عن تسيير مصالح الناس وفق ما أراد الله ﷻ لعباده، وقد وصف الله ﷻ القرآن بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ٣، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ٤، ومع هذا القول الكريم فقد زعم علماء الشيعة ٥ أن القرآن وقع فيه التحريف بحذف بعض الآيات، والتلاعب في الترتيب زاعمين أن آياتٍ وضعت في غير مكانها، من غير حكمة ولا سبب يقتضي ذلك، ووضعوا نصوصا كثيرة كذبا وزورا على الأئمة من آل البيت، وزعموا أن آل البيت عليهم السلام معصومون، أولهم علي وفاطمة وآخرهم المهدي المزعوم صاحب السرداب، واخترعوا الوصية المزعومة، والولاية الملفقة، والعصمة المطلقة، والتفويض المطلق بالتصرف في الكون، وزعموا أنها مستوحاة من القرآن، وفسروا الآيات بأقوال باطلة لا تتفق مع مراد الله ﷻ، ولا مع اللسان العربي الذي نزل القرآن الكريم به، وبلَّغ به أفصح العرب نبينا

---

١) الآية (٦٧) من سورة الزمر.

٢) الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

٣) الآية (٤٢) من سورة فصلت.

٤) الآية (٩) من سورة الحجر.

٥) هذه التسمية لا تنطبق على واقعهم منذو أن تجاوزوا مشايعة علي ﷺ إلى أحقيته بالإمامة، ولكنها منطبقة تماما على ما سماهم به الإمام زيد بن علي بن الحسين إمام الزيدية رحمه الله، فقد سماهم الرافضة، وقول الإمام زيد هذا مدون في كتب الشيعة المعتمدة، فهم لم يرفضوا تولي الصحابة ومنهم الخلفاء الثلاثة فحسب، بل رفضوا الإسلام جملة وتفصيلا.

محمد ﷺ، ولم يكن مراد الرافضة سوى محو عقيدة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ، ومحو توحيد العبادة الخالص لله رب العالمين، ومحو توحيد الاتّباع الذي خص الله به محمدا ﷺ، ومحو دلالات القرآن: المنهج السوي لعقيدة الإسلام، وأتوا بما يضادها فكرا رافضيا باطلا، قوامه الشرك في العبادة، وفي الاتّباع، واستبدال منهج القرآن، بباطل عظيم يطلق العنان في الشهوات بلا حدود، حتى استحلوا ما حرم الله ﷻ، وأفتوا بروايات عن الأئمة مزورة، وباجتهاد باطل فضلوا وأضلوا، وفسروا كل ذم في القرآن بأن المراد به أبو بكر وعمر وأزواج رسول الله وأصحابه ﷺ، وكل مدح ورد في القرآن فالمراد به عندهم علي وفاطمة وذريتهما ﷺ، وزعموا أن ذلك هو الإسلام، ومن يقرأ كتاب الكافي للكليني وغيره من كتب الشيعة يعرف أن التشيع إنما هو ضربة قاصمة للإسلام، لا يراد من ورائه اتّباع القرآن ولا السنة الصحيحة، ولا آل البيت الذين سيقاضون الرافضة بين يدي الله ﷻ، فضلا عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين كفرهم الرافضة حتى لا تقوم لما رووا من السنة الصحيحة قائمة عندهم وعند أتباعهم، والصحابة هم والله العلماء؛ أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، وأكثرهم أمانة على وحي الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ، وسيعلم البطلة من الرافضة أي منقلب ينقلبون، وما أكثر من يحتج على الرافضة يوم القيامة، وأولهم القرآن فقد قال رسول الله ﷺ: « **والقرآن حجة لك أو عليك** »[١].

قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢]، نعم فالقرآن وعلي وفاطمة وذريتهما لا يفترقان يوم القيامة في مقاضاة الرافضة بين يدي الله ﷻ، وسيأتي بيان معنى رب العالمين في سورة الفاتحة.

واعلم أيها القارئ الكريم أن من الأهمية بمكان أن أبين معتقدي في الشيعة ولاسيما وأنا أكتب في فهم القرآن الكريم، وقد تجرؤوا على كتاب الله ﷻ نصا وروحا، وانبروا لمناقضته جملة وتفصيلا، فالشيعة في نظري أربعة أقسام، بعد أن كان التشيع في

---

١) مسلم من الحديث رقم (٣٢٨) .

٢) الآية (٨٠) من سورة الواقعة .

عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ لا يعدوا دعوى أحقيته ﷺ بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، فقط لا غير، وهذا هو التشيع الصحيح، ومن زاد على هذا فلا يقال له شيعي، بل رافضي، لأن الفكرة طُورت ولاسيما بعد المواجهة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، والحق مع علي ﷺ دون شك، طُورت الفكرة من قبل زنادقة مغرضين، فجعلوها مؤسسة عداوةٍ للنبوة والكتاب والسنة، ولازم هذا بغض المؤمنين بالكتاب والسنة عموما، ومنهم قطعا آل البيت، لكن ذكاءً وخبثا من الزنادقة المؤسسين أظهروا دعوى أحقية علي ﷺ بالولاية بعد رسول الله ﷺ، ومن بعد علي أبناؤه، وحصروا الإمامة فيه وفي أحد عشر من ذريته، آخرهم محمد بن الحسن العسكري: المهدي المنتظر المزعوم، وزعموا أن لهم العصمة المطلقة، وعلم الغيب والتصرف في الكون بوكالة من الله ﷻ، وهم ينتظرون خروج المهدي. وقد مر على غيبته قريب من ألف ومائتي سنة، والمهم عندهم في خروجه قتل العرب عن بكرة أبيهم، حتى أنه يبعث الخلفاء الثلاثة وجملة الصحابة ليعزرهم ويقتلهم، والأمل عند الزنادقة من الرافضة الانتصار لدولة الفرس التي كان الإسلام سببا في زوالها، ولذلك ترى عداوتهم لعمر بن الخطاب ﷺ لا حدود لها لأن خلافته كانت الطامة الكبرى على دولة الفرس وعبادة النار، إذاً فالرافضة استغلوا دعوى حب آل البيت والانتصار لهم، وهم من ذلك الوقت إلى قيام الساعة لا يخرجون عن أربع فرق:

الفرقة الأولى: الزنادقة المؤسسون من عبد الله بن سبأ اليهودي، إلى الزنديق الخميني ومن شايعه، الطاعنون في القرآن بأنه محرف، وقد استباحوا تأويله بالباطل، ليوافق ما يرمون إليه من هدم الإسلام، وهم الرافضة حقا، لعدم إيمانهم بقول الله ﷻ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]، وقد ألّف أحدهم كتابا في إثبات تحريف القرآن، وسماه "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" وإن قال بعضهم بعدم التحريف فهو مظهر من مظاهر التقية التي يُمارسونها، وهي أصل من أصول مذهبهم، يكفر من لم يعمل بها، يعملون بها في حوارهم مع أهل السنة، ومعلوم أن قولهم بتحريف القرآن هو من ضروريات مذهبهم، فمذهبهم لا يثبت إلا إذا قالوا

---

١) الآية (٩) من سورة الحجر .

بتحريف القرآن، والزنادقة الطاعنون في الصحابة أولهم الخلفاء الثلاثة، والطاعنون في عرض رسول الله ﷺ وفي أزواجه أمهات المؤمنين، وأولهن عائشة الطاهرة الزكية، فالله العليم الخبير يخبر ببراءتها وطهرها في القرآن الكريم، والزنديق يؤلِّف كتابا في إثبات أنها زانية، والقائلون بفضل كربلاء آلاف المرات على مكة البلد الحرام، وفضل قبر الحسين ﷺ على الكعبة المشرفة آلاف المرات، ومن المعاصرين منهم من يتوجه في صلاته إلى كربلاء، وعندهم من الطامات غير هذا كثير، وإن كانت الواحدة منها تكفي لخروجهم من دائرة الإسلام، فهذا الصنف في نظري كفار زنادقة، وإن شهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لأنهم أنكروا معلوما من الدين بالضرورة، وكل من تتلمذ على أيديهم وقبل أقوالهم وطعوناتهم في الكتاب والسنة والصحابة فهو يلحق بهم ولا كرامة.

الفرقة الثانية: من تاب من الفرقة الأولى، ومن لم يوافق الفرقة الأولى أيضا في المعلوم من الدين بالضروة، وقال بفضل الصحابة، وأولهم الخلفاء الثلاثة، وطهارة أمهات المؤمنين، وأولاهن عائشة، ولم يقل بتحريف القرآن، ولا بالباطل في تأويله، فهو مسلم وإن قدَّم عليا ﷺ على أبي بكر في الفضل والولاية، وجعله أفضل الصحابة ﷺ، ففضل علي لا ينكر وإن اختلفنا في الترتيب، وإن سخط على معاوية ﷺ، ومثلهم كل من تتلمذ على أيديهم وقبل أقوالهم.

الفرقة الثالثة: من تابع الفرقة الأولى من العوام وهم الزنادقة، فحكمه حكم الفرقة الأولى سواء بسواء.

الفرقة الرابعة: من تابع الفرقة الثانية من العوام، فحكمه حكم الفرقة الثانية سواء بسواء.

والخلاصة: عودة القسمة من رباعية إلى ثنائية، فالزنادقة وأتباعهم من العوام فرقة خارجة عن الإسلام، وإن شهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لأنهم أنكروا معلوما من الدين بالضرورة، وكفروا من لم يكن على ما يعتقدون.

أما المعتدلون ومن تابعهم من العوام فمسلمون، وإن قدموا عليا ﷺ على أبي بكر في الفضل والولاية، وجعلوه أفضل الصحابة ﷺ، ففضل علي لا ينكر وإن اختلفنا في الترتيب، ووالله لو كان أبو بكر ﷺ حاضرا معنا اليوم وقيل له: إن عليا أفضل منك لأقر بذلك ولما أنكر، وكذلك عمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولكن يجب أن يعلم كل مسلم ومسلمة، أن رأس المكفِّرين للمسلمين هم الإمامية الإثنى عشرية، والقائلين بولاية الفقيه الفكرة الخمينية المعاصرة، فإنهم يكفرون كل من لم يؤمن بولاية علي ﷺ، فقد بنوا أركان الإسلام على خمس، حذفوا الشهادتين، استبعادا لتوحيد العبادة، وتوحيد الاتباع، ولذلك قامت عبادتهم على الشرك، والكذب والخداع، وجعلوا بدلا من الشهادتين ولاية علي ﷺ، وقالوا: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وولاية علي، والاثنى عشرية لم يقتصروا على تكفير أهل السنة والجماعة، بل كفروا جميع الفرق الأخرى التي تزعم أنها من الشيعة، وهم رافضة حتى الزيدية كفروهم، وهم عندهم أولى بالكفر من الفرق الأخر، لأن الزيدية هم الشيعة حقا، وهم أقرب إلى السنة، فالاثنى عشرية يكفرون من لم يوافقهم على أن الولاية والإمامة شرط في صحة الإيمان، وأن من لم يقل بها فهو كافر مخلد في النار، ولازم هذا كفر النبي ﷺ، وجميع الصحابة ﷺ، ومن تابعهم إلى يوم الدين، وقد رمى الاثنى عشرية أهل السنة بالنصب والعداء لعلي ﷺ، من عهد أبي بكر إلى آخر مولود قبل قيام الساعة، وحقيقة النواصب هم الذين خرجوا على علي ﷺ وهم الخوارج، أخذ الرافضة صفاتهم وألصقوها بأهل السنة وزعموا أنهم أعداء آل البيت، وهم والله أحباب آل البيت، والأعداء هم الرافضة.

واعلم أيها القارئ الكريم أنني لم أقدم على هذا العمل الجليل بحثا عن الشهرة، ولا أن الذين كتبوا فيه قليلون، بل أنا قطرة من بحر الكاتبين في تفسير القرآن، وما علمي يفوق علم من كتب منهم رحمهم الله أجمعين، ولكن الأئمة الأجلاء كتبوا تحت عنوان " **تفسير القرآن** " وتعرضوا لمباحث كثيرة جدا، منها معاني بعض الألفاظ من حيث اللغة، وكذلك الإعراب، وأسباب النزول، والأحكام، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والبلاغة والإعجاز، ومناسبات الآيات، وقد أوسعوا ذلك بحثا لا مزيد

عليه، وقد رأيت الكثيرين من خريجي الجامعات في مختلف التخصصات لا يحسنون تـلاوة القرآن فضـلا عن فهم معاني الآيات، وسبحان من سهّل ذلك لعباده ولكن أكثرهم غافلون عن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[١]، فتوجهت إلى الكتابة تحت هذا العنوان "**رياض الأذهان في فهم القرآن**" والحق المبين أن كل آية في كتاب الله العزيز روضة، إما لبيان الحق والهدى، أو للتحذير من الضلال وعمى البصيرة، أو لذكر أحوال من مضى وما نزل بهم من الخير والشر، ليعتبر أولوا الألباب، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، ومن عرف اللسان العربي لايحتاج إلا لفهم دلالة اللفظ، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فما أُجمل في آية بُين في آية أخرى، وما كان عاما في آية بُين المخصص في آية أخرى، وما أطلق في آية قيد في أخرى وهكذا، فرأيت تسطير فهمي للقرآن بإيراد الآية من السورة وبيان ما تدل عليه من أمر أونهي وذكر بعض ما يماثلها أو يبين ما أجمل فيها، على هذا المنهج أسير إلى نهاية القرآن إن شاء الله تعالى، أسأل الله أن يعين على ذلك ويحققه بفضله وتوفيقه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

---

١) الآية (١٧) من سورة القمر .

سورة: الفاتحـة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ .

تنـبيه:

سبق أن نشرت ما يتعلق بفهم الفاتحة بعنوان "**النظرات الماتعة في سورة الفاتحـة**" وطبع مرتين، وها أنا ذا أعيد نشره ضمن هذا العمل المبارك مستدركا ما وقع في المنشور من أخطاء طباعية، ومحررا بعض العبارات بالاستبدال، والزيادة والنقص، سائلا العون من الله ﷻ على التمام وحسن الختام، وصلى الله على نبينا محمد سيد الأنام، وعلى آله وصحبه وأتباعه الكرام.

أهمية قراءة الفاتحة:

إن من فضل الله ﷻ على هذه الأمة أن جمعها على تلاوة قدر عظيم من كلامه في كل يوم سبع عشرة مرة تلاوة واجبة وذلك فيما فرض على عباده من الصلوات الخمس في اليوم والليلة.

إنها سورة الفاتحة السورة العظيمة المشتملة على معاني الخير والبركة، فكان لزاما على كل مسلم أن يعلم ما فيها من الخير ، فيستزيد من تلاوتها بإضافة ما حثَّ عليه رسول الله ﷺ من المحافظة على السنن الراتبة المجموعة في ثلاث عشرة ركعة في اليوم والليلة، فإذا ما استوعب العابد فضلها ومناجاة ربه بها قام بها ما شاء الله من الليل، واستن بها في صلاة الضحى، وغير ذلك من القربات كتحية المسجد وركعتي الطواف، وصلاة الجنازة، وصلاة العيدين، إنها أم الكتاب تقود العبد إلى معرفة الثناء على الله ﷻ، وفضله على عباده، وتوحيده بأسمائه وصفاته في عبادته والاستعاذة

به، والاعتصام به، وطلب الهداية منه والبعد عن الضلال، وما يوجب غضبه، سبحانه وتعالى.

فهاهي الفاتحة قليلة الألفاظ واسعة الدلالة، عظيمة المعاني، شافية كافية، نشرع في فهمها في أسلوب يكشف عن بعض لطائفها وعظيم قدرها، وسعة دلالتها، إنها جنة كل مؤمن ومؤمنة، وهي نار حارقة لجميع العصاة إذ لم يقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وربما قالوا ذلك ولكنهم لم يحققوا معنى العبادة والاستعانة، ولم يقولوا: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أو قالوا ذلك ولكنهم لم يأخذوا بأسباب الهداية ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ١.

حول سورة الفاتحة:

الفاتحة مستهل كتاب الله العزيز، أنزلت بمكة، ولم يتكرر نزولها بالمدينة على القول الراجح، عظّم الله شأنها، وخص بها نبيه ورسوله محمداً ﷺ وأمته، أوجز فيها ما فصله في القرآن العظيم.

آياتها سبع، وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة وعشرون حرفا ٢، تضمنت جميع علوم القرآن الكريم ٣، نزلت البشارة بفضلها في المدينة، وجعلها الله ﷻ مفروضة التلاوة على كل مسلم ومسلمة في جميع الصلوات فريضة كانت أو نافلة، وهذا رأس الاعتصام بحبل الله ﷻ ولما قال الله ﷻ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ٤ دلَّ على

١) الآية (٧٠) من سورة الفرقان.

٢) وللعلم فإن الفاتحة لا تشمل سبعة أحرف وهي (ث، ج، خ، ز، ش، ظ، ف) انظر: (روح المعاني ١/٣٦).

٣) انظر: (الجامع لأحكام القرآن ١/١١٠).

٤) الآية (١٠٣) من سورة آل عمران.

أمر المؤمنين بقراءة الفاتحة على نحو ما سلف بيانه، إن ذلك تطبيق عملي لما يجب أن يكون عليه وضع المسلمين تجاه كل آية من كتاب الله ﷻ. فحبل الله هو كلامه الذي أنزله على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ لهذا قررت مشاركة الأئمة الكبار بفهم كتاب الله العظيم: المثال الحي الذي أجمع على العمل به كل من آمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وقد علم كل فرد منهم أن صلاته لا تقبل إلا بقراءة فاتحة الكتاب لأنها من أركان الصلاة، فلا تصح صلاة من لم يقرأها إلا من عذر شرعي يعفيه من ذلك، فكان هذا أمرا باعثا على جمع ما ورد في الفاتحة من المقاصد والدلالة، وبسطها لعباد الله الصالحين، **هذا أولا.**

أما الأمر الثاني:

فلأن الفاتحة مفتتح كتاب الله العزيز، ولأن الله ﷻ امتن بها على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[1] فجعلها قسيمة لبقية السور، وكان الأمر كذلك لأنها جمعت أقسام القرآن وحوتها إجمالا.

الأمر الثالث:

إن فهم معانيها ودلالاتها من العلم الضروري الذي يجب على كل مسلم أن يُلم به كيما تصح صلاته وعقيدته ودعاؤه، وثناؤه على ربه ﷻ، واستشفاؤه بهذه السورة العظيمة، المباركة والقرآن كله عظيم مبارك.

الأمر الرابع:

إنها تدريب عملي على اجتماع المسلمين على الحق، ومن هذا المثال وجب عليهم أن يوحدوا لله ﷻ بالعبادة، وأن يتحدوا في منهجها، فالفاتحة تدعوهم إلى رب واحد هو معبودهم لا معبود بحق سواه.

---

١) الآية (٨٧) من سورة الحجر.

والذي جاء بها هو نبينا محمد ﷺ فوجب أن يوحدوه في الاتباع، فلا يخالفوا أمره، ولا يتجاوزوا نهيه ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾١ وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾٢ وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾٣ والفاتحة حددت لهم المنهج العملي من خلال دلالاتها ومعانيها فوجب أن يكون منهجهم واحداً كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾٤ وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾٥ .

أسماء الفاتحة كثيرة، ذكر الفيروز آبادي أنها قريبة من ثلاثين٦ وقال القرطبي: اثنان وعشرون٧ وقال الألوسي: لهذه السورة الكريمة أسماء، أوصلها البعض إلى نيف وعشرين٨، رحمهم الله جميعا.

أسماء الفاتحة:

تنوعت أسماء الفاتحة بحسب تنوع ما فيها من الدلالة، والفضل، والمقاصد، وما فيها من البركة والخير، وبيان ذلك على النحو التالي:

---

١) الآية (٧) من سورة الحشر.

٢) الآية (٦٣) من سورة النور.

٣) الآية (٦٥) من سورة النساء.

٤) الآية (٣) من سورة المائدة.

٥) الآية (٤٤) من سورة المائدة ، وفي التي بعدها (الظالمون) وفي (٤٧) الفاسقون.

٦) انظر: (بصائر ذوي التمييز ١/١٢٨).

٧) انظر: (الجامع لأحكام القرآن١/١١١).

٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١/٣٤).

سميت الفاتحة: لأنها يُفتتح كتاب الله بكتابتها، ويُقرأ بها في الصلوات فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن، في الكتابة والقراءة[1].

سميت أم القرآن: لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، في القراءة والكتابة[2].

وهي أم الكتاب لأن أم الشيء: أصله وعماده كما سميت مكة؛ أم القرى لأنها توسطت الأرض[3]، ولما قضى الله سبع سماوات في يومين، أخذ طينة من الماء فوضعها مكان البيت، ثم دحا الأرض منها[4]، قال عباس رضي الله عنهما: "لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة لأن منها دحيت"[5].

وهذا ليس زعماً، فقد ثبت علميا في عصرنا هذا أن الكعبة سرة الأرض، والفاتحة لا شك أنها أم الكتاب "القرآن" لأنها جمعت ما فُصِّل فيه، وقد ثبت في الصحاح تسميتها بذلك[6] ونقل القرطبي كراهة ذلك عن أنس والحسن وابن سيرين، والجمهور على الجواز، وإذا صح الخبر عن رسول الله ﷺ فلا عبرة بقول غيره[7].

سميت السبع المثاني: لأن جميع القراء والعلماء لم يختلفوا على أنها سبع آيات، ولكونها المثاني التي امتن الله ﷻ بها على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ في قوله

---

١) جامع البيان عن وجوه تأويل القرآن (١/١٠٧ـ ١٠٩) انظر: (تفسير الفاتحة والبقرة للسمعاني١/٣٥١. ٣٥٣) ومعالم التنزيل (١/٣٧) وغيرها من التفاسير التي ارتكزت على ما عند إمام المفسرين الطبري .

٢) جامع البيان عن وجوه تأويل القرآن (١/١٠٧).

٣) ترتيب القاموس (١/١٧٩).

٤) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد ٢/٥٧٩، وتفسير الطبري ١٢/٣٣٤..

٥) وها نحن نسمع اليوم من علماء الجغرافية والمساحات: أن الكعبة هي نقطة الارتكاز لدائرة الأرض (الكعبة مركز العالم ص٢٠٤).

٦) انظر صحيح مسلم (١/٢٩٦ رقم ٣٩ـ٤١) وروح المعاني في تأويل القرآن العظيم والسبع المثاني (١/٣٥).

٧) انظر: (الجامع لأحكام القرآن١/١١١).

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[1] كما فسرها الإمام الحسن البصري رحمه الله بذلك، ووصْف رسول الله ﷺ آياتها السبع بأنهن مثان، لأنها تثنى قراءتها في كل صلاة تطوعا أو مكتوبة[2] وعَلل مجاهد رحمه الله هذه التسمية: بأن الله تعالى استثناها لهذه الأمة، كأنه أوحاها لهم ولم يعطها أحداً من الأمم[3] ومعلوم أن هذه السورة العظيمة تثنى قراءتها في كل ركعة وتثنى في كل صلاة فالتثنية مضاعفة.

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وليس في وجوب اسم "السبع المثاني" لفاتحة الكتاب ما يدفع صحة وجوب اسم "المثاني" للقرآن كله؛ لأن لكل وجها ومعنى مفهوما[4] قلت: كقوله تعالى:﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾[5] أطلق الله ﷻ هذا على كتابه؛ لأن الأخبار تثنى فيه[6].

سميت الوافية: لأنها لا تتنصف، فلا يجوز أن يُقرأ نصفها في ركعة والنصف الآخر في ركعة أخرى، وهذه خصوصية الفاتحة فهي لا تقبل التنصيف ولا الاختزال بخلاف بقية سور القرآن فإن ذلك جائز فيها[7].

سميت الكنز: لقوله ﷺ: « إنها أنزلت من كنز تحت العرش »[8].

---

١) الآية (٨٧) من سورة الحجر، وانظر جامع البيان عن وجوه تأويل القرآن (١٠٩/١) منه حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم) أخرجه الإمام البخاري، حديث (٤٧٠٤) وأخرجه الطبري بسند صحيح (جامع البيان١/١٠٧).

٢) جامع البيان عن وجوه تأويل القرآن (١٠٩/١).

٣) تفسير الفاتحة والبقرة للسمعاني (٣٥٣/١) وانظر: (الكشاف١/٤).

٤) جامع البيان (١١٠/١) باختصار.

٥) الآية (٢٣) من سورة الزمر.

٦) انظر: (الجامع لأحكام القرآن١/١١٤).

٧) قاله سفيان بن عيينة في تفسيره، نقل عنه القرطبي (الجامع لأحكام القرآن١/١١٣).

٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩/١) والحديث أخرجه إسحاق بن راهويه . كما في الدر المنثور (١٦/١) ـ عن علي ؓ وعزاه المتقي في الكنز (٢٩٧/٢) رقم (٤٠٥٠) إلى

ويدخل في مسمى "أم الكتاب، أم القرآن".

قول من سماها "الأساس" جاء ذلك من قول الشعبي رحمه الله لما شكا إليه رجل وجعا بخاصرته، قال رحمه الله: عليك بأساس القرآن، فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة لأن منها دحيت [١] وأساس السموات "عريباً" وهي السماء السابعة، وأساس الأرض "عجيبا" وهي الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان "جنة عدن" وهي سرّة الجنان عليها أسست الجنة، وأساس النار "جهنم" وهي الدركة السابعة السفلى، عليها أسست الدرجات، وأساس الخلق "آدم" وأساس الأنبياء "نوح" وأساس بني إسرائيل "يعقوب" وأساس الكتب "القرآن" وأساس القرآن "الفاتحة" وأساس الفاتحة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فإذا اعتللت أو اشتكيت، فعليك بالفاتحة تُشفى [٢] وذكره السيوطي مختصرا فقال: وأخرج الثعلبي عن الشعبي أن رجلا شكا إليه وجع الخاصرة [٣] فقال: عليك بأساس القرآن، قال: وما أساس القرآن؟، قال: فاتحة الكتاب [٤].

الحق أن الفاتحة رقية كلها، خلافا لمن قصرها على قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إسحاق والواحدي، وقد أورد البوصيري إسناد إسحاق في إتحاف الخيرة (١/٥) وفيه انقطاع بين فضيل بن عمرو، وعلي ﷺ، وله شواهد تقويه، عن أبي أمامة، وأنس، وعلي، ومعقل بن يسار ﷺ (موسوعة فضائل سور وآيات القرآن ١/٢٤-٦٢).

١) وها نحن نسمع اليوم من علماء الجغرافية والمساحات: أن الكعبة هي نقطة الارتكاز لدائرة الأرض (الكعبة مركز العالم ص٢٠٤).

٢) لم يجزم الفعل لأن الطلب جاء باسم الفعل (عليك) وشرط جزم جواب الطلب أن يكون الطلب بالفعل، وانظر: (الجامع لأحكام القرآن ١/١١٣).

٣) الخاصرتان: جانبا البطن مما يلي الظهر، قال ابن الأثير: قيل: إنه وجع الكليتين (النهاية ٢/٣٧).

٤) الدر المنثور (١/١٢).

سميت سورة الحمد والشكر والدعاء، وتعليم المسألة: لاشتمالها عليها[1] وقد تضمنت معاني هذه الألفاظ أفضل ما يكون به الثناء، وأصدق ما يكون الطلب، فالألف واللام في قوله: "الحمد" لاستغراق جميع صفات الحمد والثناء، وحمده تعالى شامل للمكان كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] وللزمان كما في قوله: ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[3]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4]، فالحمد ثناء من الله على نفسه تعالى، فكان أكمل وأفضل ما يقول العبد ثناء على الله ﷻ.

سميت الصلاة: لوجوب قراءتها فيها[5].

أما قول الزمخشري: لأنها تكون فاضلة أو مجزئة فيها[6] فأقول: هي فاضلة في الصلاة وغيرها، والصواب ما تقدم؛ لأنها ركن في الصلاة، فلا تصح الصلاة إلا بقراءتها، قال ﷺ: « **لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب** »[7] وفي القدسي: « **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي** »[8] والمراد بالصلاة الفاتحة، عندما يقرؤها العبد في الصلاة وغيرها. **سميت الشفاء والشافية:** لقول الرسول ﷺ: « **هي شفاء من كل داء** »[9].

---

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/٩) وانظر: روح المعاني (١/٣٥).
٢) الآية (١٨) من سورة الروم.
٣) الآية (١٨) من سورة الروم.
٤) الآية (٧٠) من سورة القصص.
٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/٩) ولأن الله سماها صلاةً في الحديث القدسي.
٦) الكشاف (١/٤).
٧) أخرجه الإمام البخاري، حديث (٧٥٦).
٨) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٣٩٥).
٩) أخرجه الدارمي (٢/٣٢٠) مرسلاً من حديث عبد الملك بن عمير، ويمكن أن يكون سمعه من أبي سعيد الخدري ﷺ، فإنا نظرنا في التأريخ وفيه إمكان السماع، لكن تكلم فيه الأئمة، ولا

سميت القرآن العظيم: ذكره القرطبي وعلله بقوله: لتضمنها جميع علوم القرآن[1] وفي نظري أن تُستمد هذه التسمية من حديث أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، فقال: « **ما منعك أن تأتي؟** » فقلت: كنت أصلي، فقال: « **ألم يقل الله**:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[2] ؟، ثم قال: **ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟، فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته فقال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته** »[3] أي في الآية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[4] ، وجعلها قسيمة للقرآن يكون أبلغ.

سميت الرقية: أخذا من قول رسول الله ﷺ للرجل الذي رقى سيد الحي: « **وما يدريك أنها رقية؟** »[5] .

أرى رتبته إلا أقل مما قدّر له الحافظ في التقريب فإنه قال: ثقة، وجاء في تفسير القرطبي قوله: روى الدارمي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (فاتحة الكتاب شفاء من كل سم). قلت: الذي عند الدارمي (من كل داء) واللفظ المذكور هو حديث أبي سعيد الخدري كما في شعب الإيمان للبيهقي٢/٤٥٠ انظر (الجامع لأحكام القرآن ١/١١٢).

١) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٢).

٢) الآية (٢٤) من سورة الأنفال، ومن هذا يستفاد وجوب الاستجابة لنداء رسول الله ﷺ في حياته، وقطع ما يعوق الإجابة ولو كان العائق عبادة، وبعد موته ﷺ تكون الاستجابة لأمره ونهيه.

٣) أخرجه الإمام البخاري، حديث (٤٤٧٤، ٤٧٠٣).

٤) سورة الحجر آية (٨٧).

٥) ذكر القرطبي من أسمائها الرقية وهي داخلة في اسم الشافية، وقد ثبتت الرقية بها من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للرجل الذي رقى بها سيد الحي: (ما أدراك أنها رقية ؟) استفهام تقرير، والحديث أخرجه الإمام البخاري، حديث (٢٢٧٦) وانظر أطرافه هناك، وانظر الجامع لأحكام القرآن (١/١١٣).

سميت الكافية: لأنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها قال رسول الله ﷺ: « **أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها منها عوضاً** »[١] ألا ترى أنك إذا لم تقرأ في الصلاة إلا الفاتحة أجزأ ذلك وصحت الصلاة، ولو تركت الفاتحة وقرأت بدلا عنها سورة من المطول لم يجز ذلك ولم تكن الصلاة صحيحة، ولا تعارض بينه وبين حديث المسيء صلاته، فإن قوله ﷺ: « **واقرأ ما تيسر معك من القرآن** » مفسر بأن المراد به ما زاد عنها في الامتنان، وإن كان الامتنان حاصلا بها وحدها لاشتمالها على ما ذكر، فكأن الله ﷻ امتن بها من جانب لخصائصها، وببقية القرآن لما فيه من العظمة والخير والبركة والإعجاز؛ والله أعلم.

نزول جبريل عليه السلام بالفاتحة: الصحيح أن الفاتحة نزل بها جبريل عليه السلام استنادا إلى قول الله ﷻ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[٢] وقد أجمع العلماء على أن المراد بالروح الأمين جبريل عليه السلام.

---

١) الجامع لأحكام القرآن (١/١١) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٢٣٨) وقال رواة هذا الحديث أكثرهم أئمة وكلهم ثقات.

هذا رأي الحاكم كما أسند الحافظ بن حجر في لسان الميزان عنه أنه قال: محمد بن خلاد الاسكندراني ثقة، وكذلك وثقه العجلي (تاريخ الثقات٤٠٣) وذكره بن حبان (الثقات٩/٨٥) قال ابن حجر: قلت: انفرد بهذا الخبر من حديث عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعا (اللسان٥/١٥٦).

وقد أعل الدارقطني هذا الحديث بتفرد محمد بن خلاد به عن أشهب عن ابن عيينة (انظر الإتحاف٦/٤٢٩).

وقال ابن حجر: وقول الذهبي لا يدري من هو، مع من روى عنه من الأئمة ووثقه من الحفاظ عجيب، وما أعرف للمؤلف سلف في ذكره في الضعفاء ... ثم قال: هذا اللفظ تفرد به زياد بن أيوب . وهو ثقة . عن ابن عيينة والمحفوظ من رواية الحفاظ عن ابن عيينة (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) ثم قال: والظاهر أن رواية كل من زياد بن أيوب وأشهب منقولة بالمعنى، والله أعلم (لسان الميزان٥/١٥٦).

قلت: وهو كذلك والأمر واضح للناظر.

٢) الآيات (١٩٣.١٩٥) من سورة الشعراء.

والقراءتان لقوله: "نزل" بالتخفيف أو بتشديد الزاي صحيحتان. ولا يحصل الخلاف إطلاقا في أن ذلك من عند الله ﷻ على الوجهين المذكورين في "نزل"[1] ومن فهم من العلماء رحمهم الله أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد استنادا إلى حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: « **بينما جبريل قاعد عند النبي، سمع نقيضا[2] من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، ولم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة[3] لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته** »[4] من فهم عدم نزول جبريل عليه السلام بالفاتحة فقد أخطأ، لأن نزول سورة الفاتحة كان بمكة لآية الشعراء وهي مكية صريحة في نزول جبريل عليه السلام بجميع القرآن، منجما على نبينا محمد ﷺ.

قال القرطبي: "فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابتها بالمدينة، فإنه جمعٌ بين القرآن والسنة، ولله الحمد والمنة"[5].

---

١) انظر: (جامع البيان١٩/٦٨).

٢) قال في الصحاح (٢/٦٠٣) : النقيض: صوت المحامل والرحال. وانظر: (النهاية٥/١٠٧).

٣) المراد الآيات من قوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ...) الآيات إلى آخر السورة.

٤) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٢٥٤) وانظر: (تفسير ابن عطية١/١٤) وعنه نقل القرطبي في: (الجامع لأحكام القرآن١/١١٦) وسيأتي في ص ٢١، والذي وقفت عليه عند ابن عطية (اتلوا هذا القرآن فإن الله يأجركم بالحرف منه عشر حسنات ...) أخرجه الدارمي (٢/٣٠٨) موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ (تعلموا هذا القرآن) وأخرجه الترمذي (٥/١٧٥) مرفوعا بلفظ (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها ...) وقال: حسن صحيح غريب، وذكره المنذري في الترغيب (٢/٣٤٢).

٥) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٦).

قلت: وانقدح في ذهني وجه آخر، وهو أن يكون جبريل ﷺ نزل بها تلاوة وبخواتيم البقرة أيضا، ونزل الملك بالبشارة بنوريهما وأنهما أعطيتا لنبينا محمد ﷺ دون الأنبياء.

فيحصل الجمع الذي ذكره القرطبي رحمه الله من وجه آخر، وقد سمعت شيخنا أبو بكر جابر[1] الجزائري عظّم الله أجره، وبارك في عمره يقول: نزلت الفاتحة مرتين: مرة بمكة وآياتها سبع، بسم الله الرحمن الرحيم الآية الاولى.

ونزلت مرة أخرى في المدينة، ليس فيها بسم الله الرحمن الرحيم.

قلت: ما ذكر فضيلته فيه نظر: فلم تنزل السورة مرتين، بل نزلت تلاوة مرة واحدة في مكة، ونزل في المدينة البشارة بالنورين اللذين أوتيهما رسول الله ﷺ ولم أقف على ما يؤيد قول شيخنا هذا، أثابه الله، وهو في نظري توجيه حسن، وقد يقول قائل: نزلت مرتين والحكمة من ذلك تعظيمها، فأقول تعظيمها في البشارة بها وأنها نور أعطيه رسول الله ﷺ، أعظم في بيان فضلها، ولاسيما وتعظيمها ورد في نصوص من السنة كثيرة، والله أعلم.

مكية أو مدنية؟:

الصحيح من أقوال العلماء[2] أن سورة الفاتحة مكية، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[3] فقد من الله ﷻ بها على رسوله نبينا محمد

---

1) هذا اسمه مركّب، فلا يقال: أبابكر.

2) لهم ثلاثة أقوال في هذا:

١ . أنها نزلت بمكة وهو قول الجمهور.

٢ . أنها نزلت في المدينة.

٣ . أنها نزلت مرتين، مرة في مكة ومرة في المدينة تعظيما لشأنها.

انظر (الياقوت والمرجان في تفسير مبهمات القرآن ص:٢٢).

3) الآية (٨٧) من سورة الحجر.

ﷺ، والآية من سورة الحجر، وهي مكية، فلم يكن الله ﷻ يمن بها قبل نزولها[1] ولأن فرض الصلاة كان بمكة في ليلة الإسراء[2] ولا خلاف في ذلك بين العلماء[3] ومعلوم أن من أركان الصلاة قراءة الفاتحة، ولا صلاة صحيحة بدونها، لقوله ﷺ: « **لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب** »[4].

عدد آياتها:

اجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، ولم يخالف فيه إلا من لا عبرة بقوله، لشذوذه[5].

قال الطبري: وقد اتفق القراء والعلماء على أنها سبع آيات، وحصل الخلاف في الآية التي صارت بها سبع آيات، فقال جماعة من الأصحاب والتابعين وعُظْم[6] أهل الكوفة: هي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقال عُظْم قُراة[7] أهل المدينة ومتقنيهم: هي: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[8].

قال الخطابي: قال قوم: "هي آية من فاتحة الكتاب، وهو قول ابن عباس، وأبي هريرة، وسعيد بن جبير، وعطاء، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وقال آخرون: ليست التسمية من فاتحة الكتاب..."[9] ونقل ابن كثير رواية ابن مردويه بسنده من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **الحمد لله رب**

1) معالم التنزيل (١/٣٧).
2) انظر: البخاري، حديث (٣٤٩).
3) انظر: (الجامع لأحكام القرآن١/١١٥).
4) أخرجه مسلم من حديث عبادة ﷺ حديث (٣٤).
5) انظر: (الجامع لأحكام القرآن١/١١٤).
6) بضم العين: وعظم الشيء، أو الناس: معظمهم وأكثرهم.
7) بالتخفيف: جمع قارئ.
8) جامع البيان (١/١٠٩).
9) معالم السنن مع سنن أبي داود١/٥١٣.

العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداها، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب، وفاتحة الكتاب »[1] قال ابن كثير رحمه الله: رواه الدار قطني[2] أيضا عن أبي هريرة، مرفوعا بنحوه أو: مثله، وقال: كلهم ثقات. وهذا رأي ابن عباس ﷺ[3].

وقد ألف في وجوب قراءة البسملة في الصلاة الإمام أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي كتابا سماه "الرسالة المقنعة في وجوب قراءة البسملة في الصلاة" وألف أبو شامة المقدسي "البسملة الكبير" في مجلد، و "البسملة الصغير".

وقد أثبت السلف البسملة في المصحف، مع توصيتهم بتجريد القرآن مما سواه، ولذلك لم يثبتوا آمين، فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها[4]، فليعلم أن البسملة آية من الفاتحة وهو قول الجمهور، و﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ آية واحدة، هي الآية السابعة، تمام الفاتحة.

صلتها بالكتب السماوية:

أخرج البيهقي عن الحسن البصري أرسله قال: "أنزل الله ﷻ مائة وأربعة كتب من السماء، أودع علومها أربعة منها: التوراة، الإنجيل، والزبور، والقرآن، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل، والزبور: القرآن، ثم أودع علوم القرآن: المفصل، ثم أودع علوم المفصل: فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة"[5].

---

١) انظر: (تفسير القرآن العظيم ١/٢٢. وأنوار التنزيل ١/٥).

٢) سنن الدارقطني، حديث (٣٦).

٣) تفسير القرآن العظيم (١/٢٢).

٤) انظر: (الكشاف ١/ ٤) ومصحف المدينة النبوية.

٥) في شعب الإيمان (٥/٣٠٨. رقم ٢١٥٥).

قلت: في إسناده الربيع بن صبيح السعدي، صدوق سيء الحفظ، ومال الذهبي[1] إلى أنه صدوق، ونقل تضعيف النسائي له، وفيه إرسال الحسن، والحسن مرسلاته تكلم فيها العلماء، حتى قال بعضهم: مرسلات الحسن كالريح . أي لا يعتد بها . وقد ذكر هذا الأثر السيوطي[2] معزوا إلى البيهقي في شعب الإيمان[3] وعزا السيوطي إلى أبي عبيد في فضائله عن الحسن مرسلا قوله: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان »[4].

قال الألوسي رحمه الله: ذكر بعض العلماء، أن الفاتحة بإجماع علماء كل أمة افتتح كل كتاب بها، لكنه معارض بأن العربية من خصوصيات القرآن، ولا يمنع أن تكون معانيها موجودة في الكتب الأخرى، فالكتب السماوية بأسرها غير عربية[5].

ما ورد في فضلها:

أخرج الإمام البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، فقال: « **ما منعك أن تأتي؟**» فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[6] ثم قال:«**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد**»؟، فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد

---

١) في الكاشف (٣٠٤/١).

٢) في تفسيره (١٦/١).

٣) انظر: ٣٠٨/٥.

٤) فضائل القرآن٢٥/٢، والدر المنثور (١٦/١).

٥) في تفسيره (روح المعاني٣٩/١).

٦) الآية (٢٤) من سورة الأنفال، ومن هذا يستفاد وجوب الاستجابة لنداء رسول الله ﷺ في حياته، وقطع ما يعوق الإجابة ولو كان العائق عبادة، وبعد موته ﷺ تكون الاستجابة لأمره ونهيه.

فذكرته فقال: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته** »[1].

وأخرج البيهقي من حديث أبي هريرة ﷺ، عن أبيّ بن "مالك"[2] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها؟** » قلت: بلى، قال: « **إني لأرجو ألا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها**»[3] فذكر الحديث.

وأخرج النسائي بسند رجاله ثقات من حديث أنس بن مالك ﷺ قال:"كان النبي ﷺ في مسيرة فنزل، فمشى رجل من أصحابه إلى جانبه فالتفت إليه النبي ﷺ" فقال: « **ألا أخبرك بأفضل القرآن؟**، قال: فتلا عليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4] يعني الفاتحة، وكذلك حديث عبد الله بن جابر ﷺ، وفيه: أن رسول الله ﷺ قال له: « **يا عبد الله بن جابر، ألا أخبرك بخير سورة نزلت في القرآن؟** » قال: قلت: بلى، يا رسول الله، قال: « **فاتحة الكتاب** »[5] وذكر البيهقي رحمه الله اختلاف الرواة في هذه الرواية ثم قال: فيشبه أن يكون هذا القول صدر من جهة صاحب الشرع ﷺ لأُبيّ، ولأبي سعيد بن المعلى كليهما، وحديث ابن المعلى رجاله أحفظ، والله أعلم[6].

---

١) أخرجه الإمام البخاري، حديث (٤٤٧٤، ٤٧٠٣).

٢) هذا تحريف، والصواب: أبي بن كعب ﷺ، لأن أبي بن مالك ليس له إلا حديث واحد في بر الوالدين (الإتحاف ١/٢٦٣-٢٦٧، وشعب الإيمان٥/٢٨٤).

٣) شعب الإيمان، حديث (٢١٣٩).

٤) السنن الكبرى (٥/١١) كتاب فضائل القرآن، باب(١٦) رقم (٨٠١١/٢) وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

٥) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان ٥/٣٠٥-٣٠٦ رقم ٢١٥٢).

٦) شعب الإيمان (٥/٢٨٥ . ٢٨٧).

قلت: ولذلك أخرجه الإمام البخاري وهذا يؤكد دقة الإمام البخاري وعلمه بعلل الأحاديث وضبط الرجال لما يروون، ولا يمنع إخباره ﷺ لأكثر من واحد من أصحابه [1].

الفاتحة من خصائص النبي ﷺ وأمته:

خصّ الله ﷻ نبينا محمدا ﷺ وأمته بسورة الفاتحة، لم يعطها أحدا من الأنبياء قبله، فليحرص المسلم على تجويدها وفهم معانيها.

أخرج الإمام مسلم من حديث ابن عباس ﷺ قال: « **بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضا من فوقه، رفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: ابشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته** »[2] وفي هذا دلالة صريحة على اختصاص نبينا محمد ﷺ وأمته بالفاتحة، ومن خصّ بشيء زاد حرصه عليه، لاختصاصه به لنفاسته دون سواه، فليعتن المسلم بسورة الفاتحة، فهما لدلالاتها وتجويدا لتلاوتها.

الفاتحة حِوار بين العبد وربه ﷻ:

ما أعظم مناجاة العبد لربه ﷻ واستشعاره محاورته لمولاه جل وعلا من خلال فاتحة الكتاب، هنا يدرك العبد لذة المناجاة حينما يحزبه أمر فيلجأ إلى خالقه وباريه، يطلب

١) انظر (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد٢٠/٢١٧ . ٢٢٠).
٢) حديث (٢٥٤).

منه اللطف والرحمة والعفو والمغفرة هكذا كان يفعل سيد الخلق ﷺ إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة[1] وإذا حان وقت الفريضة قال: « **يا بلال أرحنا بالصلاة** »[2].

أخرج الإمام مسلم حديث أبي هريرة ﷺ وفيه: سمعت الرسول ﷺ يقول: « **قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدني عبدي، وقال مرة: فوض إليّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل** »[3].

الفاتحة شفاء وأخذ الأجرة على الرقية بها جائز:

ما أكثر ما يعتل الإنسان روحاً وجسداً وقد أخبر الباري ﷻ أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين[4] وثبت النقل عن الرسول ﷺ أن الفاتحة يستشفى بها فليكن المسلم موقنا بذلك وليحرص على الاستشفاء بالقرآن وأوله الفاتحة وليحذر كل الحذر مجانبة المنهج النبوي في ذلك.

---

١) أخرجه أبو داود في سننه (٧٨/٢. رقم ١٣١٩) من حديث حذيفة (كان النبي ﷺ إذا حز به أمر صلى) ويشهد له الذي بعده، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) هذا قول حذيفة وفي سنده محمد بن عبد الله الدؤلي مقبول.

٢) أخرجه الطبراني (٣٤٠/٦) من حديث صحابي من أسلم.
قال الهيثمي في المجمع (١٤٥/١): فيه أبو حمزة الثمالي ضعيف واهي الحديث، وأخرجه أبو داود (٢٦٢/٥) والإمام أحمد في المسند (٣٦٤/٥، ٣٧١) وفي إتحاف السادة المتقنين (١٣٧/٣) قال: إسناده صحيح.

٣) في صحيحه (٢٩٦/١ـ رقم ٣٩) وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٩٢/٥ . رقم ٢١٤٦) وأطال المحقق في تخريجه فليعد إليه الراغب.

٤) قال الله تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء آية (٨٢).

أخرج الإمام مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فلم يضيفوهم فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؟، فإن سيد الحي لديغ أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم فأتاه فرقاه "بفاتحة الكتاب" فبرأ الرجل، فأعطي قطيعاً من غنم فأبى أن يقبلها، وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب فتبسم ﷺ وقال: « **وما أدراك أنها رقية؟!**»، ثم قال: «**خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم** »[١] وأخرجه الإمام البخاري بزيادة: « **فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع ريقه ويتفل فبرأ** »[٢] وهذه الزيادة عند مسلم، ولكني ذكرتُ رواية مسلم أولا لورود القصة فيها بأتم.

أخرج البيهقي بسنده من حديث عبد الله بن جابر ﷺ قال: "أتيت النبي ﷺ وهو يبول فوقفت عليه فقلت: السلام عليك، فلم يرد عليّ، ثم قلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليّ، ثم قلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليّ.

قال: ونهض ودخل بعض حجره، قال: فملت إلى اسطوانة في المسجد وأنا كئيب حزين، فبينا أنا كذلك إذ خرج رسول الله ﷺ فتوضأ، قال: فأقبل حتى وقف عليّ، ثم قال: « **وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، عليك السلام ورحمه الله** » ثم قال:« **يا عبدالله بن جابر، ألا أخبرك بخير سورة نزلت في القرآن؟**» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: فاتحة الكتاب".

قال علي: وأحسبه قال: « **فيها شفاء من كل داء** »[٣].

قلت: عليّ هو: علي بن هاشم بن البريد، وقد أخرج الدارمي ما قال عليّ هذا، من مرسل عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: « فاتحة الكتاب شفاء من كل

---

١) حديث (٦٥) ويستفاد من هذا وجوب تحري الحلال، والبعد عن الشبهات والمحرمات في المكاسب.

٢) حديث (٥٧٣٦).

٣) في شعب الإيمان (٥/٦٠٥ . رقم ٢١٥٢).

داء » [1] ولا يبعد أن يكون واسطته من الضعفاء، فدلسه بالإرسال فإنه ثقة تغيّر، وربما دلس. وأخرجه البيهقي [2].

هذا وفي الفاتحة وفضائلها أحاديث كثيرة منها الثابت الصحيح والضعيف والموضوع واقتصرنا على بعض ما صح وثبت عن رسول الله ﷺ بغية إفادة القارئ وما ذكرنا مما تكلم فيه العلماء أبنّا علته، فسورة الفاتحة هي أفضل السور بالنص على ما مر ذكره، وبالمعنى على ما سيأتي، وهي أجمع سورة للخير، زادنا الله بها فهما وعلما وعملا.

مقاصد الفاتحـة:

من المعلوم لأهل العلم، وأصحاب الخبرة في البحث والنظر أنه لو ذهب بعضهم يتتبع مقاصد الفاتحة، ويستجلي ما تضمنت من غايات لأمكنه أن يكتب الكثير من الفوائد العلمية، ونحن في هذا نسدد ونقارب لغرض الإفادة، والتوجيه والدلالة لمن أراد الزيادة في البحث والإمعان فيه.

إن سورة الفاتحة تضمنت من المقاصد والمعاني والدلالات، ما لم تتضمنه سورة من سور القرآن الكريم، وقد ضم القرآن الكريم علوم الكتب السماوية وزاد عليها.

ففي الفاتحة الثناء الجميل على الله ﷻ بما هو أهله، على صفة الكمال المطلق، بأسمائه وربوبيته وصفاته تعالى، والاستعانة به وحده لا شريك له، وإخلاص العبادة له، والتوجه إليه تعالى بالطلب والدعاء، وهذا كله مقاصد القرآن الكريم، تناوله حديث «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل**... » [3] ومن خلال البحث والنظر في هذه السورة العظيمة ظهرت عدة مقاصد، وخلاصتها في ثلاثة أمور:

---

1) في مسنده المعروف بسنن الدارمي (٢/٣٢٠).

2) في شعب الإيمان، حديث (٢١٥٤) وفيه انقطاع.

3) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٣٩٥).

١. تضمنها مقاصد القرآن كله على سبيل الاجمال.

٢. تضمنها مقاصد السورة الواحدة.

٣. تضمنها مقاصد الآيات.

أما مقاصد القرآن فقد ذكر العلماء أنها في أربعة أمور:

١. الإلهيات.

٢. النبوات وقصص الأمم السابقة.

٣. الأوامر والنواهي والأحكام.

٤. المعاد وما بعده[١].

ومقاصد السورة الواحدة: مثاله ما تضمنته الفاتحة وهو ما ذكرنا في مستهل هذا المبحث.

أما مقاصد الآيات: فقد ورد في كثير من الآيات التوجيه إلى الحِكَم النظرية، والأحكام العملية، وذلك في معرفة الطريق المستقيم وسلوكه، ومجانبة طريق الشقاء، ومعرفة مراتب الأشقياء والبعد عنها[٢] ويمكن أن يسمى هذا بالجانب العلمي، والجانب العملي، وسورة الفاتحة تضمنت آياتها الجانبين، فنصفها الأول علمي، والثاني عملي ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إلي آخر السورة.

وفيما يلي نورد تحليلا لهذه المقاصد في الفاتحه حسب ما فهمنا من دراسة أقوال العلماء.

---

١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٨).

٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٨) للبيضاوي.

الإلهيات:

هذا المقصد العظيم، تضمنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تضمنت الأسماء والصفات والأفعال، فوجهت إلى معرفة الله ﷻ، ومعرفة صفاته وأفعاله.

النبوات:

وقصص الصالحين: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو قصص غيرهم من العصاة وأهل الكفر ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

الأحكام:

الأوامر والنواهي: تضمنها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهذا إيحاء إلى العبد أن الحكم الشرعي أن تكون العبادة خاصة وخالصة لله وحده لا شريك له، وكذلك الاستعانة، ولا يكمل ذلك إلا بالاستجابة لأحكام الإسلام.

المعاد:

تضمنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا فيه وعيد وبيان أن الإنسان مدان بعمله في هذا اليوم المشهود، ويأخذ جزاء مكاسبه في الحياة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾وعد من الله ﷻ، أن مَن هذا حالهم في الاستقامة وتجريد العبادة لله ﷻ، والمتابعة لرسوله نبينا محمد ﷺ، مع الصبر والدعاء يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

ومن هذا يتحصل لنا أن الفاتحة تضمنت ثلاثة ميادين علمية هي:

تعريـف المـدعو إليـه: وهـو « الله ﷻ» وذلـك فـي قولـه تعـالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقـد فصّـل الكتاب والسنة هذا التعريف.

تعريف الوسيلة الموصلة إليه وهي: الصراط المستقيم المتمثل في العمل بما جاء عن الله ﷻ، وعن رسوله نبينا محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾١ وقال ﷻ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾٢.

تعريف حال المخلوق لهذا التكليف الشرعي: وهم بنوا آدم وهم قسمان: قسم استجاب لهذا التكليف، فسلك الصراط المستقيم وهم الذين أنعم الله عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهم الأنبياء والرسل، والصديقون والشهداء والصالحون، وعباد الله المؤمنون به وبأنبيائه وكتبه ورسله، السالكون صراطه المستقيم، بعملهم بأحكام الإسلام، بين ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾٣، وقد ثبت بالكتاب والسنة أن أبا بكر ﷺ من الصديقين.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾٤. فالذي جاء بالصدق هو نبينا محمد ﷺ، والصدق هو القرآن الكريم، والذي صدّق به هم المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر ﷺ، وهذا ما نراه راجحا، يؤيد هذا قوله تعالى في آخر

---

١) الآية (٣) من سورة المائدة.

٢) الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

٣) الآية (٦٩) من سورة النساء.

٤) الآية (٣٣) من سورة الزمر.

الآية:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾١، لأنه لا متقي يومئذ غير الرسول ﷺ وأصحابه، وكلهم متقون لأن المؤمنين بالنبي ﷺ لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسالة تطهرت ضمائرهم من كل سيئة، فكانوا محظوظين من الله بالتقوى٢، قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾٣، هم ومن سلك مسلكهم في التصديق به قولا وعملا داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾٤، وللعلماء أقوال هذا أعدلها في نظري، قال إمام المفسرين: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه عنى بقوله: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾٥ كلّ من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما بعث به رسوله، سواء كان رسولا أو تابعا للرسول، وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدّق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائنا من كان من أنبياء الله وأتباعهم من المؤمنين.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن قوله تعالى ذِكْره: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾٦ عَقيب قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ ﴾٧ وذلك ذم من الله للمفترين عليه، المكذبين بتنزيله ووحيه، الجاحدين وحدانيته، فالواجب أن يكون عَقيب ذلك مدح من كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، وهم الذين دعوهم إلى توحيد الله، ووصفه بالصفة التي هو بها، وتصديقهم بتنزيل الله ووحيه، والذين كانوا يوم نزلت هذه الآية هم رسول الله ﷺ

---

١) الآية (٣٣) من سورة الزمر، وانظر (البحر المحيط ٣٨٤/٩).
٢) التحرير والتنوير (٨٧/٢٤) وانظر: (روح المعاني ٤٧٠/١٧) وانظر: (التفسير الكبير للرازي ٢٦٣/١٣).
٣) الآية (١١٠) من سورة آل عمران .
٤) الآية (٣٣) من سورة الزمر، وانظر (البحر المحيط ٣٨٤/٩).
٥) الآية (٣٣) من سورة الزمر، وانظر (البحر المحيط ٣٨٤/٩).
٦) الآية (٣٣) من سورة الزمر، وانظر (البحر المحيط ٣٨٤/٩).
٧) من الآية (٣٢) من سورة الزمر .

وأصحابه ومن بعدهم، والقائمون في كل عصر وزمان بالدعاء إلى توحيد الله، وحكم كتابه[1]، وصح من السنة قول نبينا محمد ﷺ في شأن تصديق أبي بكر ﷺ: « **هل أنتم تاركون لي صاحبي هل أنتم تاركون لي صاحبي إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت** »[2]، وقال ﷺ في قصة الإسراء حين قال له المشركون: هل لك إلى صاحبك يزعم أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ؟ قال: أوَ قال ذلك ؟ قالوا: نعم قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟، قال: نعم إني لأُصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة[3]، وقال ﷺ في قصة الروم حين قال له المشركون: ألا ترى إلى صاحبك يزعم أن الروم ستغلب فارس؟، قال: صدق رسول الله ﷺ قال: فهل نبايعك[4] على ذلك؟، قال: نعم، قال أبو بكر: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: « **ما أردت إلى هذا** » ؟، فقال: يا رسول الله، ما فعلته إلا تصديقا لله ورسوله، قال: « **فتعرض لهم، وأعظم لهم الخطر[5]، واجعله إلى بضع سنين، فإنه لن تمضي السنون حتى تظهر الروم على فارس** » قال: فمر بهم أبو بكر، قال: فهل لكم في العود؛ فإن العود أحمد ؟، قالوا: نعم فبايعوه، وأعظموا الخطر، فلم تمض السنون حتى ظهرت الروم على فارس، فأخذ الخطر، وأتى به النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « **هذا للنجائب** »[6]، فما شأنٌ يخبر به رسول الله ﷺ إلا كان أبو بكر أول المصدقين به ﷺ، فاستحق لقب الصديق، صبيحة الإسراء، والصديقية أعلى مراتب التصديق، وهي أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فاجتمع لأبي بكر ﷺ كمال الانقياد للرسول مع كمال

---

١) الطبري (٢٩١/١٢) بتصرف.

٢) البخاري حديث (٤٣٦٤).

٣) المستدرك ٦٥/٣، صحيح.

٤) أي نراهنك على ذلك.

٥) أي الرهن.

٦) المطالب العالية ٣٨٠/١٠.

الإخلاص للمرسل ١، وقد أجمع الصحابة على تسميته بالصديق مبالغة في الصدق ٢، وكذلك من بعدهم من أهل السنة والجماعة، ومنهم آل البيت ﷺ، قال أبو جعفر الباقر رحمه الله وقد سُئل عن حلية السيف فقال: لا بأس به، قد حلَّى أبو بكر الصديق ﷺ سيفه، قال الراوي: قلت: تقول الصديق، قال: نعم الصديق، نعم الصديق، نعم الصديق، فمن لم يقل له الصديق، فلا صدَّق الله له قولاً في الدنيا وفي الآخرة٣، وبهذا يتضح أن الصديق ﷺ داخل في الذين أنعم الله عليهم، الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق ﷺ على الصراط المستقيم، وأن إمامته حق ٤، إلا عند من أعمى الله بصائرهم عن الحق، فلا أقام الله لهم راية ولا حقق لهم غاية، ونسأله تعالى أن يجعل تدبيرهم تدميرهم.

القسم الثاني من أقسام بني آدم قوم لم يستجيبوا لداعي الشرع، وتنكبوا الصراط المستقيم، وخرجوا عن الجادة وهم الذين عرّف حالهم بقول الله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ومن هذا يظهر لنا أن من مقاصد الفاتحة ما يلي:

المقصد الأول:

تحديد مسمى الإله وأنه «الله ﷻ» وحده لا شريك له، المتفرد بصفات الكمال والجلال، والخلق والإيجاد من العدم، والربوبية المطلقة لجميع المخلوقات، تضمن هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهذا جلي يعلمه أبسط الخلق، وفي هذا المقصد الرد على المشركين والملحدين، الزاعمين أن قوة خفية تدبر هذا العالم، وحاروا في تحديدها، وهذا من عمى البصائر والعياذ بالله. وقد هدى الله المسلمين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

---

١) انظر: التفسير القيم ٢/٢١.

٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن جبرين ٤/ ٨.

٣) اعتقاد الشيعة الاثنى عشرية سؤال وجواب ١/٧٦.

٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٨.

وأنه تعالى وحده المدبر لهذا العالم، علويه وسفليه ظاهره وباطنه، ما علمنا منه وما لم نعلم.

المقصد الثاني:

بيان أن العالم العلوي والسفلي، وما فيهما من مخلوقات، كلها مربوبة لله ﷻ، هو ربها ومدبر شؤونها، لا يخرج عن قدرته شيء، ولا يكون إلا ما يريد سبحانه، ومقتضى هذا رحمة عباده في تربيتهم الروحية، كما رباهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وفي هذا المقصد الرد على جميع الوثنيين الذين اتخذوا أربابا من دون الله ﷻ، تضمن هذا قوله تعالى: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾هذا الإجمال بينه قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾[١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[٢].

المقصد الثالث:

بيان أن ورود أسماء الرب جل شأنه (الله . الرب . الرحمن . الرحيم . مالك) تأسيس لتوحيد الأسماء والصفات وأنه على وجه الكمال لله ﷻ، وأنه تعالى سمى نفسه بهذه الأسماء وغيرها مما ورد في الكتاب والسنة على وجه الكمال المطلق، وعلى مبدأ ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[٣] وفي هذا رد على جميع الفرق الضالة، التي تؤول الأسماء والصفات، أو تعطل ذات الله ﷻ منها، فمن جحد شيئا منها أو: أوله فقد كذَّب صريح القرآن، وصحيح السنة النبوية، وقد تضمن هذا قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

---

١) الآيتان (٢٣، ٢٤) من سورة الشعراء.

٢) الآية (٢٦) من سورة الشعراء.

٣) الآية (١١) من سورة الشورى.

المقصد الرابع:

بيان أن الله تعالى هو المتفرد بالحكم، فله الأمر والنهي ورتب على هذا بعث العباد، وحشرهم في ذلك اليوم المشهود، الذي تُنصب فيه الموازين، وتكون فيه كل نفس بما كسبت رهينة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1] لايستطيعون زيادة في الحسنات، ولا نقصا في السيئات قال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[2]وفي هذا المقصد رد على الذين يسعون إلى إيجاد شرائع في الأرض وقوانين تخالف ما أنزل الله، من الناعقين والناعقات من المتبعين لأهوائهم في عالم اليوم المليء بالمتناقضات، وتصارع الأفكار والحضارات تضمن هذا قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

المقصد الخامس:

بيان أنه لا يستحق أحد العبادة إلا الله وحده لا شريك له، فهو المعبود بحق على وجه الخصوص، فكل معبود سوى الله ﷻ باطل، وكل من عبد غير الله فقد ضل سبيل الرشاد، وسلك مسالك أهل الغي والعناد، وفي هذا المقصد رد على الذين يتعبدون عند القبور بالذبح، والذكر ودعاء الأموات، والتقرب إلى الأولياء، وطلب قضاء الحاجات منهم، وهذا كله من صرف العبادة لغير الله ﷻ، ولما كان الدعاء من العبادة نصّفه الله ﷻ في الفاتحة فجعل النصف الأول منه مجمع الثناء عليه تعالى، والنصف الثاني من الدعاء مجمع حاجات العباد كل ذلك يتوجهون به إلى ربهم وخالقهم تمجيدا وثناء عليه وطلبا واستجداء منه تعالى[3]، وفي الآية رد على المبتدعة من الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبر على عمله، وهذا زعم باطل يرده أيضا قول الله ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ

---

١) الآية (٧ . ٨) من سورة الزلزلة.

٢) الآيتان (٣٩، ٤٠) من سورة النجم.

٣) الجامع لأحكام القرآن (١/١٤٧).

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1]، وردٌّ على القدرية الذين ينفون القدر، وهذا يستدعي أن يقع في ملك الله ما لا يشاء، وأنه ليس على كل شيء قدير، تعلى الله عن ذلك علوا كبيرا[2].

المقصد السادس:

نفي العناد والجحود، وطرد الشك والضلال، بطلب الهداية والتوفيق إلى الحق، فالهداية جزء من لطف الله ورحمته بالعباد، ولأهمية هذا الجانب، أرسى الله ﷻ لوازمه أولا، فعرّف بالمعبود: الله ﷻ، وخصه بالعبادة، وعرّف بالمتبوع: رسول الله نبينا محمد ﷺ، وخصه بالإتباع، وعرّف بالمنهج: الكتاب والسنة، وأمر بالاستقامة على ذلك، فهذه أركان الهداية الأربعة:

المعبود: هو الله، فالعبد في الفاتحة يكرر الرجاء في خالقه ويديم التوسل والدعاء، أن يهديه الطريق المستقيم في الأمور كلها الحسية والمعنوية، من شئون الدنيا والآخرة، وفي هذا المقصد ردٌّ على الذين يتوسلون بالأموات من الأنبياء والصالحين، ويستجيرون بالمخلوق دون الخالق، تضمن هذا قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

المقصد السابع:

بيان أن النبوة أعظم النعم التي منّ الله بها على العباد، إذ عرّفهم بالمتبوع، ومعرفته هي الركن الثاني من أركان الهداية، فبواسطة الرسل عرف العباد ربهم وعبدوه حق عبادته، وعليهم أنزل الله كتبه، فكان القرآن الكريم خاتمها، وكان رسول الله نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، حدد الله الخير والشر، وعرّف الأمة الحلال والحرام، والمعروف والمنكر، وهذا كله مقتضى رحمة الله بعباده في قوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ومقتضى العدل في قول الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومقتضى

---

١) الآية (١٦٥) من سورة النساء.

٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١٤٥) بتصرف.

إخلاص العبادة له في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن العبادة لا تسلم من الشرك والبدع، إلا إذا أخذت من طريق النقل عن الرسل عليهم السلام، فالعقول لا تحدد الشرائع وطريقة العبادات، ولا يعبد الله إلا بما شرع، ولا سبيل لمعرفة ما شرع الله ﷻ إلا من طريق الرسل عليهم السلام، ولذلك شدد الله ﷻ في الإيمان بهم وجعله أحد أركان الإيمان الستة، كما شدد على اتّباع الرسول نبينا محمد ﷺ فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [2] وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [4] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [5].

المقصد الثامن:

التعريف بالمنهج: وهو الركن الثالث من أركان الهداية، وتصنيف بني آدم على أساس الإيمان بالله ﷻ، وعدم الإيمان به، حيث جعلت الفاتحة الناس صنفين:

١ـ صنف مؤمن عالم عامل، عرف الحق تعالى فعبده وحده لا شريك له، وعرف المبلغ عن الله ﷻ، فصدقه واتبعه، وعرف الطريق المستقيم فسلكه، وهذا تضمنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

---

١) الآية (٣١) من سورة آل عمران.

٢) الآية (٦٥) من سورة النساء.

٣) الآية (٦٣) من سورة النور.

٤) الآية (٣٦) من سورة الأحزاب.

٥) الآية (٧) من سورة الحشر.

٢. صنف اتبع هواه ولم يسمع للرسول نبينا محمد ﷺ، ولم يحكِّم ما جاء به من عند الله ﷻ، فضل ضلالا مبينا، وتضمن هذا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهكذا يقع الناس في الضلال من ثلاثة أمور مجتمعة، أو من أحدها: من شبهة تقع في القلب فتورثه الشك في دين الله ﷻ، أو من شهوة محرمة يصاب بها فتورثه تقديم شهوته المحرمة على طاعة الله ورسوله، أومن حقد يورثه غضبا وعدوانا على عباد الله المؤمنين.

المقصد التاسع:

الاستقامة على المنهج الصحيح، وهو الركن الرابع من أركان الهداية، ولتحقيق ذلك جرى بث الوعي بين العباد بأسلوبين:

١. أسلوب الترغيب والبشارة، تضمنه قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ففي سلوك هذا المنهج ترغيب في الجنة ونعيمها، وبشارة بالنجاة، وبمصاحبة الذين أنعم الله عليهم، وهم الأنبياء والرسل، والصديقون والشهداء والصالحون.

٢. أسلوب التحذير والترهيب، تضمنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالتعبير بالغضب والضلال هو من أبلغ العبارات في الزجر والتخويف، ومن وقع في الضلال لحقه الغضب، ومن لحقه غضب الله ﷻ فقد خاب وخسر.

المقصد العاشر:

تشخيص الداء، وتحديد الدواء: قد تشخص الداء من خلال قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تشخيص لسبب الغضب وهو داء الكفر والعناد، وأنه لم ينلهم الغضب إلا بسبب كفرهم وعنادهم، وعدم استجابتهم لدعوة الحق، وقد لازم غضب الله اليهود لعنادهم وجحودهم، وتكبرهم عن الاستجابة للأنبياء المرسلين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تشخيص لسبب الضلال وهو داء اتّباع الهوى، وأنه يزلّ بصاحبه عن المحجة، فيكون في سُبُل تعصف به، فلا يستقر به قرار [١]، ومن هنا لازم الضلال النصارى لتحكيمهم أهواء أحبارهم ورهبانهم، وبذلك اتخذوهم أربابا [٢] من دون الله.

وقد حدد الدواء في: الهداية وأركانها التي أسلفنا الكلام عليها، وهي: معرفة المعبود، ومعرفة المتبوع، ومعرفة المنهج، ثم الاستقامة على ذلك.

ومن ذلك نعلم أن صلاح القلوب لا يكون إلا بترسيخ العقيدة الصحيحة، وتحديد مسار العبد وفق ما تضمنته سورة الفاتحة .

وجوب قراءتها في كل ركعة:

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب** »[٣] وأنه قال: « من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج غير تمام »[٤]. فأي بيان أوضح من هذا.

وهذا ما ذهب إليه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وداوود بن علي الظاهري، وجمهور أهل العلم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب.

قال ابن خويز منداد المالكي البصري: وهي عندنا متعينة في كل ركعة، قال: ولم يختلف قول مالك فيمن نسيها في ركعة، من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل[٥] ونقل

---

١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الآية (١٥٣) من سورة الأنعام.

٢) انظر الآية (٣١) من سورة التوبة، وحديث عدي بن حاتم.

٣) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٣٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

٤) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٤١) من حديث أبي هريرة وفيه (بفاتحة الكتاب) وانظر التمهيد (١٩٢/٢٠).

٥) التمهيد (١٩٢/٢٠).

هذا القول القرطبي رحمه الله في تفسيره[1]، ونقل عن ابن عبد البر قوله: الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ـ يعني الركعة التي لم يقرأ فيها بالفاتحة ـ ويأتي بركعة بدلا منها كمن أسقط سجدة سهوا[2].

وقال القرطبي رحمه الله: الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي، وأحمد، ومالك في القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة في كل ركعة لكل أحد على العموم، لقوله ﷺ: « **لا صلاة لمن لم يقرا بفاتحة الكتاب** »[3] وقوله: «**من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج** »[4] ثلاثا، وقال أبو هريرة ﷺ: أمرني رسول الله ﷺ، أن أنادي أنه « **لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب فما زاد** »[5].

كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها، ثم عدّد جمعا من الصحابة والأئمة قالوا بهذا[6] وقال: وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني في سننه، ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال ـ فذكر بسنده ـ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد لله وسورة في فريضة أو غيرها** »[7]، وهذا الحديث وإن ضعفه بعض العلماء، فإن صدره تشهد له الأحاديث القاضية بأن لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، أما قراءة سورة بعدها فقد قال بالوجوب جماعة من الصحابة ﷺ منهم عمر وابنه عبد الله، وعثمان بن أبي العاص وغيرهم، ومن أدلتهم حديث المسيء صلاته، فإنه أمر بقراءة الفاتحة وما تيسر، وذهب آخرون إلى أن

---

١) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٧).

٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٧).

٣) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٤١).

٤) سنن أبي داوود، حديث (٨١٨ ، ٨٢٠) بألفاظ متقاربة.

٥) سنن أبي داوود، حديث (٨٢١) ولفظه (من صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن....).

٦) الجامع لأحكام القرآن (١/١١٩).

٧) سنن ابن ماجة، حديث (٨٣٩) في إسناده أبو سفيان السعدي طريف ابن شهاب، ضعيف لكن تابعه قتادة، أخرجه ابن حبان، انظر (٣/١٤٠) من الإحسان بترتيب صحيح بن حبان.

ذلك على سبيل الاستحباب، ولا خلاف بين العلماء في استحباب السورة مع الفاتحة في صلاة الصبح والجمعة، والأوليين من كل الصلوات، وذلك سنة عند جميع العلماء.

وحيث إن مقصدنا بيان الأصح من أقوال العلماء، وما أيده الدليل، ولزوم الاختصار نكتفي بما ذكرنا، وإلا فالنصوص الدالة على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة كثيرة، سواء في حق المأموم أو المنفرد، ومنها ما ثبت في صحيح الإمام مسلم: أنه ﷺ قال للذي علمه الصلاة: «**وافعل ذلك في صلاتك كلها** »[1] وأخرج أبو داوود رحمه الله، عن نافع، عن محمود بن الربيع الأنصاري قال: « **أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح، أقام أبو نعيم المؤذن الصلاة، فصلى أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة وأنا معه حتى صففنا خلف أبي نعيم، وأبو نعيم يجهر بالقراءة، فجعل عبادة يقرأ أم القرآن، فلما انصرفت قلت لعبادة: سمعتك تقرأ بأم القرآن، وأبو نعيم يجهر؟، قال: أجل، صلى بنا رسول الله ﷺ بعض الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة قال: فالتبست عليه القراءة، فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: هل تقرؤن إذا جهرت بالقراءة؟، فقال بعضنا: إنا نصنع ذلك، قال: فلا ـ وأنا أقول: ما لي ينازعني القرآن ـ فلا تقرؤوا بشيء من القرآن إذا جهرت إلاّ بأمِّ القرآن** »[2] وقال أبو داود: وهذا أصح، والعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام، عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، وهو قول مالك بن أنس، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق[3].

وقال الدارقطني بعد أن أخرج الحديث من طريق محمد بن إسحاق عن مكحول عن محمود: هذا إسناد حسن، وقال بعد أن أخرجه من طريق زيد بن واقد، عن مكحول به: كلهم ثقات ـ يعني رجال إسناده ـ وقال عن محمود بن الربيع الأنصاري: وكان

---

1) صحيح الإمام مسلم، حديث (٤٥).

2) سنن أبي داوود، حديث (٨٢٤).

3) سنن الترمذي، حديث (٣١١).

يسكن إيليا[1] وكان أبو نعيم أول من أذن في بيت المقدس[2]، واعتقد أن هذا من كلام الدارقطني، يرد به قول من جهّله، وإلا لما حكم على الإسناد بأن رجاله ثقات.

وهذا يرد كلام أبي عمر بن عبد البر في أبي نعيم أنه مجهول[3]. فالذي أراه راجحا ومنصورا دليله بإذن الله تعالى، وجوب القراءة لما أوردنا من نصوص، ولأنه أحوط في دين العبد، وأتقى لله تعالى.

ومن أراد العودة إلى أقوال العلماء في هذه المسألة فإن الخلاف فيها على ثلاثة أقوال كما ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر رحمه الله قال: وهذا موضوع اختلفت فيه الآثار، عن النبي ﷺ، واختلف فيه العلماء، من الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، على ثلاثة أقوال. ثم قال: منهم قائلون: لا يقرأ لا فيما أسر ولا فيما جهر، وقال آخرون: يقرأ معه فيما أسر فيه، ولا يقرأ فيما جهر فيه إلا بأم القرآن، خاصة دون غيرها، والثالث سقط ولم يتنبه المحقق إلى إلحاقه، وهو: يقرأ فيما أسر الإمام ولا يقرأ فيما جهر[4]. وقد ناقش رحمه الله الآثار والأقوال وأفاض في ذلك[5] وقد أبنّا القول الراجح[6] وأن قراءة أم الكتاب في كل ركعة لا تسقط إلا عند العجز عن قراءتها عجزا شرعيا. وبالله التوفيق.

جواز الزيادة على الفاتحة من القرآن:

ليعلم القارئ الكريم، أنه لا تجزيء صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئ أن ينقص حرفا منها، لأن ذلك تحريف وإحالة للمعنى إلي غير المراد منه، فإن لم

---

١) بكسر أوله واللام، وياء وألف ممدودة، إسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله (معجم البلدان ١/٢٩٣).

٢) سنن الدارقطني، حديث (٥، ٦) وانظر الجامع لأحكام القرآن (١/١٢٠).

٣) التمهيد (١١/٤٦).

٤) التمهيد (١١/٢٧ . ٢٨).

٥) التمهيد (١١/٢٣.٥٥).

٦) وانظر الرازي (١/٢١٤-٢١٨، وللعلم بما قيل في مطلق القراءة١/١٨٨-٢١٤).

يقرأها المصلي أو نقص منها حرف أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها، وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى.

وقد أجمع العلماء على أنه لا صلاة إلا بقراءة، وأنه لا توقيت في ذلك بعد الفاتحة، عن النبي ﷺ[1]، فيجوز أن يقرأ بعد الفاتحة ما شاء: آية أو أكثر، سورة أو أكثر، إنشاء أطال القراءة وإن شاء اختصرها على حسب الحال، فقد قرأ رسول الله ﷺ بالسور الطوال والمفصل، وقصار المفصل، والأمر فيه سعة حسب ما يقتضيه الحال، وكل ذلك ثابت بالسنة الصحيحة، ومستند جواز الزيادة في القراءة على الفاتحة حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للأعرابي: « **اقرأ ما تيسر معك من القرآن** »[2] أي ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾[3]، والآية ذاتها ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ هذا في الصلاة وغيرها، وتستثنى قراءة الفاتحة في الصلاة، لأن قراءتها واجبة فيها، كما في حديث عبادة أيضا: « **لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن** »[4] وزاد في رواية « **فصاعدا** »[5] وقوله ﷺ: « **هي خداج** ــ ثلاثا ــ **غير تمام** » أي غير مجزئة، والخداج النقص والفساد[6] والصريح في ذلك أيضا رواية أبي داوود من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: « **أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب، وما تيسر** »[7] وهذا تفسير لمراده ﷺ بقوله للأعرابي: « **اقرأ ما تيسر معك من القرآن** » قال القرطبي رحمه الله: والنظر يوجب في النقصان أن لا تجوز معه الصلاة، لأنها صلاة لم تتم، ومن خرج من

---

١) الجامع لأحكام القرآن (١/١٢٤).

٢) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٤٥).

٣) الآية (٢٠) من سورة المزمل .

٤) أخرجه الإمام مسلم، حديث (٣٤) وما بعده.

٥) صحيح مسلم، حديث (٣٧).

٦) قال الأخفش: خدجت الناقة: إذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت: إذا قذفت به قبل وقت الولادة، وإن كان تام الخلقة (الجامع لأحكام القرآن١/١٢٣) كذلك انظر (النهاية ٢/١٢).

قلت: وفي كلتا الحالتين هو تالف لا حياة له، وانظر لسان العرب٢/٢٤٨).

٧) سنن أبي داوود، حديث (٨١٨).

صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها، كما أمر على حسب حكمها، ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل إليه من وجه يلزم، والله أعلم[١].

سقوط قراءتها عن العاجز المتعذر عليه إدراكها:

أوضحنا مكان الفاتحة من الصلاة وأنها روح الصلاة بتمامها تكون الصلاة تامة صحيحة، وبنقصانها تكون الصلاة باطلة على ما هو صحيح ومعضّد بالأدلة.

إن من رحمة الله ﷻ بعباده أن جعل في هذا الدين رحمة وتيسيرا، ومراعاة لأحوال العباد وقدراتهم الذهنية والبدنية، فمن تعذر عليه القدرة على قراءة الفاتحة بعد بلوغ الجهد لزمه أن يذكر الله ﷻ في موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو: تهليل أو: تحميد أو: تسبيح أو: تمجيد، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده أو: مع إمام، ومستند هذا القول ما أخرجه أبو داوود من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمني ما يجزئني منه، قال: « **قل سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله**» قال: يا رسول الله، هذا لله، فما لي؟، قال: « **قل اللهم ارحمني، وارزقني وعافني واهدني** » فلما قام قال: هكذا بيده . فقال رسول الله ﷺ: « **أما هذا فقد ملأ يديه من الخير**»[٢]، وعلى المسلم أن يجهد نفسه في تعلم الفاتحة، نصا ودلالة، ولا يقصر في ذلك، لترتب صحة الصلاة، وكمالها على صحة قراءة الفاتحة، فإذا بلغ الجهد وعجز فقد جعل الله له سبيلا إلى الخير كما أسلفنا بيانه.

احتواء الفاتحة على علوم القرآن:

تنافس العلماء رحمهم الله في كشف ما تضمنته الفاتحة من العلوم، حتى ذكروا أن من فوائدها ونفائسها آلاف المسائل[٣].

---

١) الجامع لأحكام القرآن (١/١٢٣).

٢) سنن أبي داوود، حديث (٨٣٢) في إسناده إبراهيم السكسكي احتج به البخاري ولم يتفرد به تابعه طلحة بن مطرف كما ذكر محقق سنن الدارقطني (١/٣١٣ . ت١).

٣) التفسير الكبير (١/٣) بتصرف .

ولا ريب أن الفاتحة تضمنت ما ورد في القرآن الكريم من علوم وهي مرتّبة كما يلي:

أولاً: علم توحيد الربوبية الذي نبه عليه رب العزة والجلال بالثناء على نفسه بأكمل الحمد وأوفاه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأن قائلا تساءل فقال: من هو؟، فقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فذكر كل الأوصاف والنعوت الجميلة الموجبة للإقبال عليه تعالى إقبالا كليا مضمنة قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [1] ولا يحصل العلم بأنه تعالى رب العالمين إلا بمعرفة معنى "رب" ومعرفة المراد "بالعالمين" [2] وهذا تقرير توحيد الربوبية الشاملة لكل مخلوق، لأن لفظ العالمين شامل لجميع المخلوقات، خلافا لمن قصره على الناس، فهو تعالى رب الناس، يعلم دقائق خلقهم وما يصلحهم في الدنيا والآخرة، كما هو رب هذا العالم الكبير، من الجواهر والأعراض يعلم دقائق خلقها، وما يصلحها ويدبر أمرها.

فالعالمين: مفردها عالم، وقيل: العالم جمع لا واحد له من لفظه، فكما أن الجمع المعروف يستغرق آحاد أفراده، كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [3] أي كل محسن كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به، وإن لم يطلق عليها فيتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التي لا تكاد تحصى، وجُمع بالواو والنون؛ تغليبا للعقلاء، وقد روي عن وهب بن منبه أنه قال: لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم والدنيا عالم منها [4] فاستفدنا من صيغة الجمع والتعريف أمرين:

1. أن ذلك الجنس تحته أنواع مختلفة.

2. أنه مستغرق لجميع ما تحته منها [5].

---

١) الآية (٣٩) من سورة يوسف.

٢) انظر (التفسير الكبير ١/٦).

٣) الآية (١٣٤) من سورة آل عمران. وفي آيات أخر من كتاب الله.

٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/١٩ ـ ٢١).

٥) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (مع الكشاف ١/٩).

قلت: ما روي عن وهب إن صح وثبت فهو بحسب ما ظهر للإنسان، وليس المراد به الحصر والاستقصاء، فخلق الله سبحانه وتعالى لا يحيط به مخلوق قال تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ١، وبيان ذلك كله في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ ٢، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ٣، وهذا شامل للسماوات والأرض، ومن فيهن وما بينهن من المخلوقات.

ثانياً: علم توحيد الأسماء والصفات المضمن قول الله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ثالثاً: علم توحيد الألوهية وهو توحيد العبادة الذي بعث الله الرسل للدعوة إليه المضمن قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

رابعاً: علم الأحكام الشرعية، الأمر والنهي، الحلال والحرام، المضمن قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ المرتب عليه الوعد والوعيد، المضمن قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ومنهج السلوك في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهذا تحديد لسلوك الأخيار، وتحذير من سلوك الأشرار.

خامساً: علم الأخبار وقصص الأمم السابقة، والقرون الأولى، المضمن قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وقد قص الله ﷻ في القرآن من سير الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ما يكفي لحمل النفوس على الاقتداء

---

١) الآية (٨) من سورة النحل.

٢) الآيتان (٢٣، ٢٤) من سورة الشعراء.

٣) الآية (٢٦) من سورة الشعراء.

بهم، وأورد من أخبار الأشرار من الكفار والضُّلال ما يكفي لردع النفوس عن محاكاتهم واتباعهم.

ما في الفاتحة من العلوم الأخرى:

لا غرابة أن تتضمن الفاتحة علوما عن الكون والمخلوقات وما أودع الله ﷻ فيها من حكم وأسرار، لأن الفاتحة مفتتح الكتاب العزيز، وكتاب الله هو الدين القيم، كيف لا وفي القرآن الكريم ما يربو على (٧٥٠) آية من آيات الأحكام، المتعلق منها بعلم الفقه قد لا تزيد آياته عن (١٥٠) آية، مع ما صح عن عبد الله ورسوله نبينا محمد ﷺ من الأحاديث، ففي الكتاب والسنة علم الدنيا والآخرة، لذلك تضمنت الفاتحة الإشارة إلى ما في الكون من عوالم ومخلوقات، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حوى هذه المخلوقات مكانان: علوي وسفلي، وفي كل منهما من المخلوقات، والكائنات الحية وغيرها، ما لا يعلمه ويقوم على تدبيره إلا الله ﷻ، هو الخالق المدبر وحده لا شريك له، ومن هذه المخلوقات الإنسان الذي اختاره الله ﷻ للتكليف وعمارة الأرض، وامتن الله عليه بالربوبية، إذ تبدأ رعاية الله له منذ اللحظة الأولى لبداية الخلق من البويضة والحيوان المنوي، إلى أن يكمل خلقه ويكون إنسانا قويا، وهذه رعاية خاصة بتكوين الجسد وحياته، ثم تليها الرعاية الروحية والفكرية، المَقْرُون بها الثواب والعقاب، فالعاقل يجب أن يعتبر ذات نفسه، وذلك لأنه مؤلف من نفس وبدن، ولا شك أن أدون الجزأين وأقلهما فضيلة ومنفعة هو البدن، ثم إن أصحاب التشريح وجدوا قريبا من (٥٠٠٠) خمسة آلاف نوع[1] من المنافع والمصالح التي دبّرها الله ﷻ بحكمته في تخليق بدن الإنسان، ومن وقف على هذه الأصناف المذكورة في كتب التشريح، عرف أن نسبة هذا القدر المعروف المذكور إلى ما لم يُعلم وما لم يُذكر كالقطرة من البحر المحيط، ثم إذا توسع الإنسان في النظر وتأمل

١) هذا ما ظهر للرازي رحمه الله، وهو قبل ما يزيد على (٨٠٠) سنة، فكيف بما حدث من وقته إلى يومنا هذا من الكشف والتوسع الهائل في علوم الفضاء، وعلوم الكائنات الحية من، وعلوم الطب والتشريح ؟ !!.

ما قيل عن العالم العلوي، وما فيه من الأجرام السماوية والكواكب السيارة، وأجرام النيرات من الثوابت وما بينهما من البعد والمسافات ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، ونظر علميا فيما استطاع كشف حقيقته وبعض خباياه، بإجراء بعض الحسابات، مثل قولهم: إن السنة الضوئية هي عبارة عن مقدار ما يقطعه ضوء الشمس في سنة بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية، وهذا مقياس المسفات بين المخلوقات السماوية "العالم العلوي".

وكذلك إذا أمعن النظر في العالم السفلي، وما لاح فيه من آثار حِكم الله ﷻ في تخليق الأمهات، والمولدات من الجمادات، والنباتات، وجميع الكائنات الحية، وأصناف أقسامها وأحوالها، علم أن هذه الأنواع لا قدرة للبشر على حصرها، ولا كشف منتهى ما فيها من حكمته سبحانه، وأسرار الخلق والابداع الذي أجراه جلّت قدرته، قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ١ وعلم أن قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ مشتمل على ألف ألف مسألة، أو أقل أو أكثر، هذا قول الرازي رحمه الله "مليون مسألة".

وأقول: بل على مسائل لا يعلم حصرها إلا الله ﷻ، ويتبين للناظر أن قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيه لفت نظر إلى كل ما ورد ذكره في القرآن الكريم، ولا نريد الإطالة هنا بسرد الآيات الواردة في التسخير، فهي كثيرة كلها تدل على أن ما في هذا الكون مسخّر للإنسان، للبحث والنظر والاستدلال، وأخذ العبر من نتائجها، وكذلك الآيات الآمرة بالتفكر في آيات الله ومخلوقاته عديدة في كتاب الله ﷻ، منها قوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ٢ ويدل على النظر في العالم العلوي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٣ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ

---

١) الآية (١٣) من سورة الجاثية.

٢) الآية (١٩١) من سورة آل عمران.

٣) الآية (١٠١) من سورة يونس.

ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[١] وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢] ومما يدل على النظر في العالم السفلي، قوله في الآية السابقة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣] وأيضا قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٦] وصدق الله إذيقول: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٧] نلاحظ المكتشفات العلمية في هذا العصر من خلال البحث في خلق الإنسان، وغزو الفضاء بالمراصد لكشف ما فيه من عجائب صنع الله ﷻ، ومع ذلك لم يؤد ذلك إلى إيمان أولئك الذين مكنهم الله ﷻ من كشف بعضٍ من عظيم خلقه سبحانه، وما آمن منهم إلا قليل، ومما ترشد إليه هذه الآيات ـ التي هي غيض من فيض في كتاب الله ﷻ ـ نعلم أن المسؤلية التي حمّلها الله ﷻ الأمة الإسلامية كبيرة جدا، وأن عليهم النظر والكشف عما أمر به القرآن الكريم أمة نبينا محمد ﷺ، ولم يكن امتنان

---

١) الآيتان (٩٥، ٩٦) من سورة الأنعام.
٢) الآية (٩٧) من سورة الأنعام.
٣) الآية (١٠١) من سورة يونس.
٤) الآية (٥٠) من سورة الروم.
٥) الآية (٢٠) من سورة الذاريات.
٦) الآية (٩٩) من سورة الأنعام.
٧) الآية (١٠١) من سورة يونس.

الله ﷻ على عباده بتعليم داود عليه السلام صنعة لبوس إلا ليرشد عباده الصالحين في كل زمان ومكان إلى وجوب العمل الجاد، واتخاذ الأسباب الكافية ليكونوا أقوياء أعزاء، من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، ولا تكون عالية قوية إلا بقوة حراسها والحاملين لواءها،قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[1] إنها صناعة الدروع علمها داود عليه السلام لما فيها من الحماية والتحصين من بأس ما يقابلها من الأسلحة، ولأهمية هذا النوع امتن الله ﷻعلى داود بقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[2] حيث جعله الله ﷻ في يديه داود عليه السلام كالعجين يصنع منه ما يريد من غير مشقة ولا تعب، فلم يكن عبثا أبدا أن يمتنّ الله على أنبيائه ورسله بما علمهم، وبما منحهم من أسباب القوة والمنعة، وقد كان نوح عليه السلام نجارا[3] إن في هذه وغيرها تنويها إلى ضرورة أن يشتغل المسلمون بأسباب قوتهم ونصرهم، والأنبياء والرسل كلهم مسلمون بنص القرآن الكريم، فما ورد في حق أي نبي من أسباب النصر والتمكين في الأرض، هو وارد في حق غيره من الأنبياء ولا ريب، من نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، فعباد الله المسلمون مأمورون بإعداد القوة، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[4] فأمر الله تعالى بالإعداد وهو بذل جميع الوسائل الممكنة، للحصول على أكبر قوة في الأرض، بدليل تنكير كلمة " قوّة" فإنها لم ترد معرّفة حتى لا تكون قاصرة، فكان التنكير غاية مقصودة وهي الحصول على أي قوة ممكنة على وجه الأرض، وما عمل داود إلا إشارة إلى عمل كل ما فيه دفع لشر السلاح، بجميع أنواعه وأشكاله، وما عمل نوح إلا إشارة إلى ضرورة خوض لجج البحار والمحيطات بقوة عظيمة، صالحة للاستخدام سلما وحربا، ولا نريد التوسع في هذا الأمر فإنه طويل جدا، لكننا نقول: إن ما فيه المسلمون اليوم من البلاء والفرقة والضعف، سببه عدم الوعي لما في الكتاب والسنة من العلم والتوجيه، فقد فرّط القادة

---

١) الآية (٨٠) من سورة الأنبياء.

٢) الآية (١٠) من سورة سبأ.

٣) انظر الآيات (٣٧) من سورة هود (٢٧) من سورة المؤمنون.

٤) الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

والشعوب في أسباب عز المسلمين، إنني لا ألوم دولة إسلامية بعينها، بل جميع الدول الإسلامية فرّطت في كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، واشتغلت بالتناحر والتدابر، وقطع الصلات ونبذ العمل المشترك وفق الكتاب والسنة، وليس هذا الأمر قريب عهد، بل من أمد بعيد، واليوم إذا ما حدث لبلد إسلامي مكروه، فمن أخذته الحمية من المسلمين اكتفى بالشجب والاستنكار، والاستجارة من الرمضاء بالنار، فيستجيرون من اليهود والنصارى باليهود والنصارى[1]، وربما بررت بعض الدول لعدوان المعتدي، إنها كارثة في حق أمة محمد ﷺ، الذي وحدّ أمته على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، إن العودة إلى الله ورسوله واجبة، ولا فلاح للأمة بدونها، وإن أقلّ ما يجب عمله في هذا العصر أن تقوم الدول الإسلامية، وتلتف حول ميثاق إسلامي، منه ينبثق بناء القوة الإسلامية الموحدة، قوة رادعة وفق ما يقضي به الكتاب والسنة، تكون مرجعا وحيدا بعد الله ﷻ للأمة الإسلامية، الأمة الإسلامية الواحدة، بدلا من الأمم المتحدة الظالمة، التي لا تعرف إلا حقوق اليهود والنصارى، إن فرصة المسلمين لبناء قوة إسلامية مؤاتية، ولا يزال الأمل قائما وقويا، وإذا لم تكن للمسلمين قوة تردع الأعداء، فإنهم الغثاء الذي أخبر عنه الرسول ﷺ[2] وحينها يصدق على كل دولة إسلامية على وجه الأرض المثل الذي يقول: "أكلت يوم أكل الثور الأسود" وإذا ما تنبه المسلمون وعادوا لبناء قوتهم وفق ما تقضي به شريعة الإسلام، وفي إطار إتحاد اسلامي، تصدر فيه عملة موحدة لبناء القوة الإسلامية الرادعة، كما فعلت الدول الأوروبية، أنشأت "الاتحاد النقدي للصناعات" تحت عملة موحدة لهذا الغرض "اليورو".

---

١) خذ مثلا قضية فلسطين لا ملجأ للعرب إلا مجلس الأمن المنحاز في غالبيته لإسرائيل، حتى لو أصدر قرارا لصالح القضية الفلسطينية فإن أمريكا له بالمرصاد، ظلما وعدوانا، ولا حول ولا قوة للعرب.

٢) في قوله ﷺ: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل: يارسول الله، وما الوهن؟، قال: حب الدنيا وكراهية الموت، سنن أبي داود، حديث (٤٢٩٧).

وإذا كنا أطلنا النفس في هذا فلأنه من أهم المهمات، لإنقاذ المسلمين مما هم فيه من الذل والهوان.

ومما أرشدت إليه الفاتحة من خلال قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ النظرُ إلى ما في العالم السفلي من عوالم ومخلوقات منها مثلا[1]:

علم النبات:

النبات له علم تعرف به صنوفه وأنواعه، واختلاف أشكاله وألوانه، وطعومه وروائحه، وأوراقه وأزهاره، وثماره وحبوبه، وبذوره وصموغه، ولحاؤه وبنية تكوينه، وتربيته لما يخرج منه، وما ينتج عن مزجه وتركيباته، كل ذلك في علوم أُمر المسلمون بالنظر فيها، والكشف عنها والاستفادة مما فيها، بعد الإيمان بأن ذلك تقدير العزيز الحكيم.

علم الحيوان:

الحيوان له علم تعرف به أشكاله وأنواعه وصنوفه المختلفة، وأجناسه مما يسكن البر منه، وما في البحر، وما في البر والبحر، وما يتعلق بتزاوجها وتوالدها، ومستقرها ومستودعها، وما يتبع ذلك من علوم طب وتشريح.

علم التشريح:

التشريح علم يعرف به بالدرجة الأولى عُظْم ربوبية الله ﷻ لجميع المخلوقات، ومنها الإنسان الذي أودع فيه ربه سبحانه وتعالى (٢٤٨) عضوا، و (٣٦٠) مفصلا، أوجد لها من الأوردة والشرايين والأعصاب ما لا يعلمه إلا هو سبحانه، وزودها بالدورة الدموية، والتنفسية، والغذائية، والدائرة العقلية، والحواس الخمس، وما في الدماغ من قوى وقدرات لا يعلم كمالها إلا خالقهما سبحانه.

---

١) انظر (الجواهر في تفسير القرآن ١/١٤. ١٥).

علم المعادن:

كم أوجد الله ﷻ من أنواع المعادن، وجعلها كنوزا في طبقات الأرض، نمثل لها بالحديد الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، فأين المسلمون عن هذا التوجيه الكريم؟!!، كل ذلك مندرج تحت قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2]، وقد أظهر الكشف الحديث وللأسف من غير المسلمين أمثلة لكنوز الأرض، أسهمت في سعادة العالم، وفي شقائه أيضا عند ما أسيء استخدامها.

المنهج التربوي في سورة الفاتحة:

تضمنت سورة الفاتحة جوانب تربوية عظيمة منها:

١. الجانب العلمي المعرفي النظري: يتمثل ذلك في معرفة المدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، وهو الله ﷻ فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عرّف العباد أن الله ﷻ هو المختص بالحمد على وجه الكمال، فوجب على كل مسلم أن يعي هذا، وينطلق في تربية نفسه ومن ولاه الله ﷻ أمرهم من مبدأ أن الله تعالى رب العالمين، الذي أوجدهم ورعاهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ولذلك تضمن اسمه الكريم ﴿ رب ﴾ ثلاثة أمور:

الرب بمعنى المعبود، والرب بمعنى المربي والمنعم، والرب بمعنى المالك المتصرف، وهذه الصفات مجتمعة في الله ﷻ ولا تجتمع في غيره، فالرب بمعمى المعبود خاص به تعالى لا يشاركه في ذلك شيء، وفي الإنعام والملك تكون الصفة مشتركة، وقد

---

١) الآية (٢٥) من سورة الحديد .

٢) الآية (٢١) من سورة الذاريات، وانظر (الجواهر في تفسير القرآن١/١٥).

حكى الله ﷻ قول يوسف ﷺ عن العزيز ملك مصر: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾[1]، وفي الملك قول عبد المطلب لأبرهة: "أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه"[2].

٢.الجانب العملي التطبيقي: ويتمثل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

إن المسلم إذا تقرر لديه الجانب النظري، بادر إلى الجانب العملي فإن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، فتكون عبادته خالصةً لله ﷻ، وتوكله عليه وحده، واستعانتة به سبحانه في كل شؤونه، ولا معارضة فيما يحصل بين المسلمين من تعاون فإنه من باب العون والمساعدة بالنسبة للمخلوق، ومن باب العبادة والتوكل بالنسبة للخالق سبحانه.

تحديد ثمرة التلازم بين الجانبين السابقين؛ ولا تحصل الثمرة إلا باجتماعهما، وهي: الهداية إلى الطريق المستقيم: ويتمثل في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فطلب الهداية يستلزم البعد عن الضلال، وكل ما يغضب الله ﷻ، وتحمل المسؤولية: في سبيل إظهار الحق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ والذين أنعم الله عليهم هم المطيعون لله ﷻ ورسوله ﷺ، أعلاهم الأنبياء والرسل، ثم الصديقون والشهداء والصالحون، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا يجعلنا نتعرف على المسؤوليات المنوطة بنا شرعا، ونربي عليها أنفسنا وأسرنا، وبها يقوم المجتمع الإسلامي، ويمارسها واقعا عمليا على قدر الطاقة، ومن خلال الوسائل التي تستخدم في تحقيق الأهداف، ويحسن أن نقدم للقارئ الكريم مثالين لتوضيح ما أسلفنا القول فيه:

المثال الأول: ما وردت الإشارة إليه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقلنا: أعلاهم الأنبياء والمرسلون، حصل لهم ما حصل من الكرامة والنصر

---

١) الآية (٢٣) من سورة يوسف .

٢) تاريخ الطبري ١/٤٤١.

والجزاء في الدنيا والآخرة، لأنهم حققوا الجانبين المتلازمين في التربية: الجانب المعرفي النظري، والجانب التطبيقي العملي، فصبروا وصابروا، وقد فصّل الله ذلك في سورة الصافات، إذ ذكر نبيه نوحا عليه السلام، وذكر من ثمرة معرفته بالله ﷻ، وتطبيقه عمليا لعبادة ربه، أن استجاب الله دعوته[1] فحصلت له ولأهله النجاة[2] وختم الله ذلك بقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[3] وهكذا ذَكَرَ الله ﷻ الرسل وأثنى عليهم واحدا واحدا، فذكر إبراهيم وتاريخه، وما لقي من المحن، وختم بقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[4] ثم ذكر موسى وهارون ونجاتهما من فرعون وقومه، وختم بقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[5] ثم ذكر إلياس وقصته مع قومه، وختم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾[6] ومن هذا نعلم أن الله ﷻ ذكر ذلك تربية لنبينا محمد ﷺ، وتعليما لأمته أن الله ﷻ يجعل الثناء للمجاهدين الأبطال من المكافآت العاجلة، وذلك لإقتدائهم بأنبياء الله ورسله، واستقامتهم على منهج الله، ومن هذا يجب على الأمة الإسلامية أن تعلن فضل الفضلاء من أبنائها، وأن تشيد بعلم العلماء منهم، وحكمة الحكماء، وجهاد الأبطال الذين يُعلون كلمة الله في الأرض، من أمثال الأئمة الأربعة، ومن تلاهم من علماء الطب والفلك، والرياضيات، والكيمياء، في غير زيغ عن العقيدة الصحيحة، ومَن بعدهم من القادة المجاهدين من أمثال صلاح الدين، وشيخا الإسلام ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، والملك عبد العزيز، وغيرهم كثير، وعلى الأمة الإسلامية أن تقوم بنشر فضائلهم، وكشف محاسنهم التي خدموا بها أمتهم الإسلامية، لتقتدي بهم الأجيال المتعاقبة، لكن الأمة الإسلامية اليوم

---

١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ سورة الصافات الآية (٧٥).

٢) قال الله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ سورة الأنبياء الآية (٧٦).

٣) الآية (٧٩) من سورة الصافات.

٤) الآية (١٠٩) من سورة الصافات.

٥) الآية (١٢٠) من سورة الصافات.

٦) الآية (١٣٠) من سورة الصافات.

صرفت هذا لأصحاب الرقص والغناء، وغيرهم ممن لا يتفق عملهم مع كتاب ولا سنة، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

المثال الثاني: ما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وقعوا في الضلال المبين، وهو ما قص الله ﷻ عن أهل النار ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1] إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[2] أنذرهم لشذوذهم في الفكر والسلوك وعدم قبولهم الدعوة التي جاء بها المرسلون، فاشتغلوا بالهوى والشهوات، وغرتهم الأماني، وهذا حال الأمة الإسلامية اليوم في غالب أمرها، سُلبت مقدساتها، انتُهكت الأعراض في كثير من بلاد المسلمين، تطاول الكذبة من أعداء الإسلام،على كتاب الله ﷻ، وعلى سنة رسوله ﷺ، وعلى رسول الله ذاته ﷺ "والمليار" من المسلمين يتفرجون، ويحوقل[3] الصالحون منهم.

من هذا المثال يجب أن يعي المسلمون الخطر المحدق بهم، حينما تكون الأهواء دستورا والشهوات منهجا، وحرية الفكر لا حدود لها، أو مطموسة وممنوعة من قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحاصره أصحاب الشهوات.

ومن هنا نعلم أهمية طلب الهداية والتوفيق، وهما من أعظم الوسائل لتحقيق الغايات النبيلة، فقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إدراك الغاية وهي ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ ﴾ بسبب طلب الهداية ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقصة أصحاب الكهف[4] من أبرز الأمثلة على ذلك، ومن السنة قصة أصحاب الغار[5] والسبعة الذين يظلهم الله في

---

١) الآية (٢٧) من سورة الصافات.

٢) انظر الآيات من (٥٠ .٧٣) من سورة الصافات.

٣) الحوقلة: أن يقول الإنسان: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا ما يملكه الصالحون اليوم، وهي معهم في الرخاء والشدة، وهي كنز من كنوز الجنة، وقد صح هذا عن رسول الله ﷺ.

٤) انظر (القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٩ . ٢٢).

٥) انظر: صحيح البخاري، حديث (٢٢٧٢).

ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله [1] كانت ثمرة تحمل المسؤولية، والصبر عليها، ما حصل من العاقبة الحسنة، ودوام الذكر الحسن والثناء عليهم إلى يوم الدين، وكذلك طلب النجاة من سبل الغواية والضلال المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

وهنا نلحظ قاعدتين تربويتين: تضمنتهما سورة الفاتحة؛ وهي أن التربية لا تقوم إلا على أساسين هامين: هما منهجان إسلاميان تربويان يجب اعتمادهما في حياة الفرد والجماعة:

١ـ منهج الرحمة: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وقد جعل الله تعالى هذا الجانب من التربية غريزة في الأم، فان الطفل يجد عندها الحنان والرأفة والرحمة في منتهى صورها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها** » [2]، وأوجب للأم ثلاثة أرباع البر.

٢. الثواب والعقاب: وهو أساس هام في التربية، له دور بارز في البناء والإصلاح، ونشوء العدل، والعدل فيه الشدة وإعطاء كل ذي حق حقه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ الجزاء والحساب، وقد جعل الله ﷻ هذا الجانب غريزة في الأب، فإنه أحزم في تربية الأبناء من الأم وأحكم، وهذا يستدعي التوازن في التربية، فلو جعل الأبوين رحيمين مطلقا لفسدت التربية، ولو جعلهما شديدين لفسدت أيضا.

ومن هنا نستنتج أن سلوك الوسطية جانب تربوي أيضا، يجب توجيه المسلمين إليه أفرادا وجماعات، شعوبا وحكومات، وذلك لازم في شؤونهم الدينية والدنيوية، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

---

١) انظر: صحيح البخاري، حديث (٦٦٠) وإحالاته.

٢) أخرجه البخاري، حديث (٥٩٩٩).

وبالجملة فآثار تربية الله ﷻ الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن غير متناهية، ويمكن لممعن النظر أن يكشف من أسباب التربية وأسرارها التي أودعها الله ﷻ في خلقه الشيء الكثير، فسبحان الرب الخالق ما أعظم شأنه، وما أقوى حجته وبرهانه، نسأله تعالى الهداية إلى مناهج العلم والمعرفة، ونسأله العون والتوفيق لأداء حقوق نعمه، لا نحصي ثناء عليه، لا إله إلا هو، نستغفره ونتوب إليه.

أقسام الناس حسب فهم الفاتحة:

قبل الشروع في الحديث عن أقسام الناس حسب فهمهم للفاتحة، ومعرفتهم بما تضمنت من مقاصد ودلالات، نرغب في بيان أنه من المهم إيراد هذا الفصل، عقب ما ذكرنا من صلة الفاتحة بأمور الدنيا والآخرة، حتى لا يتصور أحد أن هذه الآية حمّلها العلماء ما لم تتحمل، من احتواء العلوم الشرعية والكونية، والناس يقرؤونها ولا يلحظون ما ذكر المفسرون، ويكررونها صباح مساء ولا يتهيأ لهم ما يصفونها به، وأن ما ذكره العلماء ورد استطرادا لا استنباطا، وتطويلا لا تأويلا، وتعليما لا تفسيرا، وإكثارا لا استخراجا، فنقول: تمهلوا فإن الأمثلة تزيد الأمر وضوحا وتكسبه جلاء، فتساعد على الفهم والاستيعاب، فلو صورنا سورة الفاتحة بجنة خلق الله ﷻ فيها من أنواع الثمار والفواكه، وأعطى من البهجة والخضرة ما لا يتصوره خيال، على حد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] فلو جمع الله ﷻ هذه المذكورات وغيرها من الثمار والأشجار والأزهار في مكان واحد، ونظر إليها وتجول فيها ثلاثة عقلاء، متفاوتوا القدرات وهم:

مهندس خبير في الزراعة والأشجار والنباتات، وفلاّح، وطفل صغير.

---

١) الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

ونوع رابع هو: دابة يستخدمها الفلاّح في خدمته وخدمة مزرعته، كيف يكون فهم ما حوت المزرعة في نظر كل واحد من الأربعة ؟!، هل يكون هؤلاء والحقل أمامهم متفقين في الرأي والفكر بالنسبة لكل منهم؟، كلاّ إن الأمر مختلف قطعا.

وبيان أقسام الناس على نحو ما يلي:

إن المهندس الزراعي الخبير بالري وشئون الزراعة، وما يصلحها، وما يفسدها، وفق علم عميق ودراسة دقيقة، وتجارب مخبرية عديدة، يكون وهو أمام الحقل واسع الأفق، كبير المعاني، عالما بقدرة ربه ورب كل مخلوق ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وبما له في هذا المنظر من أسرار الخلق والتكوين، يتجلى منه عظمة الخالق سبحانه.

وهذا يمثل القسم الأول من أقسام الناس: وهم الذين عرفوا سورة الفاتحة، وعلموا فضلها، وخبروا مقاصدها، وفهموا دلالاتها الظاهرة والضمنية، فكانت عندهم بمنزلة القلب من الجسد، إذا توقف عن العمل، توقفت الحياة عن سائر الجسد، فجرى حرصهم على العمل بالفاتحة نصا وروحا، وكانوا مضرب المثل في الفهم النظري، والتطبيق العملي، وهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين ربّاهم على وحي ربه، وأرشدهم إلى العمل بسنته ﷺ، فكانوا الصفوة المختارة، ليقتدي بهم مَن بعدهم من التابعين، فهم العدول المبلغون عن الله ﷻ العبادة والاستقامة على الحق، وهذا أشبه بذلك الفلاح، الذي يقبل على حقله وينظمه ويقوم على شؤونه في حدود علمه ولاشك أن المفسر للقرآن، العالم بمعانيه ومقاصده أرقى بكثير من العابد، فهو أشبه بالمهندس، والعابد أشبه بالفلاح صاحب الحقل.

أما الطفل فإنه يقصر عن الاثنين قصورا بينا، فالصبي يروقه منظر الحقل وجماله، وتعجبه أشجاره وأزهاره، ويشتاق لفواكهه وثماره، لكنه لا يفقه من أسرارها شيئا، ولا يعلم كيف وجدت، فهذا مثل القسم الثالث من أقسام الناس: وهم الجهلاء من المسلمين عامة، الذين لا يحسنون فهم الفاتحة، وربما رددوها بتحريف وتصحيف، وإذا سألت أحدهم عن كلمة منها أهي على هذا الوجه، أو على وجه آخر؟، لما عرف الصواب من الخطأ وربما اختار الخطأ فصوبه، وهذا الصنف هم الكثرة

الكـاثرة، ويدخل فيهم المبتدعون من أصحاب القبور، ودعاة الأولياء والصالحين، وغيرهم، فلو عرفوا معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ما وقعوا في بدعة قط.

وكم أخشى على كثيرين من القرّاء، الذين يفرحون بنغماتهم بالقرآن في المآتم، والأعراس، والحفلات العامة والخاصة، وكم من محفل يفتتح بالقرآن وفيه من مخالفة الكتاب والسنة ما الله به عليم، فهل عرف أسرار الفاتحة مثل هؤلاء؟!.

أما الدابة: فإنه لا يعنيها من ذلك إلا حاجتها، كل تلك الصورة الجمالية وما فيها من أسرار الخلق والتكوين لا تعنيها في شيء، كل ما تعرفه أن هذا يروق لها أكله، تأكل منه ما تشاء، وتطأ ما تشاء، ولا شيء وراء ذلك، فهذا مثل القسم الرابع من أقسام الناس: وهم الذين فارقوا شرع الله، واتبعوا الهوى، فأصبحوا كالأنعام بل هم أضل، وهم اليهود والنصارى، وغيرهم من الوثنيين عباد الأشجار والأحجار والدواب بأنواعها، ومن سار في ركابهم أوتشبّه بهم، ولم يعر الإسلام أذناً ولا رفع به رأسا.

ومعلوم أن فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وأكثرهم بها جاهلون، لا يعقلون معانيها ولا يعرفون مقاصدها، ولذلك تكالب عليهم الأعداء وهم في غفلةٍ معرضون، والعلم مفتاح التفكّر والتدبّر، إذ أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء، بما علمهم الله ﷻ وبما أقدموا عليه من البحث والنظر، ولذلك حفل كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ بالثناء عليهم والإشادة بهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [١] ويقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٢] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣] وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [٤] وغير ذلك، فعالم الكتاب والسنة يعقل مرامي

---

١) الآية (٢٨) من سورة فاطر.
٢) الآية (٤٣) من سورة العنكبوت.
٣) الآية (٩) من سورة الزمر.
٤) الآية (١١) من سورة المجادلة.

الآيات، ومقاصد الأحاديث، وعالم النبات يعقل ما أودع الله فيه من أسرار الخلق والتكوين، وعالم الطب يعقل ما في الأجسام من عجائب الخلق، وكذلك الدارسون للشريعة الإسلامية يعقلون ما فيها من الحكم، وهم بعلم الفاتحة وعقل ما فيها أحرى، فالقرآن والسنة مثل ضوء الشمس منتشر في الجو، لكنه لا يظهر إلا على سطح الأرض، أو على جسم قابل، والهواء لا يعكس ضوءها، لذلك لا يراه الطائر في الجو، كذلك الأفئدة الخالية من العلم والحكمة، يمر بها القرآن والسنة فلا تشعر بمعانيه، فأم الكتاب يقرؤونها صباح مساء، ولا يدركون ما فيها من الضياء المشرق، ولا نشك في أن هذا العصر صالح لظهور المقصود من القرآن الكريم في بلاد الإسلام، إذا ما توجه المسلمون لذلك وعالجوا جميع قضاياهم من خلال الكتاب والسنة ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾١.

حكم الاستعاذة:

أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن، ولا آية منه، وهو قول القارئ: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من العلماء، لأنه لفظ كتاب الله تعالى٢ في التعوذ، قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾٣ والفاتحة قرآن، والشيطان أحرص ما يكون على إيذاء المسلم في صلاته، لأنه إذا أفسدها عليه فقد نال ما تمنى، لذلك ورد النص على قراءتها في الاستفتاح عند الدارمي٤ من حديث أبي سعيد الخدري ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فكبر قال: « **سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله**

---

١) الآية (٤٠) من سورة الحج.

٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٧).

٣) الآية (٩٨) من سورة النحل.

٤) سنن الدارمي، حديث (١٢٤٢) ونقد الحديث بعض العلماء، وأعله بعلي بن علي بن نجاد الرفاعي، والصواب أن الحديث لا ينزل عن الحسن، فله شواهد، وعلي المذكور، وثقه غير واحد كما ذكر الذهبي في الكاشف (٢/٢٩١) وقال ابن حجر: لا بأس به، ويقال: كان يُشبَّه بالنبي ﷺ.

غيـرك، أعـوذ بـالله السـميع العلـيم مـن الشـيطان الـرجيم، مـن همـزه، ونفثـه، ونفخه »[1]، ثم يستفتح صلاته.

وأخرجه أبو داوود وابن ماجه وابن حبان من حديث جبير بن مطعم ﷺ واللفظ لا بن ماجه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: « **الله أكبر كبيرا، الله أكبر كبيرا**ـ ثلاثا ـ **الحمد لله كثيرا**ـ ثلاثا ـ**سبحان الله بكرة وأصيلا**ـ ثلاث مرات ـ **اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفثه، ونفخه** »[2].

وقد جاء ما يدل على تعلق هذا بالصلاة مباشرة، أخرجه الإمام مسلم[3] من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ، أنه أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وقراءتي يلبسها عليّ"، فقال الرسول ﷺ: « **ذاك شيطان يقال له: خِنْزِبَ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثا** » قال: فقلت ذلك فأذهبه الله عني.

وأخرج ابن ماجة من حديث ابن مسعود ﷺ قال: « **اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه، ونفخه، ونفثه** »[4] فنحن مأمورون بمحاربة عدونا الشيطان في جميع الأحوال عند القراءة سواء في الصلاة أو غيرها[5].

---

١) ورد تفسير هذه الكلمات عند الدارمي عقب الرواية، وكذلك عند أبي داوود وابن ماجة، همزه: المؤتة (وهي الجنون) ونفثه: الشِّعر، ونفخه: الكبر.

٢) عند أبي داوود: قال عمرو: لا أدري أي صلاة هي.

٣) في الصحيح، حديث (٦٨).

٤) سنن ابن ماجة، حديث (٨٠٨) وصححه الألباني (صحيح ابن ماجة١/١٣٥).

٥) حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ يقول قبل القراءة: « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/٨٦، رقم٢٥٨٩) وأخرجه أبو داود في السنن (١/٤٩٠) كتاب الصلاة، باب (١٢١) حديث (١٢٢) وحديث أبي أمامة ﷺ: كان رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة من الليل كبر ثلاثا، وسبح ثلاثا، وهلل ثلاثا، ثم يقول: « إني أعوذ بك من

وإذا أصبحنا وأمسينا[1] وعند دخول المسجد[2] وعند ثورة النفس، وعند حدوث الغضب[3]، وحتى عند معاشرة الزوجات[4]، فندعو كل مسلم إلى الحرص على الاستعاذة في مستهل القراءة في الصلاة، فريضة أو نافلة، وقد نقل القرطبي قول المهدوي: "أجمع القراء على إظهار الاستعاذة، في أول قراءة سورة الحمد، إلا حمزة فإنه أسرَّها[5] وهذا إجماع منهم على قراءتها في أول سورة الحمد" وهذا ما نراه لكل مسلم القراءة بها في سورة الفاتحة، فإن اقتصر بعد ذلك على البدء بها في الركعة الأولى فحسن، وإن قرأها في كل ركعة كان أحسن، ومعلوم ما ورد من الترغيب في الاستعاذة في غير الصلاة، لما فيها من الحرز والحصانة، وهو مما يحرص عليه المسلم، فإن في الاستعاذة إشارة إلى نفي ما لا يجوز من العقائد والأعمال[6] وهذه حصانة للروح قبل حصانة الجسد.

الشيطان الرجيم» أخرجه الإمام احمد (المسند٥/٢٥٣) وحديث جبير بن مطعم ﷺ في الاستعاذة في الصلاة، أخرجه أبو داود، حديث(٧٦٤) .

١) حديث معقل بن يسار ﷺ « من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ..» الحديث أخرجه الإمام أحمد (المسند (٥/٢٦) وحديث أبي هريرة ﷺ في أمره ﷺ لأبي بكر ﷺ أن يقول إذا أمسى وإذا أصبح: ..أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه) أخرجه أبو داود، حديث (٥٠٦٧) والترمذي حد يث (٣٣٩٢).

٢) حديث عبد الله بن عمر بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ: أنه كان إذا دخل المسجد قال:« أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم » أخرجه أبو داود، حديث (٤٦٦).

٣) حديث سليمان بن صرد ﷺ أخرجه البخاري، حديث (٣٢٨٢، ٦٠٤٨) وأخرجه مسلم، حديث (٢٦١٠) وأخرجه أبو داود من حديث معاذ ﷺ، حديث (٤٧٨٠).

٤) حديث ابن عباس ﷺ « اللهم جنبنا الشيطان..» أخرجه البخاري، حديث (٣٢٧١) وهذه النصوص وإن تكلم النقاد في بعض رواتها فهو كلام لا يخرج عن حد القول بتظافر الروايات وأنها لا تقل عن درجة الصحيح لغيره.

٥) الجامع لأحكام القرآن (١/٨٧).

٦) انظر : التفسير الكبير (١/٥).

تفسير الاستعاذة:

معنى الاستعاذة: الاستجارة، وتأويل قول القائل: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" أستجير بالله من الشيطان، أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق يلزمني لربي ﷻ[1]، ومن ضرره إثارة الوسوسة في الصلاة، ولا تعارض بين هذا وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2]، فالمنفي هنا التسلط والقهر والغلبة، فلا يكون له على المؤمنين شيء من هذا، وإنما تكون هيمنته وسلطنته على غير المؤمنين، وهم الذين يتولونه كما قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[3]، والأولى عند قراءة القرآن في الصلاة وخارجها التقيد بالتعوذ الوارد في الكتاب العزيز، وعدم الزيادة عليه، قال ابن عطية رحمه الله: لم يصح عن النبي زيادة على هذا اللفظ. وما يروى من الزيادات لم يصح منه شيء.

وجاء حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: "كان رسول الله إذا قام من الليل" يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه .....» الخ". فتلك استعاذة تعوذ، وليست الاستعاذة لأجل قراءة القرآن[4].

تأويل قوله: "من الشيطان" : الشيطان في كلام العرب: كل متمرد من الجن والإنس والدواب، وكل شيء. قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾[5] فجعل من الإنس شياطين مثل الذي جعل من الجن، ولما ركب عمر بن الخطاب ﷺ"برذونا"[6] فجعل البرذون يتبختر به، أخذ عمر ﷺ يضربه فلا يزداد

---

١) جامع البيان عن وجوه القرآن تأويل القرآن (١/١١١).

٢) الآية (٩٩) من سورة النحل.

٣) الآية (١٠٠) من سورة النحل.

٤) نقله ابن عاشور (التحرير والتنوير ١٣/٢٢٢).

٥) الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

٦) البرذون: الدابة، وسَيْرَته (البرذنة) والأنثى (برذونةً).

إلا تبخترا فنزل عنه وقال: "ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي"١ وهذا يلفت النظر إلى دقة عمر ﷺ في مراقبة أحوال نفسه.

وقد سُمي المتمرد من كل شئ شيطانا، لمفارقة أخلاقه وأفعاله، أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وقيل: الشيطان لبعده عن الخير، وقول القائل: شطنت داري من دارك: أي بعدت، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

نأت بسعاد عنك نوىً شطون * فبانت والفؤاد بها رهين٢.**

تأويل قوله: ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ الرجيم: الملعون المشتوم؛ وكل مشتوم بقول رديء أو: سب فهو مرجوم، وأصل الرجم: الرمي بقول كان أو: فعل، ومن الرجم بالقول: قول أبي إبراهيم، لإبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

وقد يجوز أن يكون قيل للشيطان: رجيم، لأن الله جل ثناؤه طرده من سماواته، ورجمه بالشهب.

القول في تفسير: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

إن قول الله ﷻ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هي الآية الأولى من سورة الفاتحة على ما نراه راجحا من أقوال العلماء رحمهم الله، فالله سبحانه وتعالى أدّب نبيه محمداً ﷺ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وأقواله وجميع مهامه، وجعل النبي ﷺ ما أدّبه به ربه تعالى سنة لأمته يستنون بها، وسبيلا يتبعونه عليها، فباسمه تعالى يكون افتتاح أوائل منطقهم، ومطالع رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت

قال الشاعر:

رأيتك إذ جالت بك الخيل جولة ** وأنت على برذونة غير طائل

لم أقف على قائله وهو في (لسان العرب١٣/٥١، ١٤/٢٩٤).

١) أسنده أبو جعفر الطبري (جامع البيان١/١١١) رجاله ثقات وهشام بن سعد حسن الحديث وهو من رجال مسلم.

٢) للنابغة الذبياني في (ديوانه ص٧٢).

دلالة ما ظهر من قول القائل: "بسم الله" من مراده الذي هو محذوف[1] فأصبح المسلم ذاكراً لله ﷻ في كل شؤونه، فيقول: بسم الله[2] أقرأ، بسم الله أكتب، وأقعد وأقوم، وأنام وأصحو، وأدخل وأخرج، وآكل وأشرب، وأسافر وأعود، وغير ذلك من الأقوال والأفعال، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: « **أغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمّر[4] إناءك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله** »[5] وقال ﷺ: « **لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن قدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره شيطان أبداً** »[6] وقال لعمر بن أبي سلمة: « **يا غلام سم الله وكل بيمينك** »[7] وقال: « **إن الشيطان ليستحل الطعام إلا بذكر اسم الله عليه** » [8] وقال: « **من لم يذبح فليذبح بسم الله** »[9].

---

1) جامع البيان (١/١١٤) بتصرف.

2) تكتب بغير ألف (بسم الله) استغناء عنها بباء الإلصاق، في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ الآية (١) من سورة العلق، لم تحذف الألف لقلة الاستعمال (جامع البيان١/٩٩).

3) الآية (٤١) من سورة هود.

4) التخمير: التغطية، ومنه خمرت المرأة رأسها ووجهها: إذا غطتهما وسترتهما، والوكاء: الحبل الذي يشد به فم السقاء (القربة).

5) أصله في الصحيحين من حديث جابر ؓ بالشطر الأول منه، انظر: صحيح الإمام البخاري، حديث (٥٦٢٣) وصحيح الإمام مسلم، حديث (٩٧).

6) أخرجه الإمام البخاري، حديث (٣٢٧١).

7) أخرجه الإمامان البخاري ومسلم من حديث عمر بن أبي سلمة، انظر: صحيح الإمام البخاري، حديث (٥٣٧٦) وصحيح الإمام مسلم، حديث (١٠٨).

8) أخرجه الإمام مسلم، حديث (١٠٢) من حديث حذيفة ؓ.

9) أخرجه الإمام مسلم، حديث (١، ٢، ٣) من حديث جندب بن سفيان البجلي ؓ، وهو عند البخاري من حديثه دون التسمية (صحيح البخاري، حديث (٥٥٦٢) لكنها في رواية أبي عوانة كما ذكر الحافظ في الفتح (١٢/٥٣٧) وللمزيد لمن رغب ينظر الجامع لأحكام القرآن (١/٩٧).

إن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يتبرك بها كل مؤمن ومؤمنة، ويحرص كل منهما على أن يكون ذكرها دائما على لسانه، حتى عند عثور الدابة، أو اصطكاك القدم يبادر إلى قول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾.

أخرج أبو داود بسند رجاله ثقات، من حديث رديف النبي ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابته فقلت: تعس الشيطان، فقال: « **لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت ذلك تعاظم، حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب** »[1].

فإذا علم ما تقدم بيانه وتدوينه فإن ما تنشرح إليه النفس هو قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وأنها آية من سورة الفاتحة، فيقرأ بها سرا في الصلاة عملا بما ثبت من حديث أنس وغيره، وإلى هذا ذهب جمع من الصحابة والتابعين والأئمة العلماء من بعدهم، منهم عمر، وعلي، وابن مسعود، وعمار، وابن الزبير، ﷺ، وهو قول الحكم وحماد، وبه قال الإمام أحمد بن حنبل، وأبو عبيد، وروي عن الأوزاعي، وذكره القرطبي وقال: هذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد، ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة[2] ولم نتعرض لأقوال العلماء في الإبانة عن الاسم، أهو المسمى أو غيره، أو صفة له؟، وما ذهب إليه أهل الحق، أن الاسم هو المسمى[3].

تفسير لفظ الجلالة:

﴿اللَّهُ﴾ هو الذي يألهه[4] كل شيء، قال ابن عباس ﷺ: ﴿اللَّهُ﴾ ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[1].

---

١) في سننه (٤٩٨٢) وانظر الجامع لأحكام القرآن (١/٩١، ٩٢) وعزاه للنسائي وكذلك عزاه المنذري، وهو في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ١١/١٦٥ حديث (١٥٦٠٠).

٢) الجامع لأحكام القرآن (١/٩٦).

٣) انظر (الجامع لأحكام القرآن ١/١٠١، ١٠٢).

٤) أي يعبده كل شيء ، قال رؤبة ن العجاج:

قال رؤبة بن العجاج:

لله در الغانيات المده * سبحن واسترجعن من تأله**

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله يأله إلاهة وتألهًا، كما روي أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[2] قال: عبادتك، أي: أنه كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، وهذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم، ولم يتسم به غيره سبحانه، ولذلك لم يثنّ ولم يجمع[3].

تفسير: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾:

قال ابن عباس ﷺ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ اسمان يعني لله ﷻ رقيقان أحدهما أرق من الآخر[4] ولكل اسم منهما معنى لا يؤديه الآخر، المعني الذي في تسميته ﷻ بـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أنه تعالى موصوف بعموم الرحمة لجميع خلقه، في الدنيا والآخرة، وتسميته تعالى بـ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أنه تعالى موصوف بخصوص الرحمة لبعض خلقه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ مختص بالله ﷻ، لا يجوز أن يسمى به غيره، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ

لله در الغانيات المده ** سبحن واسترجعن من تأله

أي من تعبدي، انظر: (جامع البيان ١/١٢٣).

١) جامع البيان (١/١٢٣).

٢) من آلآية (١٢٧) من سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾.

٣) الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٢).

٤) معالم التنزيل (١/٣٨) وفي إسناده إلى ابن عباس ﷺ علتان:

١ . فيه انقطاع بين الضحاك وابن عباس.

٢ . بشر بن عمارة ضعيف، وكلتاهما غير مؤثرتين في صحة المعنى، وإنما لا يقطع بأنه من قول ابن عباس ﷺ.

ﱡﭐ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﱠ[1] فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[2] فأخبر تعالى أن الرحمن هو المستحق للعبادة، ومن أعجب العجب أن مسيلمة الكذاب أخزاه الله تسمى بـ "رحمان اليمامة" ولم يتسم به حتى قرع مسامعه نعت الكذاب، فألزمه الله تعالى بنعت الكذاب لذلك، وإن كان كل كافر كذابا، فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علما يعرف به إلى يوم القيامة.

فالله ﷻ عمّ المؤمنين والكفار برحمته في الدنيا، فأعطاهم أعظم النعم وهي: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، لهدايتهم إلى الخير، وهو ما تحصل به حياة القلوب والأرواح، وزادهم من الأفضال، والإحسان والبسط في الرزق، وتسخير السحاب بالغيث، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأبدان والعقول، وسائر النعم التي لا تحصى، والتي يشترك فيها المؤمنون والكافرون، كل ذلك من مقتضى اسمه تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ فربنا جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، رحمن جميع خلقه، في الدنيا والآخرة[3].

تفسير: ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾:

تقدم القول بأنه تعالى موصوف بخصوص الرحمة لبعض خلقه، وذلك في كل الأحوال، أو في بعض الأحوال، فالخصوص الذي في وصفه تعالى بـ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لا يستحيل عن معناه في الدنيا، ويكون ذلك في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعا، فإنه تعالى قد خص عباده المؤمنين في عاجل الدنيا، بما لطف بهم من توفيقه إياهم للطاعة، والإيمان به وبرسله، واتّباع أمره واجتناب معاصيه، مما خُذِلَ عنه من أشرك به وكفر، ومن خالف ما أمره به، وركب معاصيه، وقد خص الله تعالى عباده

---

١) الآية (١١٠) من سورة الإسراء.

٢) الآية (٤٥) من سورة الزخرف.

٣) انظر توثيق ما تقدم في: (جامع البيان١/١٢٣- ١٢٨، والجامع لأحكام القرآن١/١٠٦) بتصرف.

المؤمنين في الآخرة بما أعد لهم في جناته، من النعيم المقيم، والفوز المبين، وخصهم برحمته العامة لهم في يوم الجزاء والحساب[1] نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده المخصوصين برحمته، وفضله في الدنيا والآخرة.

فهم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

قال ابن عباس ﷺ: هو الشكر والاستخذاء[2] لله ﷻ والإقرار بنعمته، وهدايته وابتدائه وغير ذلك[3] ومعناه: الشكر خالصاً لله جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد سبحانه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه سبحانه، فصحح فيهم الآلات لطاعته، ومكَّن جوارح وأجسام المكلفين من أداء فرائضه، مع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرا، ومن هنا جاءت "الحمد" معرفة بالألف واللام؛ لأن لها معنى لا يؤديه قول القائل: "حمدا" بإسقاط الألف واللام وذلك أن دخولهما في "الحمد" لاستغراق الجنس من جميع المحامد، والشكر الكامل لله ﷻ، فهو وحده يستحق الحمد بأجمعه، إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلى، فله الحمد أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا على الوجه الذي يرضيه سبحانه، ولهذا العموم في معنى الحمد تتابعت قراءات القراء، وعلماء الأمة على رفع الحمد من ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون نصبها، الذي يحيل المعنى[4] وقد تقدم القول في معنى لفظ الجلالة﴿لِلَّهِ﴾

---

١) انظر: جامع البيان (١/١٢٦) بتصرف.

٢) فيه معنى الانكسار والاسترخاء والذل، والخضوع والانقياد، انظر (اللسان١٤/٢٢٥، ٢٢٦، وترتيب القاموس٢/٢٥).

٣) أسند أبو جعفر الطبري (جامع البيان١٤/١٣٥) وتكلم في إسناده.

٤) انظر توثيقه في (جامع البيان١/١٣٥، ١٢٨. والجامع لأحكام القرآن١/١٣٣) بتصرف.

﴿ رَبِّ ﴾: له معان كثيرة، والمراد به هنا: الخالق المالك الرازق، قال ابن عباس ﷺ: يقول - يعني جبريل ﷺ -: قل الحمد لله، الذي له الخلق كله، السماوات كلهن ومن فيهن، الأرضون كلهن من فيهن، وما بينهن، مما يعلم ومما لا يعلم[1].

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ جميع المخلوقات مما تقدم بيانه، مماعلم ومما لا يعلم، مالكهم الله ﷻ، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، والرب: اسم من أسماء الله ﷻ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، ومن العلماء من قال: إنه الاسم الأعظم لكثرة الداعين به، فليتأمل ذلك في القرآن الكريم، كما في آخر سورة آل عمران، وسورة إبراهيم، وغيرهما لما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة، والافتقار إليه في كل حال[2].

فهم ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾:

تقدم فهم ذلك في الآية الأولى، لكن من تمام القول في هذا أن الله ﷻ أعاد هذين الاسمين العظيمين من أسمائه الحسنى وكلها عظيمة لما يشعر به قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من خوف ورهبة منه تعالى، فهو الخالق المالك المربي المتصرف، قرنه بعد ذلك بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لما فيهما من الترغيب في رحمته تعالى وعفوه وكرمه، ليجمع ﷻ في صفاته بين الرهبة منه تعالى، والرغبة إليه سبحانه، وهذا منهج الثواب والعقاب في التربية، فيكون أكثر عونا على الطاعة، وأشد تأثيرا في المنع من المعصية، كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[3] وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺقال: « **لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد،**

---

١) انظر (جامع البيان ١/١٤٢، ١٤٣) في إسناده بشر بن عمارة : ضعيف، ومعناه صحيح.

٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/١٣٦، ١٣٧).

٣) الآيتان (٤٩، ٥٠) من سورة الحجر.

ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد »[1] نسأل الله تعالى عفوه ورحمته، ونعوذ به من عذابه وسخطه.

فهم ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾:

اعلم أنه لا يجوز لأحد أن يتسمى بهذا الاسم، ولا يدعى به إلا الله تعالى، فله الملك المطلق في الدنيا والآخرة، لذلك جاءت هذه الآية تذكر جميع الخلق الإنس والجن، أن الله ﷻ هو مالك يوم الدين، المتفرد بذلك وحده لا شريك له، فكما أن الله تعالى صاحب الملك المطلق في الدنيا، لكنه خوَّل بعض عباده شيئا من صفة الملك في الدنيا، فمنهم سابق بالخيرات، ومنهم مقتصد، ومنهم ظالم لنفسه، اقتضت حكمته تعالى هذا الإيجاد في الحياة الدنيا، للابتلاء والامتحان، فكان الملك له خالصا يوم الدين، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾[2].

أخرج الشيخان[3] البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **يقبض الله الأرض، ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض** ».

ولما كانت الآخرة دار جزاء وخلود اختص الله ﷻ بالملك، لينال العباد جزاء سعيهم في الدنيا، ملوكاً وأمماً، على حد سواء، وسواءً كانوا إنساً أم جناً، وفي الآية والحديث من تنبيه الغافل، وتحريض النابه ما يجعلهما في غاية الحذر والتحسب لهذا الموقف العظيم، وليعلم العبد أنه في قبضة خالقه ينادى على رؤوس الأشهاد، لمن الملك اليوم؟، فيدفعه هذا إلى محاسبة النفس في الدنيا، إن كان من ذوي الألباب الموفقين.

---

1) صحيح الإمام مسلم، حديث (٢٣) وانظر (الجامع لأحكام القرآن١/١٣٩).

2) الآية (١٦) من سورة غافر.

3) البخاري، حديث (٤٨١٢) ومسلم، حديث (٢٣).

فهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

يلاحظ القارئ هنا أن أسلوب الآيات تحول من الغيبة إلى الخطاب، ولا غرابة في ذلك، ففيه إشارة إلى أن العبد تشبعت روحه بمعرفة الله تعالى وربوبيته للمخلوقات، ومعرفة أسمائه وصفاته، فتحول الخطاب بناء على هذه المعرفة، كأن العبد يرى ربه فيخاطبه، غير شاك في ألوهيته وأسمائه وصفاته، على حد ما ورد في ركن الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، ثم إن التحول من الغيبة إلى الخطاب أسلوب عربي معروف، والقرآن نزل بلغة العرب، ومن المعقول عن العرب، أن من شأنهم إذا حكوا، أو أمروا بحكاية، أن يخاطبوا ثم يتحولوا إلى الإخبار عن غائب، ويخبرون عن غائب ثم يعودون إلى الخطاب، لما في الحكاية بالقول من معنى الغائب والمخاطب، كقولهم للرجل: قد قلتُ لأخيك، لو قمتَ لقمتُ، وقد قلتُ لأخيك، لو قام لقمتُ.

قال أبو كبير الهذلي:

يا لهف نفسي كان جِدةُ خالد ** وبياض وجهكَ للتراب الأعفر [1]

ومنه قول لبيد بن ربيعة:

باتت تشكى إلي النفس مجهشة ** وقد حملتكِ سبعا بعد سبعينا [2].

وفيهما الرجوع إلى الخطاب بعد الغيبة، وهذا في كتاب الله ﷻ كثير [3].

والمعنى: نخصك بالعبادة وحدك لا شريك لك، فنخشع ونذل ونستكين، ولا ريب أن الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة، والعبودية عند العرب الذلة تقول: طريق معبد، أي: مذلل قد وطئته الأقدام، وذللته السابلة: جعلته معبدا، ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

---

١) منسوب لأبي كبير الهذلي، وليس في ديوان الهذليين.

٢) في ديوانه (ص٢٢٥) وقال (قامت) وانظر: (جامع البيان١/١٥٣، ١٥٤) بتصرف.

٣) انظر سورة يونس (الآية (٢٢) وسورة الدهر (الآيتين ٢١، ٢٢).

تُباري عتاقا ناجيات وأتبعت ** وظيفا وظيفا[1] فوق مور معبد[2].

وقد قدَّم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ في الجملتين للإشعار بخصوصية العبادة والاستعانة بالله وحده لا شريك له، ولئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز "نعبدك، ونستعينك" ولا "نعبد إياك، ونستعين إياك" فيجب إتباع لفظ القرآن، قال العجّاج:

إياك أدعو فتقبل ملقي ** فاغفر خطاياي وكثر ورِقي[3]

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أي بك يا ربنا نستعين على طاعتك وعبادتك، وعلى كل أمورنا في حالنا ومستقبل عمرنا.

اللهم إياك نعبد وحدك لا شريك لك، مخلصين لك العبادة، دون ما سواك من الآلهة والأوثان، فأعنا على عبادتك، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليهم من أنبيائك ورسلك وأهل طاعتك، من السبيل والمنهاج[4].

فهم ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾:

لما أكمل الله بيان الأحكام والحلال والحرام، وأقام الحجة بأوضح ما يكون البيان والبرهان، وجه عباده إلى طلب المزيد من الهداية والتوفيق والثبات كما قال ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الآية: ألهمنا الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه[5] وهو دين الإسلام، وقد فسره بذلك جابر بن عبد الله ﷺ فقال: "الصراط المستقيم: هو الإسلام"[6] وعن النواس بن سمعان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « **ضرب**

---

١) المراد به هنا خف الناقة الموصوفة، وانظر (جامع البيان (١٦١/١).

٢) في (ديوانه ص٣٥).

٣) في ديوانه (١٧٨/١) وفي الجامع لأحكام القرآن (١٤٥/١).

٤) جامع البيان (١٦٧/١، ١٦٩).

٥) أسنده أبو جعفر الطبري (١٦٦/١، ١٧٤).

٦) أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرك٢/٤٤٦) ووافق الذهبي.

الله صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس أدخلوا الصراط جميعا ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم » [1] قال الطبري: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن (الصراط المستقيم) هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أمير المؤمنين على صراط * إذا اعوج الموارد مستقيم** [2]

يريد على طريق الحق.

ومنه قول الهذلي أبي ذؤيب:

صبحنا أرضهم بالخيل حتى * تركناها أدق من الصراط** [3]

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾:

هذا بيان لنوع الصراط المطلوب الهداية إليه، والثبات عليه، وأنه كما قال ابن عباسﷺ: طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من الملائكة والنبيين، والصديقين والشهداء والصالحين، الذين أطاعوك وعبدوك [4] فيكون المعني به: وفقنا

---

١) أخرجه الإمام أحمد (المسند٤/١٨٢-١٨٣) وهو حديث حسن في إسناده الحسن بن سوار: صدوق، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه (المستدرك١/٧٣) .

٢) في (ديوانه١/٢١٨).

٣) منسوب لأبي ذؤيب الهذلي، وليس في ديوانه هذا البيت، وهو في تفسير القرطبي (١/١٠٣) وتفسير الطبري (١/١٧٠) والدر المصون (١/٦٤).

٤) أسنده الطبري رحمه الله (جامع البيان١/١٧٨).

للثبات على ما ارتضيته، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه، من النبيين والصديقين والشهداء، فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجر الله عنه، واتباع منهج النبي ﷺ، ومنهاج أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ﷺ، وكل عبد لله صالح، ذلك من الصراط المستقيم[1].

﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾:

وهنا يتكرر السؤال وطلب العافية، فكما سألوه تعالى أن يهديهم سبيل المؤمنين، سألوه تعالى ألا يضلهم، كما دعوه فقالوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[2].

والمغضوب عليهم: هم العصاة بمختلف معاصيهم، داخلون في غضب الله ﷻ بتفاوت، فأعلاهم اليهود، وأدناهم مرتكب الذنب، فالله ﷻ يغضب من عمل الذنوب وإن قلّت.

والضالون: هم الجهّال، أعلاهم النصارى، ضلوا طريق الحق، وأدناهم الجهال من العوام، الذين يجهلون أمور دينهم ودنياهم، وقد ذهب الجمهور من العلماء رحمهم الله إلى أن "المغضوب عليهم" هم اليهود لتكذيبهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، ولقولهم في عيسى ﵇: إنه ابن زانية، فكذبوا الله ﷻ، ورموا عيسى وأمه، وتجاسروا على الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[3] وقالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[4] فباؤوا

---

١) انظر جامع البيان (١/١٧١).

٢) الآية (٨) من سورة آل عمران.

٣) الآية (١٨١) من سورة آل عمران.

٤) الآية (٦٤) من سورة المائدة.

بغضب من الله، وهم رأس من غضب الله عليهم من عباده من الإنس، قال الله تعالى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [1].

أما الضالون: فقال الجمهور: هم النصارى لأنهم اتبعوا الهوى فضلوا في أمر عيسى عليه السلام، وقالوا بالتثليث فأفرطوا في اعتقادهم، وجاوزوا الحد في دينهم، وغلوا في أمر نبيهم المسيح عليه السلام، فقالوا: إنه إله، وزعموا أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [2].

أما المسلمون: فهم أصحاب الصراط المستقيم، والحمد لله كانوا وسطا بين اليهود والنصارى، فاعتقاد اليهود تفريط، واعتقاد النصارى إفراط، والمسلمون وسط بينهم، آمنوا بالله تعالى وما جاء به أنبياؤه ورسله.

اللهم أحينا مسلمين مؤمنين، وأمتنا مسلمين مؤمنين، وابعثنا مسلمين مؤمنين، غير خزايا ولا نادمين، والحمد لله رب العالمين وصلى وسلم وبارك على أنبيائه ورسله أجمعين.

معنى آمين:

أكثر العلماء على أن معنى آمين: اللهم استجب لنا، وُضِع موضع الدعاء، وهذا قولٌ حسن، فإن الله ﷻ جعل الدعاء في الفاتحة على نصفين، النصف الأول منها مجمع الثناء عليه تعالى، والنصف الثاني فيه مجمع حاجات العباد، وحسن أن يختم الثناء والدعاء بطلب القبول والاستجابة فكأن القائل: آمين يقول: اللهم استجب لنا يا ربنا ثناءنا عليك بما أنت أهله، ودعاءنا الذي به تقضي حاجاتنا، وتجعلنا من عبادك المقبولين، وقد كان الصحابة يختمون الدعاء بآمين.

---

١) الآية (٦١) من سورة البقرة، وفي آيات أخر من كتاب الله العزيز.

٢) الآية (٧٧) من سورة المائدة.

في (آمين) لغتان:

١. المد على وزن (فاعيل) مثل (ياسين) قال الشاعر في المد:

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أبلغها ألفين آمينا** ١

٢ . القصر: على وزن (فعيل) قال الشاعر:

تباعد مني فطحل إذ سألته * أمين فزاد الله ما بيننا بعدا** ٢

وهي كلمة عربية لا ريب في ذلك، ومن شدد الميم فقد أخطأ ٣.

حكم قول آمين:

ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « **إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه** » وقال ابن شهاب: "وكان رسول الله ﷺ يقول: آمين" ٤.

وفي حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه مسلم وغيره: « **وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا : آمين يجبكم الله** » ٥.

فهذه النصوص وغيرها في نظري دالة على وجوب قول: "آمين" بعد الفراغ من قراءة الفاتحة.

---

١) لم أقف على قائله وهو في(تفسير ابن عطية١/١٣٢) وتفسير القرطبي (١/٩٠) والدر المصون (١/٧٧).

٢) لجبير بن الأضبط في (تهذيب إصلاح المنطق ص٤٣٩).

٣) انظر توثيق ما تقدم في (الجامع لأحكام القرآن١/١٢٧، ١٢٨، وروح المعاني١/٩٧) بتصرف.

٤) متفق عليه: انظر (البخاري، حديث (٧٨٠) ومسلم، حديث (٧٣. ٧٦).

٥) مسلم، حديث (٦٢) والجامع لأحكام القرآن١/٩٧).

وقول القرطبي رحمه الله: ويسن لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة، بعد سكتة على نون "ولا الضالين": آمين، ليتميز ما هو قرآن، مما ليس بقرآن [١] فيه نظر، من حيث أن ما ورد من الأمر بقولها، لا صارف له عن الوجوب إلى السنية، نعم آمين ليست قرآنا، لكنها دعاء ثبت الأمر به عقب الفاتحة.

أهمية قول آمين:

أهمية قول آمين بعد قراءة الفاتحة واضحة مما ورد في النصوص الثابتة من أنها سبب في المغفرة، وقد أخرج أبو داود من حديث أبي زهير النمري [٢] خرجنا مع رسول الله ذات ليله، فأتينا على رجل قد ألحَّ في المسألة [٣] فوقف النبي ﷺ، يستمع منه فقال النبي ﷺ: « **أوجب إن ختم** » فقال رجل من القوم: بأي شيْ يختم؟، قال: « **بآمين، فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب** » فانصرف الرجل الذي سأل النبي ﷺ فقال: اختم يا فلان بآمين وأبشر [٤] وفي هذا أخبار لا تخلو من مقال وقد يعضِّد بعضها بعضا [٥].

الجهر بآمين:

الصحيح من أقوال العلماء رحمهم الله الجهر بآمين للإمام والمأموم، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة منها ما تقدم وعقد الإمام البخاري رحمه الله ترجمتين لذلك.

---

١) الجامع لأحكام القرآن (١٢٧/١).

٢) أسد الغابة وذكر أن أبا زهير كنية لثلاثة اختلف العلماء فيهم فمنهم من عدهم ثلاثة، ومنهم من قال: إنهم شخص واحد وسماه يحي بن نفير (٢٠٢/٥).

٣) يعني الدعاء.

٤) سنن أبي داود، حديث (٩٣٨) وفي إسناده صبيح بن محرز مقبول.

٥) انظر: (الجامع لأحكام القرآن ١٢٧/١.١٢٨).

قال في الأولى: باب جهر الإمام بالتأمين وقال عطاء: "آمين دعاء، أمَّن ابن الزبير ومن وراءه، حتى إن للمسجد للجة"، وكان أبو هريرة ينادي الإمام "لا تفتني بآمين" [١].

وقال في الثانية: باب جهر المأموم بآمين [٢] وذكر حديث أبي هريرة المتقدم في آخر المبحث الثالث.

وأخرج أبو داود، والدارقطني [٣] من حديث وائل بن حجر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا قرأ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: "آمين" ورفع بها صوته، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن [٤] وقال أيضا عقب قول عطاء: "وبه يقول غير واحد من أهل العلم، من أصحاب النبي ﷺ، ومن بعدهم، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها" وبه يقول الشافعي، وأحمد، وإسحاق [٥] ولا حجة قائمة لمن قال بالإسرار بآمين، بدعوى أنها دعاء، والله ﷻ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [٦] لأنه يقال له ثبت ذلك من فعل رسول الله ﷺ، والصحابة ﷺ، ثم إن إخفاء الدعاء إنما يكون أفضل لما يدخله من الرياء، أما ما يتعلق منه بصلاة الجماعة فشهودها، إشهار شعار ظاهر، وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره، وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها، فإذا كان الدعاء مما يسن الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له، وجار مجراه وهذا بين [٧].

---

١) صحيح الإمام البخاري، حديث (٧٨٠).

٢) صحيح الإمام البخاري، حديث (٧٨٢).

٣) سنن أبي داوود (١/٥٧٤) وانظر سنن الدارقطني (١).

٤) سنن الترمذي، حديث (٢٤٨).

٥) انظر: (الجامع لأحكام القرآن١/١٢٩).

٦) الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

٧) انظر (الجامع لأحكام القرآن١/١٢٠) بتصرف.

كيف يصل المسلم إلى أعلى درجات التقرب

إن المسلم مأمور باستشعار عظمة الله ﷻ، وقدرته سبحانه على الخلق والإحياء، والإماتة والبعث والجزاء، سيما في حال أداء العبادات، ومعروف أن الصلاة عليها مدار العبادات، وفيها مناجاة متكررة في كل وقت أوجب الله ﷻ أداء هذه الفريضة العظيمة فيه، قال الله ﷻ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[1] ولما سئل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: « **أن تعبد الله كأنك تراه ،فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[2] وهنا يلزم العبد تدبر ما يقرأ حتى يحصل الاستشعار، ويتم الخشوع، ويتحقق له قول الله ﷻ: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾[3] فإذا ما قرأ الفاتحة متدبرا ظهر له من صفات الربوبية في قوله تعالى:﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ومن صفات الرحمة في قوله تعالى:﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ والملك في قوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وإخلاص العبادة في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ما يجعل المسلم مستشعرا عظمة الله ﷻ، كأنه يراه، فيكون قلبه ولسانه يثنيان على الله ﷻ بجميع المحامد، وتكون الجوارح في سكون وخشوع كامل، إذ أنه من خلال النصف الأول من الفاتحة استشعر عظمة الله ﷻ، من خلال الثناء عليه وحمده الله تعالى، وذكره بالغيبة بأسمائه وصفاته، فلما كمل الاستشعار في قلبه وفكره، صارت تلك الصفات والمعاني في ذهنه في حكم المشاهد على حد قوله ﷺ: « **كأنك تراه** » فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وبهذا الاستشعار وذلك التصور الذهني، والخشوع والتذلل الظاهر بين الجوارح، وصل قارئ الفاتحة إلى أعلى درجات التقرب والعبودية لله وحده لا شريك له، ولم يبق بعد هذا الوصول إلا الطلب من المعبود سبحانه، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾والاستعانه هنا لها جانبان:

---

١) الآيتان (١، ٢) من سورة المؤمنون.

٢) جزء من حديث أبى هريرة عند البخاري، حديث (٤٧٧٧).

٣) الآية (١٩) من سورة العلق.

الأول: يخص الاستعانه به سبحانه وتعالى على القيام بما فرض الله ﷻ، على عباده من العبادات ومن العون عليها هدايتهم وتوفيقهم لها، وسدهم بالصبر والثبات عليها، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2] وفي ذلك حبس للنفس عما حرم الله.

الثاني: يخص الاستعانة به سبحانه على ما أباح للعباد من الطيبات من أمور الدنيا البحتة، كحفظ الصحة والكسب الحلال، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3] وقال ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6] وجميع مهام الحياة، وهي تختلف باختلاف الناس، وما خوّلهم الله فيه من التمكين في الأرض، ابتداء من تهذيب النفس وإدارة أمور الأسرة الصغيرة، وانتهاء برعاية الأمة وحفظ حقوقها، وفيه تدخل جميع الحِرف والصناعات، من صناعة الإبرة إلى بناء المفاعلات الذرية، لا يتم للمسلم شيء منها إذا لم يستعن بالله ﷻ، وإن حصل لغير المسلمين شيء من ذلك، فهو من المتاع الذي وعدهم الله به ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن

---

١) الآية (٤٥) من سورة البقرة.
٢) الآية (٣٥) من سورة فصلت.
٣) الآية (١٥) من سورة الملك.
٤) الآية (٣٢) من سورة الأعراف.
٥) الآية (٢٠) من سورة المزمل.
٦) الآية (١٠) من سورة الجمعة.

﴿ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] فكونهم يصلون إلى شيء من ذلك المتاع في الصحة والمال والبنين والقوة في شتّى مناحي الحياة دون استعانة منهم بالله، فقد أخبر تعالى أنهم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[2]، وقد أمدهم الله بأسباب ذلك متاعا لهم، وهو استدراج لهم من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾[3].

أما المسلمون فقد جمع الله لهم بين الدنيا والآخرة، إذا ما تمسكوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم، ومن هنا وجب على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، وفي كل شبر منها، شعوبا وحكاما، جماعات وأفراداً، يجب عليهم العودة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله، والعمل بهما نصا وروحا، سالكين المنهج النبوي، والخلافة الراشدة، حذو القذة بالقذة[4] آخذين بأسباب وحدتهم، وقوتهم وعزتهم كما فعل أسلافهم، من الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم من الصالحين، من الملوك والقادة الفاتحين، إنهم إذا فعلوا ذلك يستطيع مبعوث المسلمين إلى غيرهم، أن يقول مثلما قال مبعوث سعد بن أبي وقاص ؓ، الصحابي الجليل، النعمان بن مقرن، إلى يزدجرد ملك الفرس أيام حرب القادسية، في زمن الخليفة الراشد عمر ؓ: "إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا، يدلنا على الخير ويأمرنا به - إلى قوله -: وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام، دين حسَّن الحسن، وقبّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر، هو أهون من آخر شرّ منه: الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، وعلى أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم ....

---

١) الآية (١٢٦) من سورة البقرة.

٢) الآية (٧) من سورة الروم.

٣) الآية (١٧) من سورة الطارق.

٤) ريش السهم واحدتها: قذّة: أي: كما تقدر كل واحدة على قدر صاحبتها وتقطع، يضرب مثلاً للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان. (النهاية٤/٢٨).

الخ"[1] ولاستطاع أن يفعل مفاوض المسلمين مثلما فعل ربعي بن عامر ﷺ حينما دخل على رستم بثياب صفيقة، وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض الوسائد. وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، قال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟، فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. الخ[2].

ولَوَقف موقف المغيرة بن شعبة ﷺ من رستم أيضا حينما هدد، واستشاط غضبا من المسلمين وأزبد وأرعد، وقال: أمرت لكم بكسوة ولأميركم ألف دينار وكسوة ومركوب.

فقال المغيرة ﷺ: "أبعد أن أوهنا ملككم، وأضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم، ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون، وستصيرون لنا عبيدا على رغمكم"[3].

وهذا غيض من فيض من مواقف المسلمين وقادتهم العظام، حينما كانوا مع الله ورسوله قلبا وقالبا.

إن العالم الإسلامي متخم بالدول الإسلامية، الواسعة الأرجاء، المالكة لكثير من الثروات، ذات الدور الفعال في قلب الموازين السياسية والعسكرية في العالم، يلقي بثقل المسؤولية العظمى على الحكام والعلماء، والأعيان والحكماء تجاه دينهم ووحدتهم، وقوتهم وحضارتهم، ويوجب عليهم استغلال الثروات، ومعرفة العلوم والصناعات، ليحفظوا دينهم وحضارتهم، ويقيموا الوزن بالقسطاس المستقيم في شعوبهم، ويكونوا خلفاء الله في الأرض، محققين قول الله ﷻ: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**

---

١) البداية والنهاية (٧/٥١، ٥٢).

٢) البداية والنهاية (٧/٤٩).

٣) البداية والنهاية (٧/٥٠).

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] وقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2] وقـول رسـول الله ﷺ: « **مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد، بالسهر والحمى** »[3] بهذا يكونون أولياء الله ﷻ، وخلفاؤه في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

---

١) الآية (١٠٣) من سورة آل عمران.

٢) الآية (١٠) من سورة الحجرات.

٣) أخرجه مسلم، حديث (٦٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

سـورة: الـبقرة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

سورة البقرة هي السورة الثانية في ترتيب سور القرآن الكريم، والصحيح جواز تسميتها بهذا، وذلك لتميزها عن بقية السور بذكر قصة بني إسرائيل ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً** ﴾[1]، وقد عُدَّت سورة البقرة السابعة والثمانين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المطففين، وقبل آل عمران.

وإذ كانت أول سورة نزلت بعد الهجرة فقد عُني بها الأنصار وأكبوا على حفظها، يدل لذلك ما جاء في السيرة أنه لما انكشف المسلمون يوم حنين قال النبي ﷺ للعباس: « **اصرخ يا معشر الأنصار يا أهل السمرة[2]، يا أهل سورة البقرة** » فقال الأنصار: "لبيك لبيك يا رسول الله أبشر"[3].

وفي الموطأ قال مالك إنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها[4]، وعدد آيها مائتان وخمس وثمانون آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والشام، وست وثمانون عند أهل العدد بالكوفة، وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة.

---

١) من الآية (٦٧) من سورة البقرة .

٢) المراد شجرة البيعة بالحديبية .

٣) مصنف ابن أبي شيبة حديث (٣٦٩٩١) .

٤) الموطأ حديث (٤٧٩) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: « **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه** »[1]، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا قرأهن رسول الله ثم قام فحرم التجارة في الخمر"[2].

سورة البقرة مدنية بالاتفاق، وهي أول ما نزل بالمدينة على الصحيح، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده" تعني النبي ﷺ[3]، وكان بناء رسول الله ﷺ عليها في شوال من السنة الأولى للهجرة، أو في أول السنة الثانية، ومعلوم أن الصيام فرض في السنة الأولى بصيام عاشوراء، ثم نسخ وجوبه بفرض صيام رمضان إما في أواخر السنة الأولى من الهجرة، أو في السنة الثانية، وهذا يتفق تماما مع قول عائشة رضي الله عنها، ومنها آية واحدة مكية هي قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[4]، نزلت بمنى يوم النحر في حجة الوداع.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

تقدم فهم البسملة مفصلا في سورة الفاتحة، وهي فاتحة كل عمل كريم، فيها الخير والبركة والتعظيم.

(٢/١) قال تعالى:

﴿ الم ① ﴾

هذه الآية الأولى من سورة البقرة، وهي وغيرها من الآيات المكونة من الحروف المقطعة في القرآن القول الصحيح فيها إن شاء الله تعالى أنها من المتشابه الذي

---

١) البخاري ومسلم.

٢) البخاري ومسلم.

٣) فتح الباري ؟؟؟.

٤) الآية (٢٨١) من سورة البقرة.

إختص الله ﷻ بعلمه، وبهذا قال جمع كثير من أهل العلم وهو مروي عن الخلفاء الأربعة وابن مسعود ﷺ وبعض التابعين وأتباعهم، وجمع من المحدثين، فنؤمن بها ولا نتكلف تأويلها، ولذلك قال أبو حاتم رحمه الله: لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله جل وعز بها[1].

(٢/٢) قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾.

هذه الآية الثانية من سورة البقرة، وفهم ما فيها من العلم على النحو التالي:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾.

اسم الإشارة للدلالة على علو وعظمة الكتاب العزيز، وهو القرآن كلام الله ﷻ صفة من صفاته تعالى، منزل غير مخلوق، وهو المعهود لبني إسرائيل في التوراة والإنجيل من خبر النبيين موسى وعيسى عليهما السلام.

﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾.

في هذه الجملة قراءتان:

إن وقف القارئ على قوله: ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ كان المعنى لا شك ولا مرية، في كونه الصدق الذي جاء به محمد ﷺ، وأ خبر به موسى وعيسى عليهما السلام قومهما، وهو حقيقة معلومة عند أهل الكتاب في التوراة والإنجيل.

ويكون معنى الجملة بعد ذلك ﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ إثبات وجود الهدى المطلوب في القرآن الكريم وليس في غيره، وهو لصنف من عباد الله ﷻ وهم المتقون، لأنهم هم المنتفعون به حقيقة، وإن كانت براهينه عامة لكل من علم به، فالمراد أن القرآن كله

---

١) القرطبي ١٥٤/١ بتصرف.

هدى للمتقين، وليس كقوله تعالى عن العسل: ﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ ﴾[1]، فإن المراد شفاء لبعض الأدواء الجسدية وليس لكل الأدواء، أما القرآن فهو شفاء لكل من طلبه بيقين وتقوى، ولكل الأدواء الروحية.

وإن وقف على قوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ كان المعنى ليس فيه شك، كله حق مبني على اليقين، وكان معنى الجملة بعده ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هو هدى للمتقين، وهم الذين أتبع الله ﷻ بيان بعض صفاتهم في الآية التالية.

(٢/٣) قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

هذه الآية الثالثة من سورة البقرة، أورد الله ﷻ الإيمان بالغيب لأنه أصل عظيم في الاعتقاد، ومسلك قوي في تصديق الرسل، بخلاف من لايؤمنون إلا بالماديات المحسوسة فإنهم معرضون عن الإيمان بالغيب، والمراد أن المتقين يؤمنون بكل ماغاب عنهم كالحياة في البرزخ، والبعث بعد ذلك والحساب، والجنة والنار، فالآية فيها ثلاث صفات للمتقين:

أولاها: أنهم يؤمنون بالغيب، والإيمان بالغيب من أفضل ما يُهدى العبد إليه؛ لأن العبد إذا اتصف به كان أخشى لله ﷻ ألا ترى أنك إذا آمنت بأن الله ﷻ مطلع على ما تضمر فضلا عما تظهر كنت أكثر خوفا من الله ﷻ، وألزم لطاعته، فينال العبد مرتبة الإحسان، وهو قول نبينا محمد ﷺ: « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[2]، وهذا الشعور هو أقوى ما يكون عليه العبد من الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[3]، وجملة القول في الإيمان بالغيب أن يكون عند العبد اليقين بأن الله ﷻ بكل شيء عليم، قال

١) الآية (٦٩) من سورة النحل.

٢) أخرجه البخاري ومسلم.

٣) الآية (١٣) من سورة الملك.

تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾١ والآيات في هذا الصدد معلومة في كتاب الله ﷻ فلا نطيل بسردها، وخلاصة الإيمان بالغيب الإيمان بالبعث وباليوم الآخر، وبما فيه من وزن الأعمال، وما يترتب عليها من ثواب وعقاب، هذه الأمور استلزمها الإيمان واليقين بها؛ لأن الثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك: فعل الحلال وترك الحرام، والإنسان يلتزم بالحلال رجاء الثواب، ويمتنع عن الحرام مخافة العقاب.

ومن هنا نعلم أهمية الإيمان بالغيب في العمل للدنيا والآخرة، ولذلك بينت آيات عديدة آثار التقوى في الدنيا والآخرة، فمنها في الدنيا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾٢، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾٣، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾٤، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾٥، وهنا نجد أن الباري ﷻ أورد العموم في الآية الرابعة من سورة الطلاق، فبشر باليسر في كل أمر، وهذا يشمل كل أمور الخير الدنيوية والأخروية، وقبلها في الآيتين الثانية والثالثة أورد الخاص قبل العام، فالمخارج من العوارض، والرزق، والعلم والمعية، كلها من أمور الدنيا، نوه بها لأهميتها في حياة العباد.

أما في الآخرة فإن التقوى تصحب صاحبها ابتداء إلى أبواب الجنة كما في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾٦، فإذا دخلوها آخت بينهم التقوى التي كانوا عليها في الدنيا، وجددت روابطهم فيما بينهم، وآنستهم من كل خوف، كما

---

١) الآية (٢٩) من سورة البقرة.

٢) من الآية (٤) من سورة الطلاق.

٣) من الآيتين (٢، ٣) من سورة الطلاق.

٤) من الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

٥) الآية (١٢٨) من سورة النحل.

٦) الآية (٧٣) من سورة الزمر.

في قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ١، إلى أن تنتهي بهم إلى أعلى عليين وتُحِلهم مقعد صدق كما في قوله تعالى: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ ٢، فتبين بهذا كله منزلة التقوى في الحياتين.

الصفة الثانية من صفات المتقين إقامة الصلاة:

الصلاة هي أول شيء فرضه الله على عباده، ولشرفها على سائر العبادات كان فرضها والنبي ﷺ في الملكوت الأعلى ليلة الإسراء، مناجاة بين النبي الكريم وربه الخالق العظيم، من أقدس مكان وصل إليه نبينا محمد ﷺ، وفي أقدس ليلة هي ليلة أسري به ﷺ وعرج به إلى السماء، حتى ناجى ربه واستقبل منه فرض الصلاة خمسين في اليوم والليلة، وكان التخفيف، حتى استقر فرضها خمس صلوات في اليوم والليلة، وهي خمسون في الميزان، ولم تفرض عبادةٌ بالمباشرة سوى الصلاة، وما عداها فرض بالوحي من طريق جبريل عليه السلام، وكانت الصلاة قرة عين رسول الله ﷺ؛ لأن الله ﷻ جمع له ولأمته فيها عبادات الملائكة الذين رآهم في السماوات، ولم يكن ذلك مجتمعا في عبادة سوى الصلاة، وقد تميز المتقون بأنهم يقيمون الصلاة، والصلاة هي **الركن الأول** للإيمان بالغيب، ولذلك لم يقل الله ﷻ: الذين يصلون، بل قال: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يؤدونها بشروطها وفروضها إيمانا بالغيب.

والركن الثاني للإيمان بالغيب إيتاء الزكاة، ويأتي فهم ذلك قريبا، وقد أمر الله بإقامة الصلاة في آيات من كتابه العزيز لبيان أهميتها في تحقيق الإيمان بالغيب، وإقامتُها تكون بالمحافظة عليها بفروضها وشروطها، لأنها أهم ما فرض الله ﷻ على عباده

---

١) الآيات (٦٧ . ٧٣) من سورة الزخرف.

٢) الآية (٥٥) القمر.

بعد التوحيد: النطق بالشهادتين، ولأنها قرينة الصبر في الاستعانة بها على جميع الطاعات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1]، وهي كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾[2]، وهي تعين على المداومة على ذكر الله ﷻ، وهو أكبر شيء في العبادة ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[3]، وقد وصفها الله ﷻ بأنها كبيرة لا يداوم عليها إلا الخاشعون، والخشوع ثمرة من ثمرات التقوى، فكانت الصلاة عونا لهم على كل خير، قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[4]، فإقامة الصلاة بهذا الاعتبار من صفات المتقين.

الركن الثالث من أركان الإيمان بالغيب: النفقة من الرزق، ومنه إتاء الزكاة والصدقة، وقد ورد عموم النفقة وهي صفة المتقين الثالثة المذكورة في الآية.

الصفة الثالثة من صفات المتقين: قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ بيّن تعالى في هذه الصفة عموم النفقة، أعلاها الزكاة المفروضة في الأموال، والنفقة على الأسرة والأقرباء، والصدقة على الفقراء، والبذل في وجوه الخير، وتلاحظ أن الصلاة وردت في كثير من الآيات مقرونة بالزكاة؛ لأنهما ركنا الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[5]، فالآية وإن كانت في سياق خطاب بني إسرائيل ومطالبتهم بذلك، فهي بالنسبة للمؤمنين إما أن تكون توكيدا على إقامة الصلاة المفروضة، أو أمرا بالنوافل والمحافظة عليها زيادة في الخير، وتقربا إلى الله تعالى، والآيات في هذا الصدد كثيرة في كتاب الله العزيز، والزكاة قرينة الصلاة، فقد كان فرض الزكاة في ابتداء الإسلام مع فرض الصلاة، أو

---

١) الآية (١٥٣) من سورة البقرة.
٢) الآية (٤٥) من سورة العنكبوت.
٣) الآية (٤٥) من سورة العنكبوت.
٤) الآية (٤٥) من سورة البقرة
٥) الآية (٤٣) من سورة البقرة.

بعده بقليل، وكان فرضها ضرورة لإقامة أود الفقراء من المسلمين، وهم كثيرون في صدر الإسلام، لأن الذين أسلموا قد نبذهم أهلوهم ومواليهم، وجحدوا حقوقهم، واستباحوا أموالهم، فكان فرض الزكاة رحمة من الله ﷻ بهم، وبأمثالهم من المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي طُهرة لأهل الجِدَة والقوة من المسلمين، ونماء وبركة في أموالهم، وقد ورد ذكر الزكاة في آيات كثيرة من السور المكية ومنها سورة المزمل، وسورة البينة، وهما من أوائل سور القرآن نزولا، وقول بعض المفسرين رحمهم الله: الزكاة فرضت بالمدينة، يحمل على ضبط مقاديرها بآية ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[1]، وليس الأمر بالصلاة والزكاة خاصا بالمسلمين، فقد خوطب به بنوا إسرائيل وتولوا معرضين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2]، وهذا يدل على أهمية الصلاة في حياة بني آدم ومعادهم.

(٢/٤) قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

هذه هي الآية الرابعة من سورة البقرة، ولا زال السياق الكريم في الحديث عن المتقين، وقد تقدم من صفاتهم ثلاث صفات، وثلاث صفات أخريات في هذه الأية الكريمة:

الأولى منها: هي الرابعة لما سبق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ هذه الصفة فيها إشارة إلى أن الموصوفين كان منهم النظر فيما أنزل على الرسول ﷺ، فكان الإيمان بالغيب رائدهم فيما نظروا، فعلموا أنه الحق، فتقرر عندهم الإيمان بالغيب ومنه البعث والحساب، والجنة والنار، فاصطحبوا التقوى، وحصل لهم الإيمان بعد الكفر، فاستحقوا الثناء بهذه الصفة.

---

١) الآية (١٠٣) من سورة التوبة.

٢) من الآية (٨٣) من سورة البقرة.

الصفة الثانية في هذه الآية: هي الخامسة لما سبق قال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيّن تعالى أن المتقين كما آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ؛ فإنهم يؤمنوا بما أنزل من قبله من الكتب السماوية المنزلة على الرسل قبله، ومنها التوراة والإنجيل، وقبلها الزبور، وذلك من أركان الإيمان الستة، لكنه بالنسبة للعرب إيمانهم بالغيب اكتسبوه من هداية القرآن لهم، أما الذين آمنوا من أهل الكتاب من اليهود كعبد الله بن سلام ﷺ ومن النصارى كصهيب الرومي ﷺ، فالمتجدد لهم الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ، نتيجة لإيمانهم بالتوراة والإنجيل، وحصلت لهم المشاركة للعرب في الإيمان بهداية القرآن ونبوة محمد ﷺ، وشاركهم العرب في الإيمان بكتبهم المنزلة على انبيائهم قبل الإسلام بهداية القرآن لهم، فوُصِف الفريقان بالصفتين السابقتين من صفات المتقين، فاتحد الفريقان في صفات المتقين.

الصفة الثالثة في هذه الآية: هي السادسة لما سبق، ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهنا يفترق المؤمنون من العرب عن المؤمنين من أهل الكتاب، فالعرب قبل الإسلام لا يؤمنون بالبعث، وأهل الكتاب مؤمنون به، فاستفاد العرب الإيمان بالبعث والمعاد والحساب بهداية القرآن لهم، وتجدد الإيمان بذلك عند أهل الكتاب، واتحد الفريقان مرة أخرى على هداية القرآن، واكتسب كل فريق صفاتٍ تجددت له لم يكن يؤمن بها قبل نزول القرآن، وهذا من هداية القرآن للمتقين، إذ حصل لهم اليقين بكل ما أنزل في القرآن، والإيقان هو غاية الإيمان وإتقان العلم به، إذ ينتفي الشك والشبهة تماما.

(٥/٢) قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾.

هذه الآية الخامسة من سورة البقرة، فيها البشارة للمتقين أصحاب الصفات الست الواردة فيما تقدم من الآيات، جاءت هذه البشارة ثمرة ممارسة تلك الصفات في حياتهم عن قناعة وإيمان صادق، كإيمان أبي بكر وكافة الصحابة ﷺ، فكان باعثهم على الإيمان هو التقوى، ومن هؤلاء مثلا الطفيل بن عمرو الدوسي الزهراني،

وأبو هريرة الدوسي الزهراني، وأكثر من سبعين بيتا من دوس وفدوا على رسول الله ﷺ، وكذلك وائل بن حجر ﷺ قدم من اليمن باحثا عن الإسلام راغبا فيه، ولم يكن مسيلمة الكذاب من أهل التقوى رغم أنه وفد على رسول الله ﷺ مع بني حنيفة لكنه كان يضمر أمرا غير الإسلام، ذلك الأمر هو طلب الملك، فظن أن سبيله إليه دعوى النبوة.

وقد حصلت البشارة للمتقين في هذه الآية بأمرين:

الأول: أنهم في حياتهم في الدنيا على هدى من ربهم، وهو هدى خاص بهم، غير الهدى العام، لحرصهم على مزاولة تلك الصفات، فبها تمكنوا من الهدى، وثبتوا عليه، وسارعوا إلى الزيادة فيه، بطرْق أبواب الخير والسير فيها على صراط مستقيم، هو الهدى الحاصل لهم من ربهم ﷻ.

الثاني: بشارتهم أنهم كما أفلحوا في التزام تلك الصفات في الدنيا فهم أيضا مفلحون في الآخرة، وسيكون لهم ما أعدّ الله ﷻ لعباده المتقين في الآخرة.

ويحسن تنبيه القارئ الكريم إلى أن هذه الصفات الست السالف ذكرها في الآيات، ليست كل صفات المتقين، بل لهم المزيد من الصفات المبثوثة في القرآن الكريم حسب ما يقتضي الحال، وما يليق بالمقام، ومن ذلك أن الله ﷻ أورد جملة من صفاتهم في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1]، فهذه جملة من صفات المتقين وردت في آية واحدة، وفي هذا الصدد آيات عديدة في كتاب الله العزيز تضمنت أنواعا من صفات المتقين، فهم يطرقون

---

1) الآية (١٧٧) من سورة البقرة.

أبواب الخير ويحرصون على ولوجها، فكل صفة من هذه الصفات تمثل نوعا من أنواع الهداية، التي خص الله بها عباده المتقين.

(٢/٦) قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

هذه هي الآية السادسة من سورة البقرة، فبعد أن قدم الله ﷻ الثناء على الصفوة من عباده وهم المتقون، كان لابد من بيان الصنف المقابل فالخير يقابله الشر، والحسن يقابله القبيح، والشيء يعرف قدره بضده فأورد الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بالقرآن الكريم، وهم فريقان: **أحدهما** أظهر عدم الاهتداء بالقرآن، وهم أهل الكفر الصريح الظاهر، **والثاني** أخفى عدم الاهتداء بالقرآن، وأظهر خلاف ما أبطن، وهم المنافقون أخفوا الكفر، وأظهروا ضده وهو الإيمان نفاقا، فاتفق الفريقان على الكفر إعتقادا، فلم يفرق المولى ﷻ بينهما في الحكم، فقد استووا في الكفر، واستووا في عدم الإيمان وقبول الحق، فاستوى عندهم الإنذار وعدمه، لأن صفة الإيمان منفية عنهم بسبب عدم خشيتهم من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٢]، والآيات في كتاب الله العزيز كثيرة في هذا الصدد، بينتْ أن من علم الله ﷻ عن هؤلاء عدم الانتفاع بالقرآن، فلم تكن قلوبهم وعقولهم أرضا خصبة لهداية القرآن الكريم، فكان عدم اهتدائهم بالقرآن لعدم قابليتهم لذلك، وليس بسبب نقص في البيان، فحقت عليهم كلمة الله ﷻ لشدة جهلهم به تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

---

١) من الآية (١٨) من سورة فاطر.

٢) الآيتان (١٠، ١١) من سورة يس.

٣) الآية (٩٦) من سورة يونس.

(٢/٧) قال تعالى:

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

هذه الآية السابعة من سورة البقرة، وهي بيان للعلة التي من أجلها حرموا الهداية أنه لما كان في علم الله ﷻ أنهم لايؤمنون، أوقع الله ﷻ هذا العقاب: منه العاجل، ومنه الآجل:

فالعاجل: أنه جعل قلوبهم وعقولهم مغلقة، وجعل أسماعهم صماء لاتسمع الحق فلا تحصل من القلوب والأسماع استجابة بسبب ذلك الصمم، وعلى أبصارهم حجابا لا ينتفعون بما يرون من الآيات والمعجزات، فصار في حكم من لايصل إلى عقله وقلبه وسمعه وبصره شيء ينتفع به، فأشبه حالهم حقيقة من لا ينتفع بشيء من هذه الحواس، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [١]، فكان سبب ذلك الكفر، وقد ورد لفظ الختم، والطبع، والأكنة في القرآن مسبَّبا عن الإعراض عن الآيات، وعدم الاهتدا بها.

أما الآجل: فهو ما توعدهم الله به من العذاب العظيم في الآخرة، وهو حق لا مرية فيه، فكما وعد المتقين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [٢]، كذلك وعد الذين كفروا بأن لهم عذاب عظيم.

وحينما تُمْعِن النظر تجد أن هذا الذم، فيه مقابلة لذلك الثناء على المتقين في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فاستحق كل منهما ما يليق به، وذلك عدل من الله ﷻ، وهو أحكم الحاكمين.

---

١) الآية (١٥٥) من سورة النساء.

٢) الآية (٥٤) من سورة القمر.

(٢/٨) قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة من سورة البقرة، وهي تشير إلى ذلك الصنف الممقوت الذي هو في ركب الكفر عقديا، ويزعم أنه في ركب المؤمنين خداعا، إنهم المنافقون زعموا في ظاهر الأمر أنهم آمنوا بالله ورسوله، وآمنوا باليوم الآخر وهم كاذبون، كذّبهم الله ﷻ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقد كشف الله ﷻ حقيقة أمرهم ووصفهم بالنفاق فقال تعالى:﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[١]، هذا مصيرهم المحتوم، فالأمر لا يتعلق بعلم نبينا محمد ﷺ، بل بعلم الله ﷻ فلا تخفى عليه خافية.

(٢/٩) قال تعالى:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة من سورة البقرة، وهي المبينة لحقيقة هذا الصنف من الناس، وهم إما مشركون من العرب أبطنوا الشرك وهو كفر، أو من أهل الكتاب أبطنوا البقاء على دينهم والكفر بما جاء به نبينا محمد ﷺ، وأنهم بجهلهم وضلالهم ظنوا أنهم يخادعون الله ﷻ بقولهم للمؤمنين: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم في واقع الأمر يكذبون، وهذا محال في حق الله ﷻ، وإن مرّ شيء منه على الذين آمنوا لكنه ما يلبث حتى ينكشف؛ إما بسبب من المنافقين يعرف به نفاقهم، كقول عبد الله بن أبي ابن سلول ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ ﴾[٢]، أو بوحي من الله ﷻ يكشف أمرهم لرسوله ﷺ والمؤمنين، فهم بما جبلوا عليه من حماقة وجهل زعموا

١) الآية (١٠١) من سورة التوبة .

٢) الآية (٨) من سورة المنافقين.

ذلك، وهم في الحقيقة ما يخدعون إلا أنفسهم بذلك الضلال، وهم لا يعلمون أنه ضلال فقد رأوا سوء عملهم حسنا.

(٢/١٠) قال تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذه الآية العاشرة من سورة البقرة، وهي تصف واقع المنافقين وأن في قلوبهم ميل إلى الكفر فأبطنوه، وأظهروا الإيمان نفاقا، فزادهم الله ميلا لما أختاروا، وتوعدهم بالعذاب الأليم، بسبب دعواهم الإيمان وهم كاذبون، وما داموا على النفاق فإنه يتزايد في قلوبهم على الدوام.

(٢/١١) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية عشرة من سورة البقرة، وهي توضح أن العقلاء من المؤمنين من القرابة وغيرهم تنبهوا لعمل المنافقين أنه من الفساد في الأرض، فقالوا لهم: لا تفسدوا في الأرض، إما شفقة عليهم ورغبة في هدايتهم، وإما إنكارا لفسادهم، وبينت الآية أن من صفات المنافقين زعمهم أنهم على حق، وغيرهم على ضلال، فيزعمون أن فسادهم في الأرض وكذبهم إصلاح، وصلاح المؤمنين وصدقهم إفساد، وهذا من فساد عقول المنافقين، وسوء ما تنطوي عليه ضمائرهم، فأضاعوا أعمارهم في الضلال، وهذا من نتاج المرض الذي حل في قلوبهم، وإذا أمعنت النظر في قول الناصحين لهم: ﴿ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإنك تستظهر منه أن المنافقين لا ينحصر وجودهم في بقعة من الأرض، فهم نبتة سوء قد لا تخلو منها الأرض بأسرها، ولو قُدّر انحسارهم في بقعة من الأرض، فإن فسادهم سيكون مبثوثا فيها، لأن وقوع الفساد في رقعة من الأرض منذر بانتشاره في مجموعها، وصدق الصحابي الجليل

سلمان الفارسي رضي الله عنه حين قال: "لم يجيء هؤلاء بعد"[1]، ومعنى قوله رضي الله عنه"أنهم لم ينقرضوا، بل يجيئون في كل زمان" فسلمان رضي الله عنه لا ينكر ثبوت هذا الوصف لطائفة في زمن النبوة، ولكن لا يرى في الآية حصر الذم فيهم، بل وفي الذين يجيئون من بعدهم[2].

(٢/١٢) قال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية عشرة من سورة البقرة، تؤكد صدق الناصحين لهم في نهيهم عن الفساد في الأرض، وتؤكد أن المنافقين هم المفسدون في الأرض، وقد أفسدوا أنفسهم بما أبطنوا من الكفر والنفاق، وأفسدوا أهليهم وذراريهم إذ يربونهم على المكر والخداع والنفاق، وهم أيضا يفسدون من يستمع لهم من الناس بدعوتهم إلى ضلالهم، فالمنافقون يضلون الناس ولا يلدون إلا فاجرا كفارا، وهذا حكم على الغالب، فقد يكتب الله السلامة لمن شاء من ذراريهم، ولا يقف خطر المنافقين عند هذا الحد بل يتعداه إلى العمل على إفساد المجتمع بأسره، بإلقاء التهم، وبث الغيبة والنميمة لإشعال العداوة بين المؤمنين، وإثارة الفتن، وتحزيب الناس على الباطل، وإيجاد العقبات في سبيل المصلحين، وتأليب الناس عليهم، فيحولوا المنفعة إلى مضرة، فتصبح الرذيلة فضيلة، والعكس عندهم صحيح أيضا، وما أكثر مَن تنطبق عليه هذه الصفات في هذا العصر المليء بالمتناقضات، والذي صح فيه قول الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3]، ولا يَرِد السؤال لِمَ لم يذكر الله ﷻ الجو وهو اليوم ينقل الفساد الواقع في البر والبحر والجو، ومن كل حدب وصوب منها ؟، فليس هذا غائبا عن الله ﷻ فهو بكل شيء عليم، ما كان وما يكون، ولكنه خاطب الناس عند نزول الوحي بما يمكن أن يشاهدوه أو يبلغهم العلم به، وما زادتنا هذه التقانة في الفضائيات اليوم إلا إيمانا وتسليما بأن الله ﷻ بكل

---

١) المحرر الوجيز ٢٧/١.

٢) المحرر الوجيز ٢٧/١.

٣) الآية (٤١) من سورة الروم.

شيء عليم، ما كان وما يكون، وما هذا الصراع المتزايد اليوم بين أهل الحق وأهل الباطل سوى امتداد لذلك الصراع بينهما من عهد النبوة الذي قُدِّر فيه ظهور المفسدين في الأرض، لتجري سنة الله ﷻ في الصراع بين الحق والباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويحكم بين عباده وهو أحكم الحاكمين.أما قوله تعالى وصفا للمنافقين: ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فهو وصف لهم بالغباء وعدم الفطنة إذ لم تشعر عقولهم بفسادهم مع أنه مما يدرك بأقل نظر، ولم يشعروا بما عرف المؤمنون من الحق، ولغفلتهم لم تدرك عقولهم ما أجرى الله ﷻ من الآيات والمعجزات الدالة على صدق نبينا محمد ﷺ فيما دعا إليه، مع أنه يدرك بأبسط المشاعر فضلا عن التأمل والنظر.

(٢/١٣) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة عشرة من سورة البقرة، وهي توضح عدم قبول المنافقين نصح الناصحين من القرابة وغيرهم، فإذا نُصحوا باعتناق الإيمان كما اعتنقه المؤمنون الصادقون، أجابو في سخرية وكذب ووصفوا المؤمنين بأنهم سفهاء، والواقع أن المنافقين هم السفهاء، وهم لا يعلمون صدق المؤمنين إذ لم تدركه عقولهم، فكانوا سفهاء في الأقوال والأعمال، وإذا أمعن القارئ النظر في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ وجد فيه انتصارا من الله ﷻ للمؤمنين لأنهم على الحق الذي لا مرية فيه، فقابل قول المنافقين الباطل، بقوله الحق تثبيتا لعباده المؤمنين، ودفاعا عنهم.

(٢/١٤) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذه الآية الرابعة عشرة من سورة البقرة، لا زال السياق القرآني الكريم يسرد لنا صفات المنافقين، ومنها الخداع والمراوغة في أكمل صورها، فإذا التقوا الذين آمنوا زعموا

أنهم مؤمنون مثلهم، قالوا ذلك تقية: إما خوفا من كشف أمرهم للمؤمنين فينالهم ما يستحقون من العقاب، وإما للمكر بالمؤمنين لاستلال أخبارهم وكشف نواياهم خدمة لأعداء المؤمنين، وهم قوم المنافقين وقادتهم كعبد الله بن أُبي بن سلول، وقد سماهم الله ﷻ شياطينهم، جريا على لسان العرب في تسمية كل متمرد شيطانا، سواء كان من الإنس أو الجن ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1] ، ومنه قول جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزلي * وكن يهوينني إذ كنت شيطانا**

وفي الدواب قول عمر ﷺ: ما حملتموني إلا على شيطان[2]، لبرذون ركب عليه فتبختر به.

وهذا بيان لأقوال وأفعال المنافقين مع المؤمنين، وهي صفات تلازم المنافقين في كل زمان، فهم لا يقفون عند حد من الكذب والخداع، فشأنهم اللؤم والسفه والتآمر على المؤمنين، وهم في الحقيقة لخورهم وخسة ما يحملون من أفكار لجؤوا إلى هذه الأقوال والأفعال، فهم مذبذبون في هلع من المؤمنين وذل من قومهم وقياداتهم، فيزعمون الإيمان عند ما يلاقون المؤمنين، وينطقون بما في قلوبهم عند قومهم وقياداتهم، ويؤكدون سخريتهم بالمؤمنين ومما جاء به نبينا محمد ﷺ، فلا يشك قومهم في عدم إيمانهم بما آمن الناس.

---

١) من الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

٢) تفسير ابن كثير ١١٥/١.

(٢/١٥) قال تعالى:

﴿ **ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴿١٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة عسرة من سورة البقرة، وهي ضمن سياق الحديث عن المنافقين، ونصرة الله ﷻ لعباده المؤمنين، يزعم المنافقون أن سخريتهم تلحق الضرر بالمؤمنين وبما نزل من الحق، والحقيقة أن السخرية من الله ﷻ واقعة عليهم ولائقة بهم، يقرر الله ﷻ ذلك دفاعا عن المؤمنين وما آمنوا به، ويمهل المنافقين ليزداد عمى قلوبهم عن الحق بطغيانهم، فالطبع على القلوب، وحرمانها مما ينفع عقاب عاجل في الدنيا، لترددهم وحيرتهم في التمييز بين الحق والباطل، فقوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ يقابل هذه الآية والآية قبلها ﴿ **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ وإذا أُمعن النظر في آيات الثناء على المؤمنين يتضح أن المدافع عنهم هو الله ﷻ وليُّهم وهاديهم وناصرهم، فقد وعد بذلك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ﴾[١]، وقال ﷻ: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ** ﴾[٢].

(٢/١٦) قال تعالى:

﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ** ﴿١٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة عشرة من سورة البقرة، وهي توضح حال أولئك الناس الذين يقولون ﴿ **ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[٣]، فهم جماعة اجتمعت فيهم صفاتٌ حاربوا بها الله ورسوله والمؤمنين، وبرز فيهم شر تلك الصفات، فأصبحوا معروفين يشار إليهم بالبنان، لذلك أشار الله إليهم في هذه الآية لبيان فساد صفقتهم، فقد ابتاعوا الضلالة وخسروا الهدى، فما كان عملهم رابحا، وما أصابوا الرشد والهدى في

---

١) الآية (٣٨) من سورة الحج.

٢) الآية (٥١) من سورة غافر.

٣) الآية (٨) من سورة البقرة.

ذلك، لحرصهم على الضلالة، وزهدهم في الهدى، فإن قيل: كيف ابتاعوا الضلالة بالهدى، وهم في الأصل غير مؤمنين؟! فالجواب: لما خالطوا المؤمنين وأظهروا الإيمان حصل لهم حال تشبه المؤمنين تلبسوا بها كالمهتدين، وإذا خلوا إلى قومهم وقياداتهم خلعوا ذلك الزعم وأظهروا حقيقة ضلالهم، فحصلت لهم صورة ابتياع الضلالة بالهدى.

(٢/١٧) قال تعالى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة عشرة من سورة البقرة، بعد أن ذكر الله ﷻ بعض صفات ذلك الصنف من الناس الذين يقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، أمتع الله ﷻ عباده المؤمنين بالمزيد من كلامه تعالى عنهم، لتتكشف حقيقتهم ويُعلم حالهم في الدنيا كما هو معلوم في الآخرة، فضرب لهم مثلا بالذين استوقدوا نارا في ظلام شديد، فلما أضاءت النار ما حولهم أذهب الله ﷻ ضوءها، فأصبحوا في ظلمات وقد كانوا قبل ايقاد النار في ظلمة، لكن بعد انتشار الضياء حولهم وذهابه فجأة صارت الظلمة ظلمات، فإن من يكون في شيء من الضياء ثم يفقده فجأة يشتد عليه الظلام، وهذا تصوير محسوس لصفات المنافقين، فقد شبه تلك الصفات المعنوية بهيئة محسوسة لزيادة اليقين بقوة ما هم فيه من الضلال. فالأنفس أكثر تأثرا بالمحسوس، وهو أدق في تصوير المعنويات، ونفي الله ﷻ عنهم الإبصار بعد ذهاب النور يفهم منه أنه في الظلمة الأولى قبل استيقاد النار يمكن الحصول على شيء منه، وهو مالم يحصل بعد ذهاب النور، فوقعت هذه الأية بيانا دقيقا لحالهم في الآية السابقة، وإذا أُمعن النظر في هذه الآية يظهر فيها أيضا تشبيه حال المنافقين وهم عند رسول الله ﷺ بحال من استوقد نارا فأضاءت ما حوله، وتشبيه خروجهم من مجلسه على النفاق بحال من ذهب عنه النور واشتدت عليه الظلمات،

---

١) الآية (٨) من سورة البقرة.

فيتحصل لمن علم حالهم وصفاتهم ما يتحصل لمن نظر حال مستوقد النار في ظلام شديد، فيذهب عنه ضوؤها فيكونون سواءً بسوا في التخبط والعمى، فيكون انطفاؤ النور على الطرفين أشد وأنكى.

(٢/١٨) قال تعالى:

﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة عشرة من سورة البقرة، تصف المنافقين بعد سماعهم كلام رسول الله ﷺ فلم يعوه ولم ينتفعوا به، واستحبوا العمى على الهدى، فقد عطلوا أسماعهم عن قبوله، فاستحقوا الوصف بالصمم، وعطلوا ألسنتهم عن النطق بالحق فاستحقوا الوصف بالبَكم، وعطلوا أبصارهم عن النظر في الآيات والمعجزات الدالة على صدق ما جاء به محمد ﷺ، فهم كالعُمي، والعمى المراد به عمى البصيرة وليس عمى العين، ومن كانت هذه صفته فلا أمل أن يقبل حقا، أويهتدي بنور، فلم ينتفعوا بشيء من تلك الحواس، وهذا ما بينه تعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[١].

(٢/١٩) قال تعالى:

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة عشرة من سور البقرة، وفيها تصويرٌ آخر لما جاء به نبينا محمد ﷺ من الحق والهدى، فالصيب المطر، وهو مثل لذلك الهدى، لأن فيه حياة الأرواح، كما أن في المطر حياة أرواح وأجسام المخلوقات كافة من بشر، ونبات وشجر، ودواب وطيور وأنعام.

وقد ثبت بيان هذا في حديث أبي موسى ﷺ وهو حديث متفق عليه، حيث قال ﷺ: **« إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها**

---

١) الآية (٢٦) من سورة الأحقاف.

طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »١.

وفي الآية تشبيه حال المنافقين في ترددهم وانزعاجهم وخوفهم وقلقهم مما جاء به نبينا محمد ﷺ من الحق، بتلك الصورة المرعبة في مطر شديد يهوي من السماء، فيه ظلمات شديدة، ورعد قوي الدوي، وبرق شديد اللمعان، كان حال المنافقين عند سماع ما يتلى عليهم من الهدى كحال من هو في ذلك الوصف العظيم حقيقة لا خيالا، فإذا مَن في الصيب يضعون أصابعهم في أسماعهم للتخفيف من دوي الصواعق، لخوفهم من الهلاك من شدتها، لأن الظلمات والرعد والبرق والصواعق كل واحد منها يخيف فكيف بها مجتمعة، فكذلك المنافقون يفعلون نفس الصورة عند سماع الحق، فمن شبَّههم بأحد المثلين فقد أصاب، وبالإثنين يكون مصيبا أيضا، وكلا المثلين متحقق في المنافقين، وهو أمر مثبت لهم من عليم خبير، فهم متفننون في غيهم ونفاقهم وضلالهم، وهم في هذه الحال في قبضة الله لا مفر لهم منه فهو محيط بهم.

(٢٠/٢) قال تعالى:

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

هذه الآية العشرون من سورة البقرة، فبعد ذلك الاضطراب من المنافقين الشبيه باضطراب دوي الصيب لما فيه من الرعب، يصور الله ﷻ لنا شَبه المنافقين بأولئك الواقعين في الصيب وهم في هول ورعب، وفزع وحيرة، فإذا أضاء لهم البرق تسارعوا هاربين، وإذا أظلم عليهم وقفوا خائفين هلعين، وكما أن البرق يكاد يخطف أبصار

١) أخرجه البخاري ومسلم.

أصحاب الصيب، فإن نور القرآن يكاد يخطف أبصار المنافقين، لا لضرر منه ولكن لشدة كرههم له، لأن بصائرهم لم تتقبله فهي في غاية الضعف، والقرآن نور والنور يزيد بصائرهم عمى، فهم كالخفافيش كلما زاد الضياء عليهم زاد عليهم العمى، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[1]، وإذا أُمعن النظر في المثل فإنه يتضمن ما فيه فائدة للطرفين المشبَّه والمشبَّه به فأصحاب الصيب يستفيدون من إضاءة البرق خطوات يتحركون فيها طلبا للنجاة، والمنافقون يستفيد من القرآن ما كان موافقا لهواهم، كالنكاح، والقسمة من الغنائم والإرث، وعصمتهم من القتل، كل ذلك يستفيدونه بحكم القرآن مع كفرهم في الباطن، ولم يحرم المنافقون من رحمته تعالى، إذ أبقى لهم نعمة السمع والبصر، مع قدرته على الذهاب بهما، وحرمانهم لقاء نفاقهم وكفرهم.

ويجدر بنا وقد مضى في الآيات السابقة الكلام على بعض صفات المنافقين أن نذكر فِرق المنافقين على عهد رسول الله نبينا محمد ﷺ، وإن كان لا يخلو منهم زمان ولا مكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالمنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ هم ثلاث فرق:

فرقة من أهل يثرب، وفرقة من اليهود الذين أظهروا الإسلام، وفرقة من الأعراب المجاورين لهم، وقد ورد في حديث كعب بن مالك ﷺ أن المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك بضعة وثمانون، وقد عُرف من أسمائهم عبدالله بن أُبي بن سلول، وهو رأس المنافقين، والجد بن قيس، ومعتب بن قشير، والجلاس بن سويد الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[2]، وعبد الله بن سبأ اليهودي، ولبيد بن الأعصم، من بني زريق حليف اليهود، والأخنس أُبي بن شريق الثقفي، كان يظهر الود لرسول الله ﷺ والإيمان

١) الآية (١٩) من سورة الرعد.
٢) الآية (٧٤) من سورة التوبة.

بنبوته، وهو منافق يبطن الكفر، وفيه وفي كل منافق قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾١، وزيد بن اللصيت القينقاعي، ووديعة بن ثابت، من بني عمرو بن عوف، ومخشن بن حمير الأشجعي، اللذين كانا يثبطان المسلمين، عن غزوة تبوك، وقد قيل: إن زيد بن اللصيت تاب وحسن حاله، وقيل: لا، وأما مخشن فتاب وعفا الله عنه، وقتل شهيدا يوم اليمامة، وقد ذُكر قومُ معتب بن قشير الأوسي، من بني عمرو بن عوف في المنافقين، وهذا باطل لأن حضوره بدرا يبطل هذا الظن بلا شك، ولكنه ظهر منه يوم أحد ما يدل على ضعف إيمانه فلمزوه بالنفاق، فإنه القائل يوم أحد: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا ﴾٢، ومن المنافقين أبو عفك، أحد بني عمرو بن عوف، ظهر نفاقه حين قَتل رسول الله الحارث بن سويد بن صامت، وقال شعرا يعرض بالنبي ﷺ، وقد أمر رسول الله بقتل أبي عفك، فقتله سالم بن عمير، ومن المنافقات عصماء بنت مروان الخطمية، من بني أمية بن زيد، نافقت لما قتل أبو عفك، وقالت: شعرا تعرض بالنبي ﷺ، قتلها عمير بن عدي الخطمي، وقال له رسول الله ﷺ: « **لاينتطح فيها عنزان** »٣ ومن المنافقين بشير بن أبيرق، كان منافقا يهجو أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد أحدا، ومنهم بشر المنافق، كان من الأنصار، وهو الذي خاصم يهوديا فدعا اليهودي بشرا إلى حكم النبي ﷺ فامتنع بشر، وطلب المحاكمة إلى كعب بن الأشرف، وهذا هو الذي قتله عمر، وقصته في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾٤، وعن ابن عباس رضي الله عنهما "أن المنافقين على عهد رسول الله كانوا ثلاثمائة من الرجال، ومائة وسبعين من النساء".

---

١) الآية (٢٠٤) من سورة البقرة.

٢) الآية (١٥٤) من سورة آل عمران.

٣) مسند الشهاب حديث (٨٥٧).

٤) الآية (٦٠) من سورة النساء.

فأما المنافقون من الأوس والخزرج فالذي سن لهم النفاق وجمعهم عليه هو عبدالله بن أبي بن سلول، حسدا وحنقا على الإسلام، لأنه قد كان أهل يثرب بعد أن انقضت حروب بعاث بينهم، وهلك جل ساداتهم فيها، قد اصطلحوا على أن يجعلوه ملكا عليهم، ويعصبوه بالعصابة.

قال سعد بن عبادة ﷺ للنبي ﷺ: "اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك"[1].

وأما اليهود فلأنهم أهل مكر بكل دين يظهر، ولأنهم خافوا زوال شوكتهم من جهات الحجاز، وأما الأعراب فهم تبع لهؤلاء ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]، لأنهم يقلدون عن غير بصيرة، وكل من جاء بعدهم على مثل صفاتهم فهو لاحق بهم فيما نعى الله ﷻ عليهم، ولا يختص ذلك بزمان دون آخر.

(٢/٢١) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والعشرون من سورة البقرة، إعلم أن الخطاب في القرآن الكريم إذا ورد بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فالمراد به كفار قريش بادئ ذي بدء ومَن والاهم، وإذا ورد بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فالمراد به المؤمنين خاصة، ولكن في الآية عود على بدء فقد بدأ السورة بالكلام على المتقين، وذكر أبرز صفاتهم، وفي هذه الآية الكريمة يخاطب الله عباده كافة المؤمنين وغيرهم، باسم شامل لهم جميعا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا متوجه إلى الناس كافة مَن آمن ومَن لم يومن، لأنهم مخاطبون بعبادة الله ﷻ

---

١) أخرجه البخاري حديث (٤٥٦٦).
٢) الآية (٩٧) من سورة التوبة.

وحده لا شريك له، فجاء السياق مذكِّرا الطرفين في هذه الآية ببرهانين على أحقية العبادة له وحده لا شريك له، وهي تتفق مع أول كلمة ينطق بها الإنسان ليكون من المسلمين، شهادة ألا إله إلا الله، فأورد فيها معنى الطرف الثاني وهو الإثبات، وفي الآية التي تليها معنى الطرف الأول وهو النفي، فاكتمل في الآيتين معنى لا إله إلا الله نفيا وإثباتا، فالذي لا يخلق لا يكون إلها، ولا يستحق أن يعبد، ولذلك قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [١].

البرهان الأول: أن الله ﷻ هو الرب والخالق وحده لا شريك له، فذكَّر عباده بذلك فقال: ﴿ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾.

البرهان الثاني: فيه بيان لشمول الخلق لبني الإنسان فقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فالخلق ليس قاصرا على المخاطبين بل يشمل كل من كان قبلهم، وعند التأمل في البرهان الأول يجد المتأمل أنه دليل قوي على البرهان الثاني، فخلق الشيء بادئ ذي بدء دليل قاطع على سهولة إعادة خلقه مرة أخرى، وهذا ما ورد تأييده في آيات من كتاب الله العزيز كقوله تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [٢]، وقوله ﷻ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [٣] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [٤] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [٥]، وغير هذا من آيات الكتاب العزيز، ثم ختم هذا التذكير بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي لتحصل لكم التقوى بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، فيحجزكم ذلك عن عبادة غيره تعالى.

---

١) الآية (١٧) من سورة النحل.

٢) الآية (٥١) من سورة الإسراء.

٣) الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء.

٤) الآية (٢٧) من سورة الروم.

٥) الآية (٧٩) من سورة يس.

(٢/٢٢) قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والعشرين من سورة البقرة، وفيها **البرهان الثالث** على أن الله ﷻ هو الخالق وحده لا شريك له وهو إلتفات من التذكير بخلق الإنسان إلى خلق ما هو أعظم من خلق الإنسان، وهو خلق السماوات والأرض، ولا يشك في ذلك ذو عقل، ومع ذلك أكد الله تعالى هذه الحقيقة للناس في أكثر من آية في الكتاب العزيز فقال: **﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾** ١، وقوله تعالى: **﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾** ٢ وغيرها من الآيات في الكتاب العزيز، وذكَّر عباده في هذه الآية بأنه جعل الأرض صالحة لقرار المخلوقات عليها، وذلك في قوله تعالى: **﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾** ولولا قدرة الله ﷻ ما حصل لمخلوق استقرار عليها، ولذلك قال تعالى: **﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾** ٣، وقوله تعالى: **﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾** ٤، وعبر في آيات أخر بأنها ذلول، وأنها بساط ومهاد، والتعبير بالقرار والفراش والذلول والبساط والمهاد كل ذلك يدل على صلاحيتها لاستقرار المخلوقات، فالمتأمل للآيات الواردة في الكتاب العزيز يعلم أن الله أراد تيسير الحياة للمخلوقات في هذا الكوكب، وأنه تعالى قدّر كل ما تحتاجه المخلوقات فقال تعالى: **﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾** ٥، فجعل فيها رواسي وهي الجبال لتوازنها فلا تضطرب بالمخلوقات، قال

١) الآية (٥٧) من سورة غافر.
٢) الآية (٢٧) من سورة النازعات.
٣) الآية (٦٤) من سورة غافر.
٤) الآية (٤٨) من سورة الذاريات.
٥) الآية (١٠) من سورة فصلت.

تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١] ومعنى تميد تضطرب، فلا تضطرب بمن عليها، والآيات في هذا الصدد كثيرة في كتاب الله العزيز، وقدّر فيها من الأرزاق والأقوات ما يكون عيشا هنيئا لكل مخلوق عليها، والعجيب أن الناس منهم الكثيرون غافلون عن هذة القدرة الإلهية العظيمة، وكثيرون لا يؤمنون بأن لا حياة للمخلوقات في غير هذا الكوكب، وخرجوا محاولين البحث عن حياة في موقع خارج عن الأرض، ولو فقهوا كلام الله المفصل عن هذا الكوكب ما أتعبوا عقولهم وهدروا طاقاتهم في البحث عن حياة للإنسان أو: غيره في غير الأرض، ومَن يتأمل الآيات بإيمان وتجرد يظهر له الحق جليا فالله تعالى يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[٢]، ويقول ﷻ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ

---

١) الآية (١٠) من سورة لقمان.

٢) الآيات (١٠ . ١٦) من سور النحل.

٣) الآية (١٠) من سورة لقمان.

٤) الآيتان (٥، ٦) من سورة الحج.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ ١، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ ٢، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾ ٣، وجعل فيها من أنواع الثمار، لغذاء الإنسان وحياته، وأنواع الشجر والنبات لحياة الحيوان، وفي كل ذلك منافع كثيرة للإنسان والحيوان، وللتوازن البيئي، كل هذا من أجل قرار المخلوقات، والإنسان هو المعني في المقام الأول؛ لأن ذلك كله له ومن أجله، والآيات كثيرة في الكتاب العزيز، توضح بجلاء أن الأرض هي دار القرار للمخلوقات في الحياة الأولى، وأنه لا قرار لهم في سواها من الكواكب، فقد ساق الامتنان بهذه النعم ضمن الحديث عن الأرض، ولو كانت هذه النعم في كوكب آخر يمكن أن يعيش فيه الإنسان كعيشه في الأرض لذكر الله ﷻ ذلك امتنانا ضمن الحديث عن الكوكب ذاته، إذًا لا قرار بعد الأرض إلا في الآخرة، ولو قدّر الله ﷻ ذلك في غيرها من الكواكب، لأمكن منه وامتن به على عباده، كما امتن عليهم بما هيأ لهم في الأرض، ومحاولة الحصول على حياة مستقرة وآمنة في كوكب غير الأرض إنما هو جنون فكري وعدم يقين بما في الكتاب العزيز من حقائق الخالق والمخلوق، نعود لنذكّر بأن الآية التي نحن بصدد فَهْمها خُتمت بالنهي عن اتخاذ الأنداد، وهذا هو الطرف الأول من النفي في الشهادة، وتقدم بيان الإثبات في الآية السابقة.

---

١) الآيتان (١٢، ٢٠) من سورة لحجر.

٢) الآيات (٦ . ١١) من سورة ق.

٣) الآيات (١٠ . ١٢) من سورة الرحمن.

(٢/٢٣) قال تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والعشرون من سورة البقرة، بعد أن بين الله تعالى في أول السورة أقسام الناس وصفاتهم، وأتبع ذلك بدعوتهم إلى عبادته وحده لا شريك له، مقيما لهم البراهين الدالة على استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، إلتفت بالكلام عن ما هو واقع حقيقة في صدورهم، عودا على ما بدأ به في أول السورة حيث قال عن الكتاب العزيز: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ وهذا كشف لما في قلوبهم من الشك، بدليل أنه تعالى نفى أن يتطرق الشك إلى القرآن وهو المنزل من عليم حكيم، فالقرآن اسم للكلام الموحى إلى نبينا محمد ﷺ، وهو جملة المكتوب في المصاحف، المجزأ في سور عدتها مائة وأربع عشرة سورة، أولها سورة الفاتحة، وآخرها سورة الناس، فالقرآن اسم عَلَم على الكتاب العزيز، لا يجوز إطلاقه على غيره، وقد سماه الله بذلك فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[1] وكذلك فيما حكى عن الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[2] ولم يصرح باسم عبده المكرم بهذا التنزيل، لعلم قومه به ﷺ، وقد صرح باسمه في أكثر من آية فقال تعالى: ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾[4]، بعد هذا أورد الله ﷻ التحدي لأولئك الشاكين فيما أنزل وهم قريش أولي الفصاحة والبيان، أن يثبتوا صحة شكهم في القرآن أن يكون من عند الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وهذا هو **التحدي الأول**، أن يعارضوا

---

١) الآية (٩) من سورة الإسراء.

٢) الآية (٣٠) من سورة الفرقان.

٣) الآية (٢) من سورة محمد.

٤) الآية (٢٩) من سورة الفتح.

القرآن بسورة تكون مثله سواءً بسواء، من حيث البيان والفصاحة والإعجاز، وغير ذلك من خصائص الكتاب العزيز، ولو كانت المعارضة بسورة قصيرة قليلة المباني واسعة المعاني كسورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأنَّى لهم ذلك، **والتحدي الثاني**: أن يحشدوا مَن يشهد معهم على زعمهم، ويعينهم على تحقيق ما زعموا، وتحداهم بهذا في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] ولم يكن هذا التحدي هو الوحيد لفصحاء قريش، بل هذا هو التحدي الأسهل بالنسبة للتحدي بعشر سور، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] وكذلك تحداهم أن يأتوا بمثله سواءً بسوا قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾[3] وقد أورد الله ﷻ الخبر اليقين عن ذلك التحدي المثقَّل منه والمخفَّف بأنهم لا يأتون بمماثل له فقال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4]، وعند ما يتأمل الناظر في الآيات التي ورد فيها التحدي بأنواعه يجد أنه كان بمكة فالسور التي ذكر فيها التحدي مكية، عدا سورة البقرة فمدنية ورد فيها إعادة لنوع من التحدي سبق أن ورد في سورة مكية، فظهر عجز قريش، وعدم صدقهم فيما زعموا.

(٢/٢٤) قال تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

هذه الآية الرابعة والعشرون من سورة البقرة، وهي تختم ذلك الأسلوب الحواري المبنى على التحدي وقوة البرهان، وبما أن النتيجة الحتمية عدم قدرة القوم على فعل شيء

---

١) الآية (٣٨) من سورة يونس.

٢) الآية (١٣) من سورة هود.

٣) الآية (٣٤) من سورة الطور.

٤) الآية (٨٨) من سورة الإسراء.

مما عُرض عليهم، وقد نفى الله ﷻ نفيا قاطعا أن يفعلوا شيئا من ذلك، مع أنه قد سهل لهم التحدي، فسجلوا عجزهم المطلق عن ذلك كله القليل منه والكثير، سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [1] قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بشر.

ولذلك كان القرآن المعجزة الكبرى لنبينا محمد ﷺ لأنه تحدى به العرب، وعجزوا عن معارضته، وهو مما عُلم بالضرورة، لذلك تحول الخطاب إلى توجيههم إلى ما يجب عليهم فعله لنجاتهم مما أعدَّ الله ﷻ من العذاب للمخالفين لما شرع، فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بين تعالى نتيجة عنادهم أنهم كفروا ولم يستجيبوا لصوت الحق، فمآلهم إلى النار التي توقد بالكافرين من الناس، وبالحجارة لشدة حرها وطلبها المزيد من الوقود فجعلت الحجارة وقودا مضافا لمن استحق دخولها من الناس، والنار في الأصل خُلقت وأُعدّ ما فيها من العذاب لمن كفر بالله ﷻ من البشر، وكان حقا على العرب أن يؤمنوا لمّا ظهر عجزهم، وحقا عليهم اتقاء النار، وليس هذا خطابا خاصا بالعرب في ذلك الوقت بل هو للناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والنار مأوى كل من ختم الله على قلبه، وعلى سمعه، وجعل على بصره غشاوة، وهذا أمر لازم لمن يدخل في هذه المسيرة الإيمانية إما التصديق والعاقبة الجنة، أو التكذيب والعاقبة النار.

(٢/٢٥) قال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

١) الآية (٩٠) من سورة النحل.

هذه الآية الخامسة والعشرون من سورة البقرة، تُصور لنا أن المخاطبين بوجوب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له هم بنوا آدم، وكل من أدرك نبوة محمد ﷺ، فالخطاب متوجه إليه، لأنه ﷺ خاتم الأنبياء، والقرآن خاتم الكتب السماوية، والإسلام خاتم الأديان السماوية، ولا عذر لأحد من الناس بَلَغته دعوة الإسلام ولم يجب، ولذلك قام **البرهانان**: الحسي بالمشاهدة، والنظري بالتحدي، لذلك كان إيراد البشارة للمؤمنين عقب ذلك تثبيتا لإيمانهم، وقد آمنوا وعملوا ما كلفوا به من الطاعات، كالمداومة على الصلاة، وإخراج الزكاة، والصدقة العامة مما رزقهم الله ﷻ، بأن لهم جنات تجري الأنهار خلالها، دائمة لا تغيض ولا تنقطع أبدا، وفيها من الثمار ما تشابه في اللون والشكل، واختلف في الطعم والرائحة، فليست كثمار الدنيا، ولا كطعومها، فقد يتفق الاسم ويختلف النوع والطعم، ومع هذا النعيم العظيم، أضاف بشارة أخرى من مثل ما كان لهم في الدنيا من الأزواج، واختلف النوع في الجنة، أزواج مطهرة من صفات وأحوال الأزواج في الدنيا، فلا أذى ولا دنس، ولا سأم ولا كدر، نظيفات من كل ما ابتلي به نساء الدنيا، من العوارض، ورداءة الأخلاق والطباع، فالفرق بين النوعين كالفرق بين الدارين، فليست الآخرة كالأولى قطعا، وقد كتب الله ﷻ لهم الخلود في ذلك النعيم، وللكافرين عذاب أليم.

(٢/٢٦) قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

هذه الآية السادسة والعشرون من سورة البقرة، سَخِر الكفار من ضرب المثل في القرآن بالبعوضة، والذباب والعنكبوت، وقالوا: هذه أشياء حقيرة، ويتساءلون فيما بينهم، ماذا أراد الله بهذا مثلا، وما كان ذلك منهم إلا عن جهل بما في خلق هذه الكائنات من أسرار، فرد الله ﷻ عليهم أنه لا يستحْي من ذكر شيء خلقه وعلم ما فيه من المعجزات، وهذا المخلوق الضعيف في نظرهم لو اجتمع له كل من في

الأرض على تخليقة على الصفة التي خلقه الله ﷻ عليها، لعجزوا عن خلق خلية واحدة مما فيه، فضلا عن كمال خلقه، وهنا يدرج الله ﷻ الثناء على المؤمنين فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ لأنهم آمنوا بأن الله على كل شيء قدير، وأن نبوة محمد حق، وأن القرآن صدق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة، ويعقّب الله ﷻ بذكر حال الكافرين بنبوة محمد ﷺ، وبكون القرآن من عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ هكذا تساءل الذين كفروا أجابهم الله تعالى فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ ذلك المثل الذي سخِر منه الذين كفروا ضل بسببه كثير من الناس، وأهتدى بسببه كثير منهم، ولكونه حقيقة لا مرية فيها، فانتفعوا بما تضمن من بيان الحق، ولم يضل به الا الذين خرجوا عن الصواب وفسقوا عن أمر ربهم، ولم يستجيبوا له لأنهم لم يعقلوه، ولم يعرفوا ما فيه من الحقائق، ولذلك تحدى البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني، فلبّسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله ﷻ، ليصلوا بذلك التلبيس إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله ﷻ، بإلقاء الشك في نفوس الناس، ولذلك قرر تعالى: أن ما يرد من مثل فهو هداية للمؤمنين، لأن الله ﷻ بصّرهم بحقائق القرآن، وهو ضلال لغيرهم، لأن الله طبع على قلوبهم أن يفقهوه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ومن الفاسقين الكفار عموما، ولذلك عقّب بيان بعض صفاتهم.

(٢/٢٧) قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ .

هذه الآية السابعة والعشرون من سورة البقرة، تضمنت **الصفة الأولى** التي إذا تأملها الناظر وجدها من أبرز صفات اليهود، فهم شديدوا الحذر والغلو في مدلولات

الألفاظ، ومنهم تعلم الآخرون، أما **الصفة الثانية** لعموم الفاسقين، أنهم يقطعوا كل ما فيه خير وصلاح المجتمعات قال تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ كالإيمان بالرسل، وصلة الأرحام، وموالاة المؤمنين، وكل ما فيه خير وفلاح، **والصفة الثالثة:** أن الفساد في الأرض دأبهم وديدنهم، فلا تحين فرصة لفتنة إلا سعوا إليها، واستثمروا ما فيها من ضرر وفساد، قال تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبعد بيان بعض صفات الفاسقين، أوضح ثمرة ما أقدموا عليه من عمل، أنهم لم يحصدوا منه إلا الخسران المبين، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم استبدلوا الوفاء بعهد الله ﷻ بالنقض، واستبدلوا ما أمر الله ﷻ بوصله بالقطع، واستبدلوا الصلاح بالفساد في الأرض، فحل عليهم العقاب، وليس لما عملوا ثواب، كما توعدهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1] هذه من صفات الفاسقين: من اليهود والنصارى، والمشركين والمنافقين، وقد وصف الله ﷻ المؤمنين بضد هذه الصفات فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

(٢/٢٨) قال تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

هذه الآية الثامنة والعشرون من سورة البقرة، ولا زال سياق القرآن الكريم في أسلوب حواري بين الخالق والمخلوق، وإذا تأمل الناظر الآية الكريمة وجدها تتضمن شفقة من الخالق ﷻ الغني عمن خلق، ورحمة بالمخاطبين، فيسوق لهم من البراهين

١) الآية (٢٥) من سورة الرعد.

٢) الآيات (١٩ . ٢١) من سورة الرعد.

الحسية والعقلية، ما تُرجا به هدايتهم، وما تقوم به عليهم الحجة، تسوق الآية الكريمة سؤالا استنكاريا، لافتة به الأنظار إلى التدبر فيما يقال، وذلك في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ وقد يأخذهم العجب المخاطبين، فيتساءلون، كيف كنا أمواتا ؟!، أمر عجيب هذا السؤال في أنظارهم، وقول الله ﷻ هو الحق الذي لا مرية فيه، فقد يُقرون بذلك إذا ما رزقوا التوفيق وتأملوا بقية الآية ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فإن فيهما إماتتين، وإحياءتين:

فالإماتة الأولى: كونهم نُطَفاً وعَلَقاً ومُضَغاً، وهذه وإن كان فيها شيء من الحياة ولاسيما في النطف، فهي حياة محدودة في حكم الموت، لاختلافها كليا عن الحياة بعد التخلق ونفخ الروح.

والإحياءة الأولى: نفخ الروح فيهم وهم أجنة بعد التخلق، وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم.

والإماتة الثانية: موتهم عند انقضاء أعمارهم في الدنيا بواسطة ملك الموت.

والإحياءة الثانية: بعثهم من قبورهم أحياء يوم القيامة، وأشار بقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى يوم القيامة يوم الجزاء والحساب، وقد ورد مزيد بيان في قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]، وهذا من الأدلة على كمال قدرته ﷻ، ولزوم الإيمان به، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، وإذا تأمل الناظر في الآية الكريمة، يجد أن الأمر فيها متوجه إلى المشركين، ولاسيما أنه تقدم النداء بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ فاليهود لم يكفروا بالله فهم أهل كتاب، ولم ينكروا الموت ولا البعث، وكذلك النصارى، وهم الذين على الدين الصحيح، قبل حدوث التحريف فيما نزل إليهم.

---

١) الآية (٢٦) من سورة الجاثية.

(٢/٢٩) قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والعشرون من سورة البقرة، وهي في سياق التدليل على الخالق وحده لا شريك له، وفيها الامتنان من الله ﷻ على خلقه بأن ما خلق لهم في الأرض هو مسخر لهم، مع ما فيه من النعم العظام، في ذلك دلالة واضحة لأولي الألباب على وحدانيته ﷻ واستحقاقه لأن يعبد وحده لا شريك له، ومن يمعن النظر في الآية يجد فيها الدلالة ظاهرة على أن ما في الأرض جميعا خلق بالفعل قبل السماء، وليس الأمر كذلك فقد بين في قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[1]، أن المراد التقدير، أي أنه قدر ذلك، وأن السماء كانت مخلوقة قبل ذلك قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[2]، وقد أوضح هذا شيخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله فقال: المراد بخلق ما في الأرض جميعا قبل خلق السماء الخلق اللغوي: الذي هو التقدير، لا الخلق بالفعل: الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقا، ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ * ض القوم يخلق ثم لايفري**

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير، أنه تعالى نص على ذلك بقوله: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[3] ثم قال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[4].

---

١) من الآية (١٠) من سورة فصلت.

٢) الآية (١١) من سورة فصلت.

٣) من الآية (١٠) من سورة فصلت.

٤) الآية (١١) من سورة فصلت.

وأنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلا.

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع، وإن لم يكن موجودا بالفعل، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[1]، فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي بخلقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم[2].

وقد أطلق الله ﷻ أن كل ما في الأرض جميعا خلقه لبني آدم، فما هو التحقيق فيما يحل وما يحرم ؟، قال شخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو التفصيل: لأن الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها.

الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة.

الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة، وضرر من جهة أخرى، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[3]، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[4] .

١) الآية (١١) من سورة الأعراف.
٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧ / ١٥.
٣) من الآية (٢٩) من سورة البقرة.
٤) الآيات (١٠ . ١٢) من سورة الرحمن.

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله ﷺ: « **لا ضرر ولا ضرار**» ١.

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.

والثانية: عكس هذا، أن يكون الضرر أرجح.

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساويا له فالمنع لحديث: «**لا ضرار** » ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز، لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة ٢.

وحينما يتأمل الناظر في هذا الجزء من الآية الكريمة يجد أن كاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ تعم كل البشر المؤمن منهم والكافر الذكر والأنثى، لأن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعم أصول الموجودات في الأرض الظاهر منها والباطن، ومعلوم أن أصول **الأجناس** في الأرض أربعة: الماء، والنار، والنبات، والإنسان وهو الذي خلقت الثلاثة الأول لأجله، وقد امتن الله ﷻ بذلك لما فيه من الإعجاز ومن بديع الخلق، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ٣، ولما كان خلق ذلك من خصائص رب العالمين قرر على ذلك بقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ ٤، وهذا المخلوق من عدم، بين الله ﷻ أنه قدّر إماتته بعد ذلك متى شاء

١) مسند أحمد حديث (٢٨٦٧).

٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٩٦/٧.

٣) الآية (٢٨) من سورة الواقعة.

٤) الآية (٢٩) من سورة الواقعة.

سبحانه فقال: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[1]، وكذلك امتن الله بإيجاد أصول الأجناس لتكون نفعا ومتاعا للإنسان فقال في النبات بكل أنواعه: ما كان منه للإنسان، وما كان للحيوان: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾[2]، عبر بما يحرث لمباشرة الإنسان له، وهو تنبيه على غيره من النبات الذي لم يستنبته الإنسان، وفيه إشارة إلى أن الله خلق للإنسان وللحيوان من الزرع ما تكون مباشرةُ حرثه واستنبا'ته بسبب منه، وخلق منه ما لا يباشره الإنسان رحمة بما خلق من الحيوان الآيل نفعها للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾[3]، وقرر ذلك بقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾[4]، ومن أصول الأجناس الماء امتن الله ﷻ به فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾[5]، هذه النعمة العظيمة التي تتوقف حياة كل مخلوق عليها، بين الله ﷻ ذلك بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[6]، وقرر ذلك بقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾[7]. وأضاف منة أخرى هي من تمام فضله عليهم فقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾[8]، والأُجاج: الشديد الملوحة، كمياه البحار، وضده الماء العذب، ومن أصول الأجناس النار امتن الله بها فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾[9]، وقرر ذلك فقال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ

---

1) الآية (٦٠) من سورة الواقعة.
2) الآية (٦٣) من سورة الواقعة.
3) الآيات (٢٤ . ٣٢) من سورة عبس.
4) الآية (٦٤) من سورة الواقعة.
5) الآية (٦٨) من سورة الواقعة.
6) الآية (٣٠) من سورة الأنبياء.
7) الآية (٦٩) من سورة الواقعى.
8) الآية (٧٠) من سورة الواقعة.
9) الآية (٧١) من سورة الواقعة.

﴿شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾[1]، فلا تستغرب حين تقرأ ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ نعم خلق الله شجرتين إذا حكت إحداهما بالأخرى أوقدت نارا، والشجرتان هما: المرخ والعفار، وهما أقوى الشجر إيقادا للنار، وهما خضراوان وهذا من عجيب صنع الله ﷻ، وقد قال العرب: استمجد المرخ والعفار: أي استكثر إيقاد النار في المرخ والعفار، ثم بين تعالى أنها ليست كنار الآخرة، لكونها في الدنيا تذكر بنار الآخرة، وفيها متاع للناس ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾[2]، تأمل أيها القارئ الكريم هذه الآية تجد فيها إشارة إلى أن المستخدمين لنار الدنيا قسمان: قسم غير مُقوين وهم الحضْر في القرى والمدن فاستقرارهم يعينهم على وجود ما يوقدون به، إذا أعوزهم عدم وجود ما يورون به، فإن في هاتين الشجرتين ما يمكن أن ينتفعوا به، والقسم الثاني المقوون: وهم من كان في غير المدن والقرى، في خلاء أو صحراء، أو كانوا مسافرين فإذا أعوزهم ما يورون به، وجدوا في المرخ والعفار، من شجر البراري ما يوقدون به النار، وإذا أمعنت النظر وجدت أن النار قابلة لتطوير منافعها في مجالات لا تحصى في حياة الناس، واليوم يشاهد كل أحد أعظم ما توصل إليه الإنسان بالنظر فيما أوجد رب العزة والجلال من قوة للنار قابلة للتطوير، فكان كشف الكهرباء فتحا بذلك القانون الفريد الذي لا يمكن تغييره ولا تعديله، إنه كشف عظيم أظهره الله ﷻ بنظر عبد من عباده، وكانت الكهرباء مصدر كل قوة سلمية أو حربية في مجالات لا تحصر في حياة الإنسان، فالقرآن الكريم في آية البقرة هذه وما في مجالها من الآيات يدعوا المسلمين إلى البحث والنظر فيما هو ظاهر في الأرض للعيان، مما تقدم بيانه، وما كان خافيا من الخواص الكامنة فيما خلق الله ﷻ لبني آدم، ومن هنا نعلم ضلال من يزعم أن القرآن لا علاقة له بالحضارة المعاصرة، ويدعو لتلاوته في المحاريب فقط. وقد ذكر شيخنا رحمه الله أن الأجناس أربعة، وفي نظري أنها خمسة: الخامس الهواء، فإنه لا يقل أهمية عن الماء الذي فيه حياة المخلوقات، فهو قرينه في الامداد بالحياة، بل أكثر أهمية من الماء إذ أن المخلو قد

---

١) الآية (٧٢) من سورة الواقعة.

٢) الآية (٧٣) من سورة الواقعة.

يصبر على فقد الماء مدة ولو يسيرة تعد بالساعات أواليوم واليومين، ولكنه لا يحتمل فقد الهواء دقائق معدودة، فيفقد حياته في دقائق، وهذا ملحظ مهم جدا في أصول الأجناس، المتعلقة بحياة المخلوقات، فتكون أصول الأجناس المسخرة للإنسان أربعة: الماء، الهواء، والنبات، والنار.

قوله تعال: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[1]، في هذا الجزء من الآية بيان أن الله تعالى خلق السماوات وأنها سبع سماوات، وقد بين هذا الخلق العظيم للسماوات والأرض في قوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾[2]، وبين أنها طباقا بعضها فوق بعض في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ ﴾[3]، وبين سبحانه أنها عظيمة الخلق فقال: ﴿ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴾[4]، كل هذا البيان في العديد من الآيات ليعلم الناس أن الله ﷻ على كل شيء قدير، وأن علمه تعالى محيط بكل شيء، فلا يتصور عاقل عبادة غير الله ﷻ، فيكون الإذعان له وحده لا شريك له، ومن لم يكن كذلك فقد ضل ضلالا مبينا.

(٣٠/٢) قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾.

هذه الآية الثلاثون من سورة البقرة، وفيها إشارة إلى ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره، وقد أخبر الله الملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة، وهو آدم عليه السلام، ومن بعده ذريته يخلف بعضهم بعضا، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ

---

١) من الآية (٢٩) من سورة البقرة.

٢) الآية (١٢) من سورة الطلاق.

٣) من الآية (٣) من سورة الملك.

٤) الآية (١٢) من سورة النبأ.

خَلَٰٓئِفَ ﴾١، وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾٢، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾٣، فالمراد مَن يخلف آدم ﵇ من ذريته، ومن هنا كان قول الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فآدم ﵇ لا يتهم بالفساد في الأرض، ولا بسفك الدماء، لأنه نبي معصوم، وكذلك المعصومون من ذريته لا يقع منهم ذلك، ومن ذريته من هم ليسوا بمعصومين من ذلك، لأنهم يمتلكون **أسباب الفساد** في الأرض وهي ثلاثة: الغضب، والشهوة، والعقل، فالغضب يولد الحرب وأسبابها، كالكبر، والعزة بالإثم والحسد، وغير ذلك، والشهوة تولد الرغبة في المأكل والمشرب والعلاقة بين الذكر والأنثى، وقد زُيين للناس حب الشهوات، وهي كثيرة غير ما ذُكر، والعقل يولد التخطيط والتدبير للخير أو الشر، ومن ذرية آدم غير المعصومين المقل من الفساد والمكثر، حسب ما يمتلك من خشية الله ﷻ، لكن الله ﷻ رد على الملائكة بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فقد أحاط بكل شيء علما سبحانه، ومن علمه ما يكون من أمر آدم ﵇ وذريته.

(٢/٣١) قال تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والثلاثون من سورة البقرة، وفيها الإشارة إلى مكانة العلم، الذي فضل الله به آدم على الملائكة، فالعلم نوعان: علم اصطلاحي وعلم حقيقي، فأما الاصطلاحي: فهو ما تعارف الناس في وقت من الأوقات على أن صاحبه يعد في صف العلماء، كالمهن على اختلاف أنواعها، وهذا قد يتغير بتغير الزمن، ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهو نوع لا تخلو عنه أمة، لتعلقه بحياتها ومعاشها.

---

١) من الآية (١٦٥) من سورة الأنعام.
٢) من الآية (٦٢) من سورة النمل.
٣) من الآية (٣٥) من سورة فاطر.

والعلم الحقيقي: هو ما في معرفته كمال الإنسان، كالعلم بالشريعة وهو أشرف العلوم لسيادته عليها، وكل علم في هذه الحياة لابد أن يكون خاضعا لحكم الشريعة من حيث حِلِّ تعلمه وحرمته، فعلم السحر مثلا حرام لما فيه من ضرر بالغ على الفرد والجماعة، وعلم إنتاج أسلحة الدمار الشامل حرام تعلمه لما فيه من هلاك ودمار عظيم، وكل علم دنيوي به يبلغ الإنسان ذروة المعارف، وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا فهو حلال، وكلا العلمين: الشرعي والدنيوي النافع كمال إنساني، ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه، وقد أنال الله ﷻ آدم عليه السلام علما عظيما خصه به، وجعله برهانا قاطعا على أنه تعالى يعلم ما لا يعلمه الملائكة، وأكد ذلك للملائكة بعرض تلك الأسماء عليهم، فما كان جوابهم عنها سوى التقديس والتسبيح لرب العالمين، اعترافا بسعة علم الله ﷻ وجهلهم بما عَلَّم آدم عليه السلام، فكان أعظم شيء بعد الإيمان بالله ﷻ العلم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [1]، وقد كرم الله ﷻ آدم عليه السلام على الملائكة بالإيمان والعلم، هاتين الميزتين العظيمتين حظي بهما آدم عليه السلام، نعم الملائكة مؤمنون ولكن ذلك إيمان جبلوا عليه هكذا خلقهم الله ﷻ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [2]، أما آدم عليه السلام وذريته فقد ابتلاهم الله ﷻ بأسباب الفساد في الأرض: الغضب، والشهوة، والعقل، فعصم منهم من آمن وعَلِم واستقام على أمر الله ﷻ، فكرمهم الله ﷻ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [3]، ومَن هوى منهم في أسباب الفساد حُرم هذا التكريم، ورُد أسفل سافلين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [4]، فاتضح أن **أسباب التكريم** ثلاثة: الإيمان، والعلم، والعمل، وبعد أن علَّم آدم الأسماء

---

١) من الآية (١١) من سورة المجادلة.

٢) من الآية (٦) من سورة التحريم.

٣) الآية (٧٠) من سورة الإسراء.

٤) الآية (٥) من سورة التين.

كلها، عرض المسميات على الملائكة، وطلب منهم الإخبار بأسمائها، فاعترفوا بالجهل بها.

(٢/٣٢) قال تعالى:

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والثلاثون من سورة البقرة، وفيها اعتراف الملائكة بخطئهم، وأن قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ إنما كان مبنيا على عصمتهم من معصية الله ﷻ، وأنهم مجبولون على التسبيح بحمده وتقديسه تعالى، فلما أقام الله ﷻ عليهم البرهان بعلم آدم عليه السلام ما لم يعلموا، أذعنوا لأمر ربهم، وسبحوه تعالى، واعترفوا بأنه لا علم لهم إلا ما علمهم الله ﷻ الذي هو بكل شيء عليم، وهو الحكيم في كل شأن سبحانه لا إله إلا هو، فهذا ثناء الملائكة على الله ﷻ، وقد أثنى عليه عيسى عليه السلام بمثل هذا وهو من البشر فقال: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ١.

(٢/٣٣) قال تعالى:

﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والثلاثون من سورة البقرة، جاء هذا البرهان القاطع بعد ذلك الامتحان للملائكة، فقد أمر الله ﷻ آدم عليه السلام أن يخبر الملائكة الكرام بأسماء تلك المسميات التي عرضت عليهم فلم يعلموا أسماءها، فلما أخبرهم بها آدم عليه السلام قال الله ﷻ مقررا الملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ وقد أقروا له تعالى بذلك سلفا، وورد هذا القول الكريم توكيدا لذلك

---

١) من الآية (١١٦) من سورة المائدة.

الإقرار، وهذا ظاهر في أن أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى، والله تعالى يُعلّم رسله من غيبه ما شاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[2]، من البشر أو الملائكة، فتبين أن كل طريق يسلكه الإنسان لمعرفة علم الغيب سوى هذا، فهو ضلال محض، وافتراء على الله ﷻ.

(٢/٣٤) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والثلاثون من سورة البقرة، وهي تقرر فضل آدم عليه السلام على الملائكة الكرام، فقد أصدر الخالق أمره بسجودهم لآدم عليه السلام، ولم تتعرض الآية الكريمة لذكر وقت هذا الأمر متى كان، لكنه تعالى بين ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[4]، فتحدد أن الأمر بالسجود كان قبل خلق آدم عليه السلام، ولا يمنع أن الله ﷻ أمرهم بالسجود بعد الخلق أيضا تحقيقا لما كان قبل الخلق، وكذلك إذا تأملتَ قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإنك تسأل عن سبب استكبار إبليس عن السجود لآدم عليه السلام وقد استجاب الملائكة أجمعون، وبالنظر تعلم السبب من قوله: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن

---

١) من الآية (١٧٩) من سورة آل عمران.

٢) الآيتان (٢٦، ٢٧) من سورة الجن.

٣) الآيتان (٢٨، ٢٩) من سورة الحجر.

٤) الآيتان (٧١، ٧٢) من سورة ص.

طِينٍ ﴾١، وقوله: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾٢، وهنا تعلم يقينا أن العنصرية والكبر سبب كل ضلال، وأن الله ﷻ حكم على إبليس لقاء ذلك بالكفر والطرد من رحمته تعالى، وإذا تأملت مادة الخلق لآدم عليه السلام، ومادة الخلق لإبليس المطرود بلعنة الله ﷻ تجد أن لله حكمة بالغة في ذلك فقد خلق آدم عليه السلام من طين وهو بارد ثقيل، يقبل الإنبات وكانت منه الأرض الطيبة إذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، أما النار فطبعها الحرق والفساد، وهي مهلكة للحرث والنسل، خلق الله منها إبليس المطرود بلعنة الله ﷻ، لتشتد العداوة بينه وبين بني آدم، ولذلك حاور ربه في طيش وغرور، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾٣.

ويجدر التنبيه إلى أن ما نراه راجحا أن إبليس اللعين ليس من الملائكة، لأمرين:

الأول: أن الملائكة معصومون من المعصية فضلا عن الكفر، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾٤، أما إبليس اللعين فقد إستكبر وعصى وكفر.

الثاني: أن الله ﷻ صرح بأنه من الجن، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾١، وهذا نص من العليم الخبير، ومعلوم عند الإطلاق أن الجن غير

---

١) من الآية (١٢) من سورة الأعراف.

٢) الآية (٣٣) من سورة الحجر.

٣) من الآية (٣٢ . ٤٤) من سورة الحجر.

٤) من الآية (٦) من سورة التحريم.

الملائكة، وقد قال جمع من العلماء بخلاف هذا، وصراحة الآية تنفي أن يكون من الملائكة، والفسق ليس من صفات الملائكة عليهم السلام، ولذلك وصف به إبليس اللعين، لخروجه عن طاعة ربه، إذ الفسوق معناه: الخروج، قال رؤبة بن العجاج:

يهوين في نجد وغوراً غائرا * فواسقاً عن قصدها جوائرا.**

(٢/٣٥) قال تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والثلاثون من سورة البقرة، وهي تنبؤنا بثالث تكريم لآدم عليه السلام، بعد تعليمه الأسماء كلها، وسجود الملائكة له، وهو سكنى الجنة وهي دار الثواب، لأن الظاهر يقتضي ذلك، وهذا قول جمهور أهل السنة، والأكل مما فيها عيشة هنيئة، وتنبؤنا الآية أيضا بأول شيء كلف به عليه السلام وهو عدم الأكل من شجرة واحدة فقط، وبين تعالى لآدم وزوجه أنهما إذا أكلا من تلك الشجرة فإنهما يكونان من الظالمين، ولكنهما لم ينتفعا بذلك التحذير، فقد قدّر الله عز وجل عليهما العداوة الأبدية مع إبليس، فتسلط عليهما لتتحقق الخصومة وينفذ أمره تعالى فيهم، فيبقى آدم وذريته في عداوة مع إبليس وذريته حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(١/٣٦) قال تعالى:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

هذه الآية السادسة والثلاثون من سورة البقرة، تقرر الخصومة بين آدم عليه السلام وإبليس اللعين، فقد مكر بآدم وزوجه حتى أزالهما عن نعيم الجنة، وأخرجهما منها، وتحقق لإبليس ما أراد، وهنا حكم الله عز وجل عليهم بالهبوط إلى ميدان العداوة، فقال

---

١) الآية (٥٠) من سورة الكهف.

تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فكان الأمر صادرا على الثلاثة آدم وحواء وإبليس، وهذا بإجماع، وفي الآية قضى الله ﷻ بنشوء العداوة بين آدم عليه السلام وذريته، وإبليس اللعين وذريته.

(٢/٣٧) قال تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

هذه الآية السابعة الثلاثون من سورة البقرة، وهي تحدد المسار الذي كُتب لآدم عليه السلام وذريته، إذ ألهمه الله ﷻ طريق التوبة والإقلاع عن الذنب، في كلمات مَنَّ الله عليه بالتوفيق لها وهي ما بينه الله في قوله تعالى: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[١]، هذه الكلمات كانت طريق النجاة من تلك الخطيئة، وقد عاتب الله ﷻ آدم وزوجه فقال: ﴿**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[٢]، فكان جوابهما تلك الكلمات، بتوفيق من الله ﷻ، فأدركتهما هداية الله ربهما فاجتباهما وتاب عليهما.

وإذا أمعنت النظر في معصية آدم عليه السلام وزوجه، وقارنتها بمعصية إبليس اللعين، تجد أن آدم اغتر بنصيحة إبليس ولاسيما فيها الوعد بالخلود، فلما عاتبه ربه على ذلك أقر بذنبه واعترف بأن لا نجاة له إلا بمغفرة ربه ورحمته، فكانت النتيجة لآدم أن تاب عليه ربه وغفر له، أما إبليس اللعين فتجد أن سبب معصيته حسده لآدم وذرته، واستكباره عن السجود وخروجه عن طاعة ربه، فلم يعترف بذنبه بل تحدى وطلب الإمهال ليكيد لبني آدم أجمعين، وكانت النتيجة الطرد من رحمة الله ﷻ.

---

١) الآية (٢٣) من سورة الأعراف.

٢) الآية (٢٢) من سورة الأعراف.

(٢/٣٨) قال تعالى:

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾.

هذه الآية الثامنة والثلاثون من سورة البقرة، وهي مرتبطة بقوله تعالى: **﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾** فالآية فيها إشهار العداوة بين الخصمين آدم عليه السلام وإبليس اللعين، وفي الآية التالية لها تقرير لأمرين عظيمن خوطب بهما آدم عليه السلام وذريته:

الأول: وعد الله بإرسال الرسل إلى بني آدم ليهدوهم سواء السبيل.

والثاني: البشارة بأن من يتبع الهدى منهم فلا يناله خوف ولا حزن، ومنه يفهم الضد وهو أن من لا يتبع الهدى فإنه محروم من تلك البشارة، فيبقى في دائرة الخوف والحزن في الدنيا والآخرة.

وإذا تأمل الناظر قوله تعالى: **﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** وجد أن الأمر بالهبوط من الجنة يشمل آدم عليه السلام وزوجه حواء، وإبليس اللعين، وهذا نصت عليه الآية في صدرها، ولكن باقي الآية لا يتناول إبليس اللعين فليس موعودا بإتيان الهدى، ولا بعدم الخوف والحزن، لاختياره الضلال، وفسقه عن أمر ربه، لذلك كتبت عليه اللعنة والشقاوة إلى يوم الدين، فاتضح أن الموعود بإتيان الهدى هو آدم وزوجه وذريتهما ولذلك ورد الخطاب بالجمع فقال تعالى: **﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** ولا يعارضه ورود الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: **﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾** فالمراد آدم عليه السلام وزوجه حواء، وعقب بالجمع بعده ليتناول الذرية، ولا تدخل الحية في الخطاب قطعا وقصتها معروفة من الإسرائيليات، لأن قوله تعالى:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والحية لا يتناولها هذا، لأنها ليست داخلة في خطاب التكليف.

وعند ما تتأمل الآيات الكريمة السابقة تعلم أن الله ﷻ ابتلى آدم ﵇ ثم تاب عليه وكلفه باتّباع الهدى الذي سيأتيه من ربه ﷻ ليعود مرة أخرى إلى طاعة ربه، وعلى هذا فلن يدخل الجنة أحد من ذرية آدم ﵇ إلا بعد البلاء في الدنيا، ومنه التكليف بالأوامر والنواهي، والآيات الدالة على هذا كثيرة في كتاب الله العزيز منها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[1]، واعلم أن الصحيح أن آدم ﵇ نبي، وأنه رسول إلى زوجه وذريته، وأن الله كلمه، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ فإن هذا ظاهر في أن الكلام بغير واسطة، ولو كان بواسطو لقال: "وأحسنا إلى آدم" ولما سئل النبي ﷺ عن ذلك قال: «**نعم نبي مكلَّم** »[2]، ولا يعارض بما ورد في حديث الشفاعة « **ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض** »[3]، لأن آدم أرسل إلى زوجه وذريته فأطاعوه، لكونهم على الفطرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾[4] في عهد آدم ﵇ كانوا أمة واحدة، فاختلفوا في عهد نوح ﵇، فأرسل بعد حدوث الشرك بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[5]، فكان نوح ﵇ ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، فآدم أول الرسل على الفطرة، ونوح أول الرسل بعد حدوث الشرك بالله، فلا تعارض والحمد لله.

---

١) من الآية (٢) من سورة الملك.

٢) ذكره علماء من المفسرين، وأخرجه أحمد بسند ضعيف حديث (٢١٥٨٦).

٣) البخاري حديث (٤٤٧٦) ومسلم حديث (٤٩٥).

٤) من الآية (١٩) من سورة يونس.

٥) الآية (٢٣) من سورة نوح.

(٢/٣٩) قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والثلاثون من سورة البقرة، وفيها التحول من قصة آدم عليه السلام وإبليس اللعين، إلى الحديث عن الرافضين لاتباع الهدى، المكذبين به، ليتكون الأمر من فريقين متضادين في الاعتقاد والمنهج، وهذا ما بينه الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ ١، وهذا نتيجة الابتلاء المكتوب على الفريقين، وقد سبق هذا في علم الله تعالى قبل خلق الخلق، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ ٢، وبعبارة أخرى قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ وصرح بلفظ الكفر والإيمان في قوله تعالى: ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ٣، هذه نتيجة العداوة بين آدم عليه السلام وإبليس اللعين، فكان عاقبة الكافرين النار خالدين فيها، وكذلك المؤمنون وعدهم الله ﷻ الجنة خالدين فيها، والآيات الدالة على هذا كثيرة في كتاب الله العزيز منها: قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ٤، ومن هنا تدرك أهمية الإيمان واتباع الهدى، وخطورة الحيدة عنه واتباع الهوى، وليعلم أن الله ﷻ لم يظلم أحدا من الخلق، وأنه تعالى أقام عليهم الحجة والبرهان فبعث الرسل، وأنزل الكتب، وأظهر المعجزات تأييدا لهم، فمن هداه الله ﷻ للحق فبمحض فضله ورحمته، ومن أضله فبمحض عدله، وكل ذلك سابق في علمه تعالى.

---

١) من الآية (٧) من سورة الشورى.

٢) من الآية (٣٦) من سورة النحل.

٣) الآية (٢) من سورة التغابن.

٤) الآيتات (١٤. ١٦) من سورة الروم.

(٤٠/٢) قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾.
هذه الآية الأربعون من سورة البقرة، وهي تتحدث عن ثلة من ذرية آدم أنعم الله عليهم وهم إسرائيل وبنوه، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وبنوا إسرائيل إثناعشر عليهم السلام، فيعقوب عليه السلام حفيد إبراهيم عليه السلام، عمه إسماعيل عليه السلام، أنعم الله عليهم بالنبوة، والمخاطبون في الآية هم من نسل أبناء يعقوب الاثني عشر، يوسف عليه السلام وإخوته أحدعشر وذلك في قول الله عز وجل حكاية عنه: ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾[١]، وهم الذين بعث الله إليهم موسى عليه السلام في عهد فرعون، وقد خاطبهم الله عز وجل ببني إسرائيل لأنهم من نسله، وكان ذلك تكريما لهم، وحثا على الاستجابة لموسى عليه السلام، وهذا يُنْهض الفِطَر السليمة ويحركها لقبول الحق، فذكَّرهم الله عز وجل بالنعمة التي أنعمهاعليهم، وهي نعم كثيرة منها أنه تعالى نجاهم من آل فرعون، كانوا يعذبونهم أشد العذاب، فيقتلون رجالهم، ويسترقون نساءهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾[٢]، ومنها بعثهم بعد موتهم لما أخذتهم الصاعقة قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٣]، ومنها أنه تعالى وقاهم من حر الشمس فظللهم بالغمام، ورزقهم المن والسلوى وهم في صحراء قاحلة، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾[٤]، ومنها أنه أمرهم بدخول قرية آمنة ليأكلوا منها رزقا حسنا فعصوه تعالى، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ

---

١) الآية (٤) من سورة يوسف.

٢) من الآية (٤٩) من سورة البقرة.

٣) من الآية (٥٦) من سورة البقرة.

٤) من الآية (٥٧) من سورة البقرة.

﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾[1]، ومنها استسقاؤهم موسى عليه السلام وهم في الصحراء فأمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يضرب حجرا بعصاه فلما ضربه تفجر ماءً عذباً زلالا، فكان نعمة لبني إسرائيل، ومعجزة لموسى، وكان ينقل ذلك الحجر معه فإذا أرادوا ماء ضربه بعصاه فانساب منه الماء أعذب ما يكون، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2]، ولكنهم كانوا مفسدين، ومنها أن الله عز وجل أراد أن يعزهم بعد أن كانوا أذلاء مستضعفين من فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾[3]، وفي الكتاب العزيز غير هذا كثير مما أنعم الله به على بني إسرائيل.

أما العهد الذي طلب من بني إسرائيل الوفاء به حين قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ فهو ما ورد بيانه في الآيات التالية لهذه الآية فقد طلب من بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزل تعالى وهو القرآن، مصدقا لما معهم وهو التوراة، ولا يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وأن يتقوه تعالى في ذلك، ولا يلبسوا الحق وهو ما في التوراة من علمٍ بنبوة محمد ﷺ وصفاته، بالباطل وهو جحود ذلك، وكتمانه عن قومهم مع علمهم بأنه الحق، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو أيضا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

١) من الآية (٥٨) من سورة البقرة .

٢) الآية (٦٠) من سورة البقرة .

٣) الآيتان (٥، ٦) من سورة القصص .

ﭐلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [1]، والعهد الذي التزم الله ﷻ الوفاء به مقابل وفائهم بعهده تعالى هو التابع في آخر هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [2]، وفي كتاب الله العزيز العديد من الآيات الدالة على هذا الأمر.

(٢/٤١) قال تعالى:

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والأربعون من سورة البقرة، وهي في سياق مطالب الوفاء بالعهد الذي طلب من بني إسرائيل الوفاء به في الآية السابقة، وهذا أحد المطالب، وهنا تلحظ أن قوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾ يبين أن ما في القرآن مصدقا لما في التوراة عند أهل الكتاب، وأن ما فيهما من الأوامر إجتماع على طاعة الله ﷻ والتصديق برسله وكتبه.

(٢/٤٢) قال تعالى:

﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والأربعون من سورة البقرة، وهي استمرار في بيان مطالب العهد، ومن ذلك نهي بني إسرائيل عن تغطية الحق الثابت في التوراة في شأن نبوة محمد

---

١) من الآية (١٩٥) من سورة آل عمران .

٢) الآيتان (٥، ٦) من سورة القصص .

ﷺ وصفاته بباطل ينتحلونه من عند أنفسهم، ويكتمون ما عرفوا من مطابقة ما في القرآن لما في التوراة، وهم في واقع الأمر يعلمون أنه حق لا مرية فيه.

(٢/٤٣) قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والأربعون من سورة البقرة، تبين أن من مطالب العهد إتفاقهم مع ما جاء به القرآن من وجوب الصلاة والزكاة، وممارسة شعائرها، ولكنك تلحظ أمرا آخر من قوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ وهو اتحاد الكتب السماوية على طاعة الله ﷻ، وإن اختلفت الأوامر بالزيادة والنقصان، فاللاحق مبين للسابق، ففي الركوع تجسيد لتلك الوحدة الإيمانية بين أتباع الرسل أجمعين، وإن كانت صلاة اليهود لا ركوع فيها، فهم مطالبون بما جاء به القرآن جملة وتفصيلا، من الركوع وغيره.

(٢/٤٤) قال تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والأربعون من سورة البقرة، وهي تحولٌ عن تعداد مطالب العهد إلى تذكيرهم بأن ما يزعمون من إشاعة البر في الناس وهم لا يعملون به أن ذلك ليس من عمل العقلاء، فالعاقل يبدأ بنفسه فيعمل ما يأمره به دينه ثم يأمر الناس به، وقد بين لهم كتابهم نبوة محمد ﷺ وصفاته، فكتموا ذلك وأنكروه.

(٢/٤٥) قال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والأربعون من سورة البقرة، وهي تأكيد على أهمية الصبر والصلاة ليس في حياة بني إسرائيل فحسب بل في حياة المسلمين ومنهم بنوا إسرائيل إذا آمنوا بما أنزل الله ﷻ على محمد ﷺ مصدقا لما معهم، فحينئذ يكونون من المسلمين،

لذلك أُمروا بالاستعانة بالصبر أولا؛ لأن كل إنسان محتاج للصبر على أمور الدنيا والآخرة، وهذا أمر جلي، لكنه مع الصلاة أدعى فالصبر مهم في المحافظة عليها لوجوب أدائها في كل الأحوال؛ ولأن لها مع كل حال هيئة تناسب أدائها، أما الاستعانة بالصلاة ذاتها فلأنها تطهر النفس من الفحش وما ينكره الشرع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[١]، وهذا من أسنى المطالب وأرفعها، ولذلك كانت الصلاة صلة بين العبد وربه، قال رسول الله ﷺ: « **قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدني عبدي، وقال مرة: فوض إليّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل** »[٢]؛ ولأنها من أسباب الرزق قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٣]، ولأنها سبب في زوال الهم والغم، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: « **يا بلال أرحنا بالصلاة** »[٤]، ولأنها من أسباب منع ما يُهم ويُجزن، ولذلك قال ﷺ: « **قال الله ﷻ يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره** »[٥]، ومن هنا تلحظ أن الصلاة باب لكل خير، وهي أعظم قربة إلى الله تعالى، وقد خاطب الله بني إسرائيل بهذا توجيها لهم

---

١) من الآية (٤٥) من سورة العنكبوت.

٢) مسلم حديث (٣٩).

٣) من الآية (١٣٢) من سورة طه.

٤) أخرجه الطبراني (٦/٣٤٠) من حديث صحابي من أسلم.

قال الهيثمي في المجمع (١/١٤٥): فيه أبو حمزة الثمالي ضعيف واهي الحديث، وأخرجه أبو داود (٥/٢٦٢) والإمام أحمد في المسند (٥/٣٦٤، ٣٧١) وفي إتحاف السادة المتقنين (٣/١٣٧) قال: إسناده صحيح.

٥) أحمد حديث (٢٢٥٢٢) صحيح.

إلى ما يعينهم على الخير ويفتح لهم أبوابه، ومن هنا كانت الصلاة ثقيلة وكبيرة إلا على المؤمنين الذين خشعت قلوبهم لله ﷻ وذاقوا حلاوة مناجاته في الركوع والسجود وأكثروا من التسبيح والتحميد.

(٢/٤٦) قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والأربعون من سورة البقرة، وهي مسوقة جوابا لسؤال مقدر، فكأن سائلا قال: من هم الخاشعون، فجاء الجواب مبينا أنهم الذين عرفوا يقينا أنهم سيلقون ربهم، وأنهم راجعون إليه بعد انقضاء أعمارهم المقدرة لهم في هذه الحياة.

(٢/٤٧) قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والأربعون من سورة البقرة، وهي تكرار لما سبقت دعوة بني إسرائيل إليه في الآية الأربعين من سورة البقرة، إلا أنه تعالى لما ذكَّرهم بنعمته عليهم، ذكَّرهم بنعمة أخرى وهي تفضيلهم على العالمين وهي نعمة خاصة بهم في زمنهم، وقد تكرر هذا في كتاب الله العزيز، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ **قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[3]، واعلم أن هذا التفضيل ليس على إطلاقه، بل المراد به ما كان في زمن قبل نزول القرآن، أما بعد نزول القرآن وكفرهم به فليس لهم فضل على العالمين، وذلك للأسباب التالية:

---

١) الآية (١٤٠) من سورة الأعراف.

٢) الآية (٣٢) من سورة الدخان.

٣) الآية (١٦) من سورة الجاثية.

أولا: فضلهم الله ﷻ على العالمين في زمن سابق لم تكن أمة محمد ﷺ موجودة.
ثانيا: بين الله ﷻ في الكتاب العزيز أن أمة محمد ﷺ أفضل الأمم بوصفه لهم بأنهم خيار عدول، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾١، ولا يكون كذلك إلا من كان خيارا عدلا، وصرح تعالى بفضل أمة محمد ﷺ فقال: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾٢، وهذا صريح في خيرية أمة محمد ﷺ على الناس أجمعين ومنهم بنوا إسرائيل، والسنة تقضي بذلك أيضا قال ﷺ: « **ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ﷻ** ».

ثالثا: أن بني إسرائيل كفروا بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه، قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾٣، فليس بنوا إسرائيل أفضل العالمين بعد مبعث محمد ﷺ ووجود أمته، وكل ما جاء في القرآن يحكي فضل بني إسرائيل على العالمين، إنما هو حكاية لحالهم قبل وجود أمة محمد ﷺ، أما بعد نزول القرآن فأمة محمد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق، وهم الشهداء على الأمم يوم القيامة، والرسول ﷺ شاهد عليهم

(٤٨/٢) قال تعالى:

﴿ **وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾** ﴾.

هذه الآية الثامنة والأربعون من سورة البقرة، وهي تحذير بعد تذكير، فإن الله ﷻ لما ذكَّر بني إسرائيل بنعمته عليهم وبتفضيلهم على العالمين حذرهم من الاغترار بذلك

---

١) من الآية (١٤٣) من سورة البقرة.
٢) من الآية (١١٠) من سورة البقرة.
٣) من الآية (٨٩) من سورة البقرة.

فلا يزعمون أن ذلك يعفيهم من المساءلة يوم القيامة، بل هم كغيرهم من الناس، وأمرهم أن يذكروا يوم الجزاء والحساب فيعدوا له عدته، فإن لهذا اليوم نظامه وقانونه عند الله ﷻ فلا تحمل نفس عن نفس شيئا من الماديات وإن قل، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾١ فإذا انعدم النفع في ذلك اليوم من أقرب الأقربين فلا ريب أنه من البعيد أبعد، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ وهذا في المعنويات إذ لا شفاعة ولا واسطة معتبرة في ذلك اليوم، وهذا ليس على إطلاقه، فالشفاعة المنفية مطلقا هي الشفاعة للكفار، وهم يائسون من ذلك يوم القيامة مقرون به، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾٢، والشفاعة لغير الكفار منفية أيضا إلا بإذن الله ﷻ قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾٣، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾٤، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾٥، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾٦، فلا تنفع الشفاعة بغير إذن من الله ﷻ ولو كان الشافع من الأنبياء عليهم السلام أو من الملائكة الكرام، قال الله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾٧.

أما الشفاعة للمؤمنين فهي ثابتة لهم لكنها لا تكون إلا بإذن الله ﷻ، ومن زعم أن شفاعة تكون يوم القيامة لأحد من خلق الله ﷻ بغير إذن الله ﷻ فقد قال بقول الكفار، وذلك من الكفر، قال الله ﷻ حكاية عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ

---

١) من الآية (٣٣) من سورة لقمان .

٢) الآية (١٠٠) من سورة الشعراء .

٣) من الآية (٢٥٥) من سورة البقرة .

٤) من لآية (١٠٩) من سورة طه.

٥) من الآية (٢٨) من سورة الأنبياء.

٦) من الآية (٢٣) من سورة سبأ.

٧) الآية (٥٣) من سورة النجم.

ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[1]، ومما تقدم نعلم أن الشفاعة للكفار ولغيرهم منفية مطلقا بغير إذن من الله ﷻ، والمستثنى من ذلك شفاعة نبينا محمد ﷺ لعمه أبي طالب، لأنها تتم بإذن من الله تعالى: وليس للخروج من النار بل للتخفيف، قال العباس بن عبد المطلب ﷺ للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟، قال: « **هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار** »[2].

قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ**﴾ المراد بالعدل الفداء، فلا يطلب منها فدية تفتدي بها من عذاب الله ﷻ كما هي الحال في الدنيا من قبول الفدية في بعض الأحيان، ولو قُدِّر ـ وهو مستحيل الوقوع ـ أنهم أتو بالفداء فقد قال تعالى: ﴿**وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ**﴾[3]، وقد أكد الله ﷻ ذلك في آيات: منها قوله تعالى: ﴿**فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ**﴾[4]، ومنها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ**﴾[5]، وغير ذلك من الآيات المؤكدة لهذا الصدد، قال تعالى: ﴿**وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ**﴾ في كلتا الحالتين ليس لهم من يناصرهم في ذلك اليوم المشهود.

(٢/٤٩) قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

---

١) من الآية (١٨) من سورة يونس.

٢) البخاري حديث (٣٥٩٤) ومسلم حديث (٣٠٨) وفي رواية عنهما (فقال لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه).

٣) من الآية (١٢٣) من سورة البقرة.

٤) من الآية (٩١) من سورة آل عمران.

٥) الآية (٣٦) من سورة المائدة.

هذه الآية التاسعة والأربعون من سورة البقرة، وهي في سياق النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وتعتبر من أعظم النعم عليهم فقد كانوا مستذلين من فرعون وقومه، وكان إذلالهم لا مزيد عليه، فالذكور يُقتلون، والنساء يؤخذن إماءًا، وكان ذلك امتحانا لهم من الله ﷻ في الحالين: حال تسلط آل فرعون عليهم، وحال نجاتهم من ذلك، ولئن كان في الأول صبر، فالأحرى ببني إسرائيل شكر الله ﷻ في الثانية إذ كتب لهم النجاة من ذلك العدو ونصرهم عليه، وقد كرر الله ﷻ هذا الامتنان في مواضع من كتابه العزيز، لتقوم الحجة على بني إسرائيل، ولكشف عنادهم وصلفهم حتى مع ربهم الذي أنعم عليهم، وكان يكفي لإذعانهم له ﷻ بمجرد هذه النعمة فضلا عن ما سواها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[1]، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[3]، وغير ذلك من الآيات.

(٢/٥٠) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

هذه الآية الخمسون من سورة البقرة، وهي في السياق ذاته غير أنها توضح الوسيلة التي نجَّى الله ﷻ بها بني إسرائيل، وبها أهلك آل فرعون، فقد جعل الله ﷻ المعجزة لنجاتهم في عصا موسى واستجابة البحر بمحرد ملامسة العصا ضربة واحدة من موسى عليه السلام بإذن الله ﷻ كانت كافية لخلق ذلك الإعجاز العظيم، فكان الوحي إلى

---

١) الآية (١٤١) من سورة الأعراف.

٢) الآية (٦) من سورة إبراهيم.

٣) الآية (٣٠) من سورة الدخان.

موسى وأمره بالسُّرى خطوة أولى في مجال النجاة، قال تعال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾[2]، وكانت الخطوة الثانية الوحي بضرب البحر، ولم يعلم بنوا إسرائيل بهذه المجريات، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[3]، تأكيد ثقة موسى عليه السلام بربه، في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾[4]، هذه هي الطريقة التي تمت بها نجاة بني إسرائيل، وإغراق آل فرعون، وفي الكتاب العزيز مزيد من الآيات المبينة لهذا الحدث العظيم.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تلحظ في ختم الآية الكريمة بهذه العبارة تعظيما لذلك النصر من الله ﷻ لموسى عليه السلام ولقومه، وشفاءاً لما في الصدور وهم ينظرون في هلاك عدوهم، وفي حالة من الأمن لم يمر بهم مثلها.

(٢/٥١) قال تعالى:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

هذه الآية الحادية والخمسون من سورة البقرة، وفيها تذكير بني إسرائيل مواعدة موسى عليه السلام، ولم تبين الآية سبب المواعدة، وهو إنزال التوراة، وقد بين الله ﷻ أن الأربعين ليلة ليست متصلة، بل كانت ثلاثين ليلة، أتمها تعالى بعشر ليال، قال تعالى:

---

١) الآية (٧٧) من سورة طه.

٢) الآيتان (٢٣، ٢٤) من سورة الدخان.

٣) الآيتان (٦١، ٦٢) من سورة الشعراء.

٤) الآيات (٦٣ . ٦٦) من سورة الشعراء.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ ١، خرج موسى ومن معه من بني إسرائيل من مصر، ليعطيهم الله ﷻ الأرض المقدسة التي رفضوا دخولها فيما بعد، وواعد الله موسى عليه السلام لينزل عليه التوراة شريعته وقومه، لكنهم فتنوا بعد ذهاب موسى عليه السلام، وكانت فتنتهم فتنة إضلال، صنع لهم أحدهم وهو السامري عجلا من ذهب كان له صوت، فقال هذا إلهكم، فاتخذوه إلاها بعد أن ذهب عنهم موسى عليه السلام، وكانوا ظالمين في ذلك دون شك.

(٢/٥٢) قال تعالى:

﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢ ﴾.

هذه الآية الثانية والخمسون من سورة البقرة، وفيها بيان رحمة الله بعباده وعفوه وكرمه بعد ذلك الذنب العظيم الواقع عقب ذلك التكريم والتفضيل والنصر، فامتن الله ﷻ عليهم بالعفو لأنه أعظم النعم، واعلم أن ما يقص من الأحداث في القرآن الكريم في سياق ذكر بني إسرائل المقصود به من كانوا مع موسى عليه السلام قبل محمد ﷺ، وهو في نفس الأمر خطاب لبني إسرائيل بعد نزول القرآن، تذكيرا لهم بما أنعم الله ﷻ على آبائهم السابقين، وبما وقعوا فيه من عصيان الله ﷻ ورسوله موسى عليه السلام، لعل الأبناء بعد نزول القرآن يحصل لهم من العبرة والاتعاظ ما يدفعهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل الله عليه، فلا يسيروا سيرة آبائهم في الضلال، وبهذا يتحقق الشكر من الأبناء إذ لم يتحقق من الآباء غلا في نفر يسير.

(٢/٥٣) قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣ ﴾.

هذه الآية الثالثة والخمسون من سورة البقرة، وفيها منة أخرى على بني إسرائيل، وذلك أن الله ﷻ أنزل على موسى عليه السلام التوراة سماها الكتاب لأنه كتبها تعالى بيده،

---

١) من الآية (١٤٢) من سورة الأعراف.

وسماها الفرقان لأن فيها الهدى الفارق بين الحق والباطل، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولا ريب أن العفوا عن الآباء فيه نعمة للأبناء.

(٢/٥٤) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) ﴾.

هذه الآية الرابعة والخمسون من سورة البقرة، وفيها محاولة من موسى عليه السلام لإصلاح ما أفسد قومه، فقد اتخذوا عجلا إلاها من دون الله مع وجود هارون عليه السلام وقوله: إنما فتنتم به، وقد بين الله عز وجل مادة ذلك العجل، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ ١، وبين تعالى المتسبب في هذه الفتنة العظيمة، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ ٢.

قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بين لهم موسى عليه السلام أنهم بعبادتهم العجل ظلمون أنفسهم باتخاذهم غير الله إلاهاً، وأن الخير في توبتهم، فيقتل بعضهم بعضا، وقُتل مَن عبدوا العجل، والقتل خير لهم من الخلود في النار، ومن لم يعبد العجل توبته قتل العابد، فلما امتثلوا ذلك أخبرهم موسى عليه السلام أن الله تاب عليهم، وهذه منة من الله عز وجل أن قبل توبتهم.

وإذا تأملت سياق الآيات تعجب كل العجب من صلف وعناد بني إسرائيل، وهي صفة قائمة فيهم إلى يومنا هذا، وربما إلى يوم القيامة، بعد أن قتلوا أنفسهم وتاب الله عز وجل عليهم، إختار موسى عليه السلام سبعين رجلا وذهبو ليعتذروا من عبادة العجل،

---

١) من الآية (١٤٨) من سورة الأعراف.

٢) من الآية (٨٧، ٨٨) من سورة طه.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾[1]، فلما حضروا الميقات ليعتذروا إلى الله ﷻ من عبادة العجل، إنبعث صلفهم وعنادهم مرة أخرى.

(٢/٥٥) قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والخمسون من سورة البقرة، وهي تؤكد صلف بني إسرائيل، ومعاندتهم للحق، فإنهم لما حضروا الميقات ليعتذروا عن عبادة العجل، أعربوا عن عدم إيمانهم بموسى عليه السلام حتى يروا الله عيانا لا يحجبه عنهم شيء، وهذا غاية في العناد ورفض الإيمان بموسى عليه السلام، ولذلك عاجلهم الله بالصاعقة، فكما نصرهم وأغرق عدوهم وهم ينظرون، أخذهم العذاب وهم ينظرون، والعجب أن يستمر عنادهم وقد تاب الله ﷻ عليهم وأعفاهم من العقاب على عبادة العجل، ورغم أن توبتهم كانت بقتل بعضهم بعضا، إلا أنهم يرتكسون في كل موقف، والعجب أن هذا قول الخيار من بني إسرائيل في ذلك الوقت.

(٢/٥٦) قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والخمسون من سورة البقرة، وهي تضيف منة لله ﷻ على بني إسرائيل، زيادة على ما سبق من نعم ومنن لم يقدرها بنوا إسرائيل، وقد بعثهم الله ﷻ بدعوة موسى عليه السلام، قال الله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ

---

1) من الآية (١٥٥) من سورة الأعراف .

﴿ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ ١، فاستجاب الله له وأحياهم بعد موتهم.

(٢/٥٧) قال تعالى:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

هذه الآية السابعة والخمسون من سورة البقرة، وهي تبين بعض ما أنعم الله به على بني إسرائيل، وهي نعم كثيرة طلب الله ﷻ من بني إسرائيل تذكُّرها كما في الآيتين الأربعين والسابعة والأربعين من سورة البقرة، فقد أجملها تعالى في الآيتين المذكورتين، وفصلها في هذه الآية، وآية الأعراف، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ ٢، فقد جعل الغمام ظلا لهم وهم تائهون في الصحراء، وقاهم الله ﷻ حر الشمس بهذه النعمة العظيمة، ورزقهم من الطيبات وهم في الصحراء، ومنها: المَن وهو على مااختاره الجمهور شيء أبيض كالعسل ينزل من السماء في الصباح الباكر ويتجمد كالجليد، وكان الرجل منهم يأخذ ما يكفيه ليومه، فإذا أخذ أكثر من ذلك فسد الزائد، إلا يوم الجمعة فيأخذ ما يكفيه يومها ويوم السبت، لعدم نزوله يوم السبت، ورزقهم السلوى هو طائر السُّمَاني يصيدونه بغير كلفة ولا عناء.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بين تعالى أن بني إسرائيل بصلفهم وعنادهم رغم تلك النعم المحفوفين بها وبكفرهم بها لم يظلموا إلا أنفسهم، والله عزيز حكيم لا يلحقه ظلم ولا حيف.

---

١) الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

٢) من الآية (١٦٠) من سورة الأعراف.

(٢/٥٨) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والخمسون من سورة البقرة، وفيها امتنان آخر من الله ﷻعلى بني إسرائيل بنعمة أخرى تضاف إلى غيرها من النعم السابق ذكرها، ولكن بنوا إسرائيل لم يشكروا الله ﷻ عليها، ولم يرعوها حق رعايتها، وقد عبَّر تعالى بقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ لما فيه من المبادرة إلى طلب الخير والنعمة، وعبَّر تعالى في قوله ﷻ: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1] عن الاستقرار والأمن والمتاع الحسن، ومع ذلك لم يصغ بنوا إسرائيل إلى ذلك، وما كان جوابهم عن تلك العروض الربانية سوى التمرد والإمعان في الضلال.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ كان هذا بعد التيه، وبعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام، إذ كان قائدهم إلى الدخول يوشع بن نون، وفيه توجيه لبني إسرائيل ليشكروا هذه النعمة ويجعلوا الإنحناء عند دخولهم الباب علامة على الرضى وقبول الحق، ولكنهم عتوا عن أمر ربهم، وقيل: إنهم بدلوا الإنحناء عند دخولهم الباب بالسجود على الأرض والزحف عليها، وليس غريبا إنهم بدلوا القول من "حطة" إلى "حنطة" وهو سهل عليهم، فمن باب أولى أن يبدلوا الفعل وهو أثقل من اللفظ.

قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ لم يقف بنوا إسرائيل عند ذلك الحد من الصلف والعناد بل حرفوا كلام الله ﷻ بزيادة حرف النون بعد الحاء من كلمة (حطة) التي معناها طلب التوبة والمغفرة، وحط الذنوب فقالوا زورا: "حنطة" فلم يطلبوا حط الذنوب، بل سخروا وطلبوا ما يأكلون، وهذا التبديل في حد ذاته معصية أخرى فوق عدم القبول، وقد حرم الله ﷻ تحريف كلامه فلا يجوز لأحد أن يبدل حرفا من كلام الله ﷻ لا

---

١) من الآية (١٦١) من سورة الأعراف.

ملك مقرب ولا نبي مرسل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فتحريف كلام الله معصية كبرى، وكفر به تعالى، يستحق فاعله العذاب العظيم.

(٢/٥٩) قال تعالى:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾.

هذه الآية التاسعة والخمسون من سورة البقرة، وهي تؤكد معصية بني إسرائيل ليس في مقابلة هذه النعمة فحسب، بل في كل نعمة أنعمها الله عليهم، وكان ظلمهم وفسوقهم سببا في نزول العذاب عليهم، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[2]، والرِّجز هو العذاب أيا كان نوعه، فإن لله ﷻ أن يعذب من شاء بما شاء، وهو على كل شيء قدير.

(٢/٦٠) قال تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾.

هذه الآية الستون من سورة البقرة، وهي تحكي مزيدا مما أنعم الله ﷻ به على بني إسرائيل في التيه، ولو عددتَ ما تقدم من النعم تجد أن هذه هي التاسعة، وإذا تأملت الآية الكريمة تجد أن نعمة السقيا في تلك المفازة الهائلة وفي وقت هم في حيرة

---

١) الآية (١٥) من سورة يونس.

٢) الآية (١٦٢) من سورة الأعراف.

شديدة لمعاناتهم في التيه المكتوب عليهم، تجدها نعمة عظيمة، ولولا ذلك الفضل من الله ﷻ لهلكوا من شدة العطش، ومن جانب آخر ترى في ذلك الحجر الأصم معجزة عظيمة لموسى ؑ، وبرهانا لا يقاوم على أن ما جاء به هو الحق، ودليلا جليا على عظمة الله ﷻ وقدرته على كل شيء.

وقد تتساءل لِمَ اثنتا عشرة عينا، وقد تكفي واحدة ؟! وفي هذا أمران:

الأول: صحيح أن انفجار عين واحدة من حجر أصم ينقل من مكان لآخر معجزة عظيمة، ولكنه أكبر إعجازا حينما يكون العدد أكبر.

الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[1]، لحكمة أرادها الله ﷻ جعلهم اثنتي عشرة قبيلة، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فكان تفجُّر الحجر باثنتي عشرة عينا أكثر إعجازا ومناسبة للحال.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمرهم رب العزة والجلال أن ينعموا مما رزقهم الله ﷻ، ونهاهم عن الفساد في الأرض، وهذا أيضا أمر لنا نحن المسلمين بالأكل من الطيبات والبعد عن الفساد أيا كان نوعه.

(٢/٦١) قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

---

١) الآية (١٦٠) من سورة الأعراف.

هذه الآية الحادية والستون من سورة البقرة، ومنها نفهم إمعان بني إسرائيل في التدلل على موسى ﵇، ولعلهم يهدفون إلى أبعد من التدلل وهو محاولة إعجاز موسى ﵇ أن يحقق لهم طلبا، فيدعو ربه تعالى فلا يستجيب له، فتعلوا حجتهم على موسى ﵇، وأنى لهم ذلك؛ لأن الله ﷻ وعد الأنبياء بالتأييد بالمعجزات، وبنصرهم على من عاداهم، لقد أنعم الله ﷻ على بني إسرائيل بنعم كثيرة، ولما كانوا في التيه أنعم عليهم بالمَنّ والسلوى يأكلون من غير كد ولا تعب، فضجروا من هذه النعمة، وتاقت أنفسهم إلى الثوم والبصل، وهذا إما أنه صدر عن جهل وغباء فلم يفرقوا بين النوعين من حيث الجودة، وإما أنه إمعان في التحدي والضلال فظنوا أن من أنزل المَنّ والسلوى لا يقدر على إيجاد الثوم والبصل، فبين لهم فساد رأيهم وعمى بصائرهم عن الاختيار الصحيح، إذ أعلنوا كراهتهم لتلك النعمة العظيمة، وهذا فيه سوء أدب مع الله ﷻ وهو معصية، أنكر الله ﷻ عليهم ذلك وأعلمهم أن ينزلوا مصر أرض الفراعنة ليجدوا ما طلبوا من الثوم والبصل وغيره، وفي تحديد مصر دون غيره تذكير بما كانوا فيه من الذل والإهانة، وليس الثوم والبصل أعز من المَنّ والسلوى.

قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾.

بين تعالى أنه ألزمهم الذل والهوان، واستحقوا غضب الله ﷻ عليهم، لقاء كفرهم بنعم الله ﷻ ومن أبرزها نجاتهم من فرعون وقومه، وشق البحر طريقا يبسا لسلامتهم، وإطعامهم في التيه المَنّ والسلوى، وتفجر الحجر بالماء العذب للسقيا، وتظليلهم بالغمام، وكلها آيات لله أيد بها رسوله موسى ﵇، فلم يشكرها بنوا إسرائيل، فكان حقا حرمانهم منها وتعويضهم عنها الذلة والهوان، والثوم والبصل، وغضب المنعم المتفضل عليهم، فإنهم قوم ديدنهم الكفر والفسوق فقد توارثوا الفساد في الأرض، فالذين قالوا هذا قتَلَ آباؤهم الأنبياء، فعمهم غضب الله وشملهم الذل والهوان، بسبب عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء، ومن أعظم ما عصوا الله ﷻ به عبادتهم العجل، وقولهم: أرنا الله جهرة، وقولهم: فاذهب أنت وربك فقاتلا، وغير ذلك، وهكذا كل نعمة يجب شكرها بإظهار أثرها في طاعة الله ﷻ، ومن أظهر ضدها فقد عصى الله ﷻ

واستحق العقوبة قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1].

(٢/٦٢) قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

هذه الآية الثانية والستون من سورة البقرة، وهي ألتفات عن الكلام عن بني إسرائيل وكفرهم بنعم الله ﷻ عليهم، وما آل أمرهم إليه من غضب الله ﷻ عليهم، وإحلال الذل والهوان عليهم عقوبة عصيانهم واعتدائهم، تحول الكلام إلى المؤمنين بالله ﷻ على أختلاف دياناتهم السماوية، وكذلك اختلاف أعراقهم، وفي هذا توجيه إلى رحمة الله ﷻ بعباده، ودعوتهم إلى الإيمان به تعالى، وبيوم الجزاء والحساب، وأن يُتْبعوا ذلك بالعمل الصالح، وفي هذا بشارة للصالحين من الأمم أن لهم أجرهم على إيمانهم وصلاحهم، وأنهم آمنون يوم القيامة فلا يلحقهم خوف ولا حزن، فهم عند الله ﷻ سواء، وقد ذكر الله ﷻ في هذه الآية أربع أمم فقط، الذين آمنوا بمحمد ﷺ وهم المسلمون، والذين هادوا هم اليهود من بني إسرائيل، وهم أتباع هوذا "بالذال المعجمة" أحد الأسباط، والنصارى أتباع عيسى عليه السلام، والصابؤن قيل: هم أهل كتاب يزعمون أنه أنزل على شيث بن آدم، وقيل: هم وثنيون يعبدون الكواكب السيارة والملائكة. وإذا تأملت ذكر هذه الأمم هنا دون غيرها تجد أنهم أصحاب كتب سماوية، سبقت الإسلام، ولكون الإسلام ناسخا لما سبقه من الكتب السماوية فإن الأحرى بهم اتّباع الأنبياء السابقين والتصديق بنبوة محمد ﷺ وقبول الإسلام، وليس المراد تخصيص هؤلاء بالدعوة دون سواهم فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

١) الآية (١٦) من سورة سبأ .

﴿شَهِيدٌ﴾[1]، وهنا وقع الشمول لجميع البشر، وإن تعددت المسميات فهم لا يخرجون عن هذا كالدهريين والزنادقة وغير ذلك، فالإسلام يدعوهم جميعا وفيه تأنيس لكل الأجناس، وأنهم جميعا عباد الله ﷻ، والإسلام يتسع لهم جميعا لما فيه من العدل والرحمة والمساواة، ومن أدرك نبوة محمد ﷺ فليس له إلا الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

(٢/٦٣) قال تعالى:

قَالَ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة والستون من سورة البقرة، أخذ الله ﷻ على بني إسرائيل الميثاق، وهو العهد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[3]، وبين تعالى أنه بعد أخذ الميثاق أرسل إليهم رسلا[4]، وبعد أخذ الميثاق بعث إليهم النقباء[5]، وأخذ عليهم الميثاق بأن لا يقتلوا أنفسهم[6]، فبنوا إسرائيل أسلاف اليهود أعطوا موسى عليه السلام المواثيق على امتثال ما أنزل الله عليه، وجماع هذه المواثيق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ

---

١) الآية (١٧) من سورة الحج.

٢) الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

٣) من الآية (٨٣) من سورة البقرة.

٤) من الآية (٧٠) من سورة المائدة.

٥) من الآية (١٣) من سورة المائدة.

٦) من الآية (٨٥) من سورة البقرة.

فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١]، ولكنهم نقضوا المواثيق، ولم يفوا بشيء منها فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[٢]، ولكنهم نقضوا المواثيق، ولم يفوا بشيء منها فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾.

وآية البقرة هذه عود على بدء في الحديث عن بني إسرائيل وعدم انصياعهم للمعجزات التي توالت عليهم بين الترهيب والترغيب، وكان جبل الطور الذي رفعه الله ﷻ حتى استقر عاليا فوق رؤوسهم كأنه سحابة تظلهم أحد المعجزات، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾[٣]، وكان هذا الإعجاز العظيم من أجل أن يقبلوا الحق الذي جاء به موسى ؑ، وهو ما بينه الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٤]، فلم تكن من بني إسرائيل استجابة سوى الاعتراف بالسماع والعصيان، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[٥]، وعبدوا العجل، وكان هذا منهم غاية في أذى موسى ؑ، وما أشبه الليلة بالبارحة يقف أهل الكتاب لإيذاء نبينا محمد ﷺ كما وقف أسلافهم لإيذاء موسى ؑ، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[٦]، وفي الحقيقة كل ما ورد من الكلام عن بني إسرائيل في عهد موسى ؑ هو تذكير لخَلَفهم من اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ بما أنعم الله ﷻ به على أسلافهم، فعصوا وكانوا يعتدون، ولكن اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ لم يكونوا خيرا

---

١) الآية (١٢) من سورة المائدة.

٢) الآية (١٢) من سورة المائدة.

٣) الآية (١٧١) من سورة الأعراف.

٤) الآية (٥٣) من سورة البقرة.

٥) الآية (٩٣) من سورة البقرة.

٦) الآية (١٥٣) من سورة النساء.

من أسلافهم رغم ذلك التذكير، ومنهم من هدى الله كعبد الله بن سلام ﷺ وغيره من اليهود الذين أسلموا.

(٢/٦٤) قال تعالى:

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والستون من سورة البقرة، وفيها بيان المزيد من صلف بني إسرائيل وعنادهم، وإعراضهم عن طاعة الله ورسوله، وقد قابل الله ﷻ ذلك التولي والإعراض بالفضل والرحمة، ولولا كمال فضل الله ﷻ وكمال رحمته لكان الخسران مآلهم وعاقبة أمرهم، ولعاجَلهم بالهلاك، ولما بقي لهم نسل، ولاسيما في حال عبادتهم العجل، وفي هذا موعظة لليهود في عهد نبينا محمد ﷺ لو كانوا يعقلون.

(٢/٦٥) قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والستون من سورة البقرة، وهي تذكر بني إسرائيل سلفا وخلفا بتفننهم في معصية الله ورسوله، مع تقرير علمهم بذلك، والقصة معروفة لبني إسرائيل، فصلها تعالى في قوله: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[١]، القرية هي أيلة، وهي المعروفة اليوم بالعقبة، الواقعة على خليج من البحر الأحمر، معروف بخليج العقبة، وقد حكم الله ﷻ على أهلها بتحريم العمل في يوم السبت، وأمرهم أن يتفرغوا فيه للعبادة، وابتلاهم بظهور الحيتان يوم السبت بكثرة، فاستخفوا بحكم الله تعالى، واحتالوا لصيد الحيتان يوم السبت بحُفر حفروها يوم الجمعة على الشاطئ، لتدفع الأمواج بالحيتان فيها يوم السبت، ويصطادونها يوم الأحد، وقد عاقبهم الله ﷻ بالمسخ لأنهم استخفوا بحكم الله

---

١) الآية (١٦٣) من سورة الأعراف.

ﷻ، واستحلوا العمل في يوم السبت وقد حرم الله ﷻ عليهم ذلك، واحتالوا للصيد فيه، لأن وقوع الحيتان في الحفر يكون في يوم السبت، فعوقبوا بالمسخ، واختلف العلماء فيه فقيل: حقيقة فقد تحولوا من بشر إلى قردة، وقيل: بل الصور بقيت على هيئة البشر، ومسخت عقولهم حتى صارت كعقول القردة، إذ لم يعملوا بما شرع الله ﷻ لهم، وظاهر الآية يقوي المسخ حقيقة، وليعلم أن الصحيح أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، سأل رجل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي مما مسخ ؟، فقال النبي ﷺ: « **إن الله ﷻ لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك** »[1]، وليعلم أن أصحاب السبت لم تُذْكر قصة الاعتداء في التوراة، لأنها وقعت في عهد داود عليه السلام فدعا عليهم قال:" اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين، فمسخهم الله قردة " قال بعض العلماء: الذين لعنوا على لسان داود هم الذين اعتدوا في السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم، هم الذين كفروا من أهل المائدة، وفي اصطلاح الشرع: اللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعلوم أن المسخ من أكبر أنواع الطرد والإبعاد[2].

(٢/٦٦) قال تعالى:

﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والستون من سورة البقرة، وهي تشير إلى أن عقوبة المسخ جعلها الله ﷻ عقابا شديدا على من حل بهم المسخ، وجعله رادعا لمن يلحق بهم، وعبرة لأهل التقوى من عباد الله تعالى في كل زمان ومكان.

---

١) مسلم حديث (٤٨١٥).

٢) أضواء البيان الآية (٦٥) من سورة البقرة.

(٢/٦٧) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والستون من سورة البقرة، وهي تذكر بمعاناة موسى عليه السلام مع قومه الذين تمادوا في الاستخفاف بالشريعة التي أتاهم بها، وأخذوا يتفننون في العناد والعنت، وصرف الأمور عن مسارها الصحيح، وهذا التذكير يستفيد منه المؤمنون بمحمد ﷺ من اليهود وغيرهم، وهو تذكير لمن لم يؤمن منهم بما كان من أسلافهم، إذ كان ديدنهم الشك والتشكيك فيما جاء به موسى عليه السلام، فهم يستغربون كل أمر يدعوهم إليه، ويشككون في صحته، لذلك اعتبروا أمر ذبح البقرة استهزاء بهم أقدم عليه موسى عليه السلام، بل استهزاء من الله عز وجل على قراءة أيتخذنا، وقد قادهم جهلهم إلى الكفر ولاسيما على هذه القراءة، فأجابهم موسى عليه السلام بما يدل على أنهم جاهلون، واستعاذ أن يكون منهم، لشكهم فيما جاء به من الحق، ولجهلهم أن ذلك الأمر تكليف من عند الله عز وجل، وإذا أمعنت النظر في الآية الكريمة تجد أن الأمر بذبح البقرة حكم جديد تعبد الله به بني إسرائيل، وجعل منه معجزة لكشف قصة القتل السابق عندهم بزمن، والتالي ذكرها لاحقا.

(٢/٦٨) قال تعالى:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والستون من سورة البقرة، وهي تكشف ضعف عقول بني إسرائيل وقوة صلفهم وتمردهم، فقد أكثروا التردد في القبول، وبذلوا من أسباب التنصل من الاستجابة ما ظنوا أنه يعفيهم من التنفيذ، فالخطوة الأولى السؤال عن البقرة ماهي؟! وهو سؤال سخيف، لأنه قادهم إلى المزيد من الأسئلة، ولو أنهم استجابوا بذبح أي بقرة لكفاهم ذلك، فقد ورد الأمر بذبح بقرة بلفظ التنكير، فلا يلزمهم ما قاسوا عليه من

صفات القرابين، وقد قادهم عنتهم إلى الاستفسار عن العمر فقالوا ما هي؟!، أي ما هو سنها، فجاء الجواب على قدر السؤال محددا السن لا فارض وهي الكبيرة التي انقطع ولادها، ولا بكر وهي الصغيرة التي لم تلد بعد، عوان بين ذلك، وكان يكفيهم أي نوع مما بين الفارض والبكر، وقد ذُيلت الآية الكريمة بما يشير إلى عدم التمادي في الأسئلة، فإن الأيسر لهم الاقتصار على ذبح أي بقرة، ولما لم يفعلوا وسألوا عن السن فليفعلوا ما أمروا به دون مبالغة في الأوصاف، فكان طبعهم الغالب وهو العنت والعناد.

(٢/٦٩) قال تعالى:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والستون من سورة البقرة، وهي تبين الخطوة الثانية في أمر تلك البقرة، حيث انتقل بنوا إسرائيل من السؤال عن العمر إلى السؤال عن اللون، فجاءت الإجابة أشد وضوحا من الشمس، وحددت اللون أن البقرة صفراء فاقع لونها جميلة، وإذا أمعنت النظر تجد أن بني إسرائيل أوغلوا في التشديد على أنفسهم، وكان الأسهل عليهم ذبح أي بقرة ولم يفعلوا، وكان السهل أن يذبحوا بقرة مما بين الفارض والبكر ولم يفعلوا، ودخلو مرحلة الشدة بالسؤال عن اللون فإن فقوع اللون المراد به خلوصه من الاشتباه بلون آخر، وهذا نادر الوجود، ولم يفعلوا.

(٢/٧) قال تعالى:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه الآية السبعون من سورة البقرة، وهي تبين الخطوة الثالثة من تشدد بني إسرائيل في السؤال عن تلك البقرة، فقد برزت الندرة لأوصاف البقرة فتشابهت الأوصاف عليهم، وهنا أظهروا شيئا من اللين وبعض التنازل عن العجرفة والغلو.

(٢/٧١) قال تعالى:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والسبعون من سورة البقرة، وفيها الإجابة على السؤال المتقدم في الآية السابقة، ولكنها إجابة جاءت بأشد فذكرت أوصافا أخر، فالبقرة المطلوب ذبحها علاوة على ما ذكر هي أيضا لا تعمل في حرث الأرض، فليست مذللة لذلك، ولا تعمل في السقي، وهي صافية في لونها خالية من العيوب، وهنا أذعنوا للحق على مضض، بدليل تذييل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ وقد ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة.

وإنك لتعجب من ضلال الرافضة حينما فسروا البقرة بأنها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، مع هذا التفصيل في عمر وصفات تلك البقرة، وأنها ذبحت من قبل بني إسرائيل، ولكن الحقد أعمى بصائرهم عن الحق فكذبوا على الله ﷻ، وهذا من أعظم الضلال.

(٢/٧٢) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والسبعون من سورة البقرة، وهي تذكير بقصة وقعت لبني إسرائيل، والنفس تشمل الذكر والأنثى، وقد بين في الآية التالية أنها ذكر بقوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ وكان بنوا إسرائيل يتدافعون التهمة بالقتل، وكل فريق يدرأ عن نفسه التهمة، ويزعم أنه بريء، فوعد الله ﷻ بكشف الحقيقة، وإظهار ما كتموا من الحق.

(٢/٧٣) قال تعالى:

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والسبعون من سورة البقرة، وهي بيان لتلك المعجزة العظيمة التي أيد الله بها رسوله موسى ﷺ وحجة دامغة على بني إسرائيل، وقطع لنزاع في شأن القتيل قيل: إنه دام سنين طويلة، فذكَّر الله ﷻ بذلك الحدث. وتلك المعجزة حيث أمرهم أن يضربوا ببعض أعضاء البقرة جسد الميت أوقبره على خلاف بين العلماء، وبين تعالى أنهم إن فعلوا ذلك فإنه تعالى يحييه فينطق باسم قاتله، وذلك إظهار لآياته تعالى وقدرته على كل شيء، وإذا أمعنت النظر في الآية الكريمة تجد فيها دلالة على البعث بعد الموت، وهو مآل بني آدم أجمعين.

(٢/٧٤) قال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾.

هذه الآية الرابعة والسبعون من سورة البقرة، بين تعالى أسباب هذه القسوة فقال ﷻ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2]، ولو راجعت ما مر لوجدت أن بني إسرائيل أعطوا من المعجزات ما لم تعط أمة من الأمم، وبعد تلك البينات كفروا بالله ﷻ في كل مرة، وحصل منهم من الصلف والعناد ما لم يحصل من أمة من الأمم، وقست قلوبهم من كثرة الجفا وسوء الأدب مع الله ورسله، وكانوا في القسوة أشد من الحجارة، وكانت الحجارة أخشى لله منهم، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[3]، وما تفجرت الحجارة بالأنهار

---

١) من الآية (١٣) من سورة المائدة.

٢) من الآية (١٦) من سورة الحديد.

٣) من الآية (٢١) من سورة الحشر.

إلا استجابة لأمر الله، وما تشققت وخرج منها إلا طاعة لأمر الله، وقد وصف الله ﷻ بني إسائيل بكثرة الفسّاق، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1]، وقال تعالى في سياق بني إسرائيل أيضا: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[2].

(٢/٧٥) قال تعالى:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والسبعون من سورة البقرة، وفيها التحول إلى مخاطبة المؤمنين، وذلك أن الأنصار ﷺ كان لهم طمع في إسلام اليهود، للحلف والجوار الذي كان بينهم، فأنكر الله عليهم ذلك، لأن اليهود لهم أسلاف تبجحوا مع الله ورسوله بأفعال سوء أتوها، ولأن فريقا من اليهود وهم الأحبار أخفوا صفة نبينا محمد ﷺ المذكورة بجلاء في التوراة، ولأنهم أوّلوا أوحرفوا ألفاظا في التوراة، مع علمهم بصحتها، فهذه الأسباب وغيرها أيأست من الطمع في إيمان اليهود بنبوة محمد ﷺ، وقد استحفظهم الله على كلامه المنزل في التوراة، وأوكل حفظه إليهم فخانوا الأمانة، وتعمدوا تحريف كلام الله ﷻ، ومن فضل الله على أمة محمد ﷺ أنه تعالى لم يكل إليهم حفظ القرآن، بل تكفل بحفظه تعالى فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[3]، فلا قدرة لأحد كائنا من كان على تبديل حرف منه فضلا عن لفظة أو آية، ولو تجرأ أحد فحاول أن يبدل حرفا أو يزيده أو ينقصه لرد عليه الملايين من أطفال المسلمين فضلا عن

---

١) من الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

٢) من الآية (٢٧) من سورة الحديد.

٣) الآية (٩) من سورة الحجر.

كبارهم وعلمائهم، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ١، فلله الحمد والمنة على هذا الحفظ العظيم.

(٢/٧٦) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والسبعون من سورة البقرة، وفيها بيان لسلوك اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ وهو سلوك لا يكاد يختلف عن سلوك أسلافهم مع موسى عليه السلام، فكان المنافقون من اليهود يخادعون كما تقدم بيانه في الآية التاسعة من سورة البقرة، فإنهم عند ملاقاتهم للمؤمنين يظهرون الإيمان نفاقا خوفا إما من قوة الحجة والبيان، وإما من سطوة السيف والسنان، وإذا كانوا في خلوة من المؤمنين لام بعضهم بعضا إما على ما قد يخبر به بعضهم من صفة نبينا محمد ﷺ المذكورة في التوراة، أو ببعض ما وقع لأسلافهم من العذاب، فإن كان الإخبار بالأول فهو حجة عليهم، وإقرار منهم بنبوة محمد ﷺ، وإن كان الثاني فهو حجة على ضلالهم باتباع أسلافهم وقد نزل بهم العذاب بما كانوا يفعلون.

(٢/٧٧) قال تعالى:

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والسبعون من سورة البقرة، وهي تقرّع اليهود على إظهارهم الإيمان عند ملاقاة المؤمنين، وإبطانهم الكفر، وقد علموا أن الله ﷻ يعلم ما يسرون من الكفر، وما يعلنون من النفاق.

---

١) الآية (٤٢) من سورة فصلت.

(٢/٧٨) قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والسبعون من سورة البقرة، وهي تبين أن من اليهود عوام لا يقرؤن ولايعلمون الكتاب، لكنهم يتمنون أشياء باطلة، يبين هذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ١، وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ٢، وفي هذه الآية جمع بين أماني العرب وأهل الكتاب، وبين أماني العرب في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ٣، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ٤، فالأمر لا يتعلق بالأماني، بل بالعمل والجزاء من جنس العمل.

(٢/٧٩) قال تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والسبعون من سورة البقرة، وفيها الوعيد الشديد لمن يكتبون كلاما موضوعا من عند أنفسهم لم يأت به رسول من عند الله ﷻ، ويزعمون لأتباعهم أنه من عند الله ﷻ، وهذا هو الذي فعله أحبار اليهود والنصارى الذين حرفوا التوراة والإنجيل، وفي هذا الأمر عبرة لكل من يكتب الباطل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا

١) الآية (١١١) من سورة البقرة .
٢) الآية (١٢٣) من سورة النساء.
٣) الآية (٢٩) من سورة الأنعام.
٤) الآية (٣٥) من سورة سبأ.

يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[2].

ولقد فاق الرافضة ذين يلوون ألسنتهم من أهل الكتاب، وأتوا بالكفر والطامات كذبا وزورا على الله ورسوله وعلى علي وذريته ﷺ، وهم بحق يحرفون دلالات القرآن عن معناها الصحيح، قاتلهم الله.

(٢/٨٠) قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

هذه الآية الثمانون من سورة البقرة، وهي توضح أمنية أخرى يزعمها اليهود لأنفسهم، وهي زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما بعدد الأيام التي عصوا فيها، وهذا من أسباب جرأتهم على المعاصي، فبين الله ﷻ أن ذلك زعم باطل، فلم يتخذوا به عهدا من الله ﷻ، وإنما هو قول على الله ﷻ بغير علم، وهو من أكاذيب اليهود وافتراءاتهم على الله ﷻ، وجرأتهم على الله ﷻ لا حدود لها، ومما حكى الله ﷻ عنهم أنهم قالوا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[3]، فرية عظيمة تعالى الله عنها علوا كبيرا.

وما تلهم الرافضة حين زعموا عليا يدخلهم الجنة، ويدخل غيرهم النار، وأنه موكل من الله ﷻ بذلك.

---

١) الآية (٧٨) من سورة آل عمران.

٢) الآية (٤٦) من سورة النساء.

٣) الآية (١٨) من سورة المائدة.

(٢/٨١) قال تعالى:

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والثمانون من سورة البقرة، وفيها إشارة إلى رد ذلك الزعم الباطل، فهم أصحاب سيئات ومعاصي، وخطاياهم كثيرة قد أحاطت بهم من كل جانب، ومن كانت هذه حاله فلا ريب أنه من أهل النار، وأنه من الخالدين فيها، وليس ينفعهم ما يدّعون، ومن سيئاتهم المحيطة بهم كفرهم بالله ﷻ ورسوله، ولذلك استحقوا الخلود في النار.

(٢/٨٢) قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والثمانون من سورة البقرة، وفيها التفات إلى المؤمنين بالله ورسوله وبشارتهم بالجنة لقاء تصديقهم الرسول، وعملهم بما جاء به من الحق، وقد بشرهم الله بالجنة ونعيمها في آيات كثيرة في الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [١].

(٢/٨٣) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

١) من الآية (٢٢) من سورة الشورى.

هذه الآية الثالثة والثمانون من سورة البقرة، وهي تذكر بميثاقٍ أخذ على بني إسرائيل، وما أكثر ما نكثوا مواثيقهم مع الله ﷻ، والآية تذكر اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ بالميثاق الذي أخذه الله ﷻ على أسلافهم في عهد موسى ﷺ وقد بين في الآية الكريمة بنود ذلك الميثاق، **فالأول** منها عبادة الله، و**الثاني** بر الوالدين، والثالث صلة ذوي القربى، و**الرابع** رعاية اليتامى والمساكين، و**الخامس** المعاملة الحسنة لكل الناس، و بعد سماع ما قص الله ﷻ عن أسلافهم كان الموقف اليهودي التولي والإعراض تأسيا بأسلافهم، إلا نفر قليل منهم آمنوا منهم عبد الله بن سلام ﷺ.

(٢/٨٤) قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

هذه الآية الرابعة والثمانون من سورة البقرة، وهي عود على بدء في الكلام على بني إسرائيل، وذكر ميثاقٍ آخر أخذه الله عليهم بأن لا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم، وهذا الميثاق يهدف إلى تثبيت الرحمة والإخاء في قلوب بني إسرائيل ليرحم بعضهم بعضا، ويعيشوا بأمن وسلام، فأقروا بذلك الميثاق وشهدوا به.

(٢/٨٥) قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه الآية الخامسة والثمانون من سورة البقرة، وهي توضح بجلاء غدر بني إسرائيل، ومناوأتهم لما أخذ الله ﷻ عليهم من المواثيق، فأخذ بعضهم يقتل بعضا، نقضا لذلك

الميثاق، وأخرج بعضهم بعضا من ديارهم ظلما وعدوانا، وزادوا على ذلك أخذ الفداء من الذين أسروهم وذلك محرم عليهم، وتخيروا من الكتاب المنزل عليهم ما يروقهم، ورفضوا ما سواه، فعاقبهم الله على ذلك بأمرين:

الأول: في الدنيا وهو ما وقع لهم من قتل وتشريد وذل وهوان، فضربت عليهم الذلة والمسكنة، وهو ما تقدم بيانه في الآية الحادية والستين من سورة البقرة.

والثاني: في الآخرة توعدهم الله ﷻ بأشد العذاب.

(٢/٨٦) قال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والثمانون من سورة البقرة، وهي تبين حرص بني إسائيل على الحياة وما فيها من الشهوات في مقابل تفريطهم في الآخرة وما فيها من النعيم، وقد تقدم مثل هذا الحكم في الآية التاسعة عشرة من سورة البقرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ ولما كان هذا هو اختيارهم فقد توعدهم الله ﷻ بأن لا يخفف عنهم العذاب في الآخرة، ولا يجدوا من ينصرهم، وهذا نظير ما ورد في الآية الثامنة والأربعين من سورة البقرة ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ فكل مَن يختار الحياة الدنيا على الآخرة، يُقدم على ذنب عظيم في الدنيا فيناسبه العذاب العظيم في الآخرة، ولا يجد له نجاة من ذلك، ولا يجد نصيرا.

(٢/٨٧) قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والثمانون من سورة البقرة، وهي تؤكد ما سبق من إرسال موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وإنزال التوراة عليه شريعة لهم، فكان منهم الجفاء والعصيان، وأصبح ذلك شأنهم مع كل الأنبياء بعد موسى عليه السلام، الذين أرسلهم الله ﷻ مؤيدين لشريعة موسى عليه السلام وكان منهم يوشع، وإلياس، وأرمياء، وداوود، عليهم السلام أرسلهم الله معززين لموسى ومحاورين لبني إسرائيل بالترغيب والترهيب شأنهم شأن موسى عليه السلام ولكنهم قابلوهم بالأسلوب الذي اتبعوه مع موسى عليه السلام، وكان آخر من أرسله الله إلى بني إسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام مؤيدا لبعض ما جاء به موسى عليه السلام بآيات بينات، وناسخا للبعض بما جاء في الإنجيل، ومبشرا بنبينا محمد ﷺ، ولكن بني إسرائيل قابلوا ذلك بالاستكبار، شأنهم في معارضة الحق وعدم الإذعان له، فهم لا يهوون إلا الباطل، فاستكبروا على الرسل، وكذبوهم فيما دعوهم إليه، بل تجرأوا فقتلوا فريقا منهم، فلا غرابة في تكذيب خلفهم بنبوة محمد ﷺ الرسول العربي، فهم أعداء الرسل السلف والخلف، فمحمد ﷺ أولى عندهم بذلك، وكان تكذيبهم لنبينا محمد ﷺ حسدا ومكابرة، بيّن الله ﷻ أن ذلك التكذيب ليس خاصا به ﷺ بل هو شأنهم مع موسى ومن جاء بعده عليهم السلام، كذبوا منهم فريقا، وقتلوا آخرين.

(٢/٨٨) قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والثمانون من سورة البقرة، وهي تبين إغراق بني إسرئيل في الضلال، واعترافهم بأن قلوبهم مغلفة عن الحق، وهو الأمر الذي يتفق مع أحوالهم مع كل الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، ولذلك طبع الله على قلوبهم فقل منهم الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]، فالتقى المعنيان فاللعن معناه الطرد والإبعاد من رحمة الله، ومن طبع الله على قلبه فقد طرده من رحمته.

---

١) من الآية (١٥٥) من سورة النساء.

(٢/٨٩) قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والثمانون من سورة البقرة، وهي تحوُّل إلى الكلام عن اليهود بعد مبعث نبينا محمد ﷺ فإنهم لما جاءهم القرآن من عند الله ﷻ مبعوثا به محمد ﷺ، والقرآن مصدق لما معهم من علم التوراة، فإنهم يعلمون أن نبياً سيبعث في أرض الحجاز، ولذلك كانوا يستنصرون بخروجه على العرب، فقد جاور اليهودُ الأوس والخزرج، وكانت الحرب سجالا بينهم، فيقول اليهود سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه، فلما بعث الله نبينا محمدا ﷺ كفر به اليهود لمَّا عرفوا أنه من العرب، لا لجهل به بل لحسد، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ١، آثروا الدنيا على الآخرة فكفروا بنبوة محمد ﷺ، وهم يعلمون أنه الحق من صفته في التوراة، وكانوا يخبرون العرب بظهوره ﷺ وصفته، ويستنصرون بذلك عليهم، ويدعون الله ﷻ أن يعجل بظهوره ليقتلوا مشركي العرب وغيرهم، فأخلفوا الله ما وعدوه من الإيمان بالموصوف في التوراة، فكانت لعنة الله عقابا لهم لقاء جحودهم الحق وكفرهم بما جاء مصدقا لما معهم.

والرافضة اليوم ينتظرون خروج المهدي المزعوم، وله في السرداب أكثر من (١٢٠٠) الف مائتي ستة، وهم في غاية الشوق إلى خروجه؛ يرددون "عجل الله فرجه" وذلك التلهف من أجل قتل العرب عن بكرة أبيهم، فالتقى الفريقان على خبث قد كثر.

---

١) من الآية (١٠٩) من سورة البقرة .

(٢/٩٠) قال تعالى:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

هذه الآية التسعون من سورة البقرة، وهي في سياق الذم لبني إسرائيل وهم اليهود الذين كفروا بنبوة نبينا محمد ﷺ، وكفروا بما أنزل الله ﷻ عليه من البينات، لذلك ذمهم ربنا تبارك وتعالى، وسفه رأيهم حيث رضوا لأنفسهم الكفر بنبينا محمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، مع علمهم بما تضمنته كتبهم من الإخبار بمجيئه بعد موسى وعيسى عليهما السلام، والشراء هنا بمعنى البيع، أي باعوا أنفسهم لداعي الهوى والحسد، فكان مآلهم الكفر بما أنزل الله ﷻ، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾[1] ويصح أن يكون الشراء على بابه، بناء على زعمهم أنهم استبْقَوا أنفسهم على الحق حين كفروا بمحمد ﷺ وما جاء به، وعدّوا ذلك شراءً لا بيعا، وهو عين الخسران لإيثارهم أنفسهم في الدنيا، وكان شراءً بحسب ما يعتقدون، وكانت النتيجة أن حصلوا على غضب مضاعف من الله ﷻ، أي غضب شديد، ومثله قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾[2] أي مضاعفة، يقابل هذا قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[3]، ولكنهم كفروا بعيسى ﵇ المبشر بنبينا محمد ﷺ، وكفروا بنبوة نبينا محمد ﷺفاستحقوا العذاب الذي فيه إهانتهم وغاية ذلهم واحتقارهم، وهذا مآل الكافرين.

(٢/٩١) قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

---

١) من الآية (١٦) من سورة البقرة.

٢) من الآية (٤٠) من سورة النور.

٣) من الآية (٣٥) من سورة النور.

هذه الآية الحادية والتسعون من سورة البقرة، وهي في سياق بيان حال بني إسرائيل اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ، وإذا تأملت تجد أن هذه الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]، وهذه الآية أيضا معطوفة على الآية قبلها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]، وفي هذا توضيح لمنهج اليهود في عدم الإيمان بنبوة محمد ﷺ، وما جاء به من الحق، وبالأنبياء من قبله، فإذا طلب منهم اتّباع الحق قالوا: قلوبنا مُغلفة عنه بشدة، وإذا سمعوا القرآن أعرضوا عنه، وقد كانوا ينتظرون نزوله، ويستنصرون به على مشركي العرب وغيرهم، ولما قيل لهم آمنوا بالقرآن، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، يعنون التوراة على موسى عليه السلام، وفي الحقيقة لم يؤمنوا إلا بما تهوى أنفسهم لذلك حرفوا ما نزل عليهم، وهذا منهم كفر بما نزل عليهم، وفيه الخبر اليقين بنبوة محمد ﷺ ونزول القرآن وهو الحق مصدقا لما معهم من التوراة، فكان الصارف لهم عن الإيمان بمحمد ﷺ الحقد والحسد فلم يرضوا أن يكون النبي من غيرهم، ولما زعموا أنهم لا يؤمنون إلا بما نزل عليهم، رد الله تعالى عليهم هذا التعلل بأن منهج أسلافهم تكذيب الرسل وقتلهم مع أنهم منهم، وألزمهم بما فعل أسلافهم، فبطلت دعواهم.

(٩٢/٢) قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والتسعون من سورة البقرة، وهي تؤكد أكاذيب ومزاعم اليهود في دعوى الإيما بما أنزل عليهم، فقد زعموا في الآية السابقة أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم، وأنه يكفيهم ما في التوراة والإنجيل، فكذبهم الله ﷻ بأن موسى عليه السلام جاءهم

---

١) الآية (٨٩) من سورة البقرة.

٢) الآية (٨٨) من سورة البقرة.

أسلافهم بالبينات وهي المعجزات، بين ذلك تعالى في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ ١، وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ ٢، وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾٣، آيات عظيمة تكفي الواحدة منه لإيمانهم، وقد شاهدوا الكثير منها، ومنها أيضا: تظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر المنقول يتفجر منه الماء متى شاؤا، ومع ذلك لم يؤمنوا وعبدوا العجل في سفه منهم وظلم لأنفسهم، فاتضح أن منهج اليهود مع نبينا محمد ﷺ لا يختلف عن منهج أسلافهم مع موسى عليه السلام في عدم الإيمان.

(٢/٩٣) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والتسعون من سورة البقرة، وهي في السياق السابق في إيراد حجة أخرى على ضلال أسلاف اليهود وما حدث لهم مع رسول الله إليهم موسى عليه السلام، فقد أخذ الله ﷻ على بني إسرائيل أسلاف اليهود الميثاق، وقد تقدم بيان المواثيق المأخوذة عليهم عند الكلام على الآية الثالثة والستين من سور البقرة، وخلاصة ذلك أنهم لم يفوا بشيء، فاستحقوا غضب الله ﷻ ولعنته.

وقد كرر الله ﷻ ذكر رفع الطور لخبر جديد عن عناد بني إسرائيل أسلاف اليهود فإنه أخبر عنهم أنهم تولوا من بعد ذلك، فلولا فضل الله عليهم ورحمته لكانوا من

١) الآية (١٣٣) من سورة الأعراف.

٢) الآيتان (٣٢، ٣٣) من سورة الشعراء.

٣) الآية (٦٣) من سورة الشعراء.

الخاسرين، والجديد هنا قولهم: سمعنا وعصينا، وهذا عناد منهم وصلف، وكان الأجدر أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، بدلا من هذا، وقد تشربت قلوبهم العصيان وتمادوا في ذلك حتى أُشربت قلوبهم حب عبادة العجل، وقد عاقبهم الله بذلك بسبب كفرهم، وزعمهم أنهم آمنوا، فرد الله عليهم ذلك الإيمان المزعوم وثلب ذلك الإيمان لأنه لا يأمرهم بخير، فهو إيمان مزعوم لا حقيقة له في واقع الأمر.

(٢/٩٤) قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

هذه الآية الرابعة والتسعون من سورة البقرة، وفيها رد على ما يدعيه بنوا إسرائيل أسلاف اليهود من تمسكهم بما أنزل على موسى عليه السلام وأنهم بذلك استحقوا محبة الله ﷻ، وأن الجنة لهم خالصة من دون الناس، فأقام الله تعالى الحجة عليهم بأن يتمنوا الموت ليظهر صدقهم، وذلك بأن يدعوا بالموت على الكاذب من الفريقين، ولن يتمنوه لعلمهم بأنهم كاذبون، وبأن الدعاء مباهلة مع الله ﷻ تكون نتيجتها خسرانهم في الدنيا والآخرة، ولو تمنوه يوم ذاك لماتوا ولم يبق منهم يهودي على وجه الأرض، وياليتهم فعلوا.

(٢/٩٥) قال تعالى:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

هذه الآية الخامسة والتسعون من سورة البقرة، وهي تؤكد نفي دعوى بني إسرائيل أسلاف اليهود أن الجنة خالصة لهم من دون الناس، بناء على زعمهم الإيمان بما أنزل عليهم، لذلك نفى الله ﷻ أن يستجيبوا إلى تمني الموت؛ لأنهم يعلمون ما قدموا من العصيان وعدم إنصياعهم للأحكام المنزلة على موسى عليه السلام حتى مع قيام المعجزات الدالة على صدقه عليه السلام، وكانت آيات بينات جاء بها موسى عليه السلام ومنها المعجزات التسع، وقد قدمنا بيانها عند الكلام على الآية الثانية والتسعين من سورة

البقرة، وإن كان عدم تمنيهم الموت خوفا من عقاب الله ﷻ على معاصيهم فإنه تعالى عليم بالظالمين منهم ومن غيرهم، وسينالون أوفى الجزاء.

(٢/٩٦) قال تعالى:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والتسعون من سورة البقرة، وهي في السياق ذاته، فبنوا إسرائيل لا يتمنون الموت، خوفا من العذاب على كفرهم، لذلك هم يحرصون على الحياة ويكرهون الموت، شأنهم شأن المشركين فهم أيضا يحرصون على الحياة، ولكن اليهود أشد حرصا من جميع الناس، ومن الذين أشركوا، وكل واحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة، ولو عاشوه وأكثر منه فليس ذلك يبعدهم عن العذاب، فكل أعمالهم لا تخفى على الله ﷻ.

(٢/٩٧) قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والتسعون من سورة البقرة، وهي تحوّلٌ من تذكير اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ بما فعل أسلافهم إلى الحديث عن جبريل روح القدس عليه السلام المكلف بإلقاء الوحي على الرسل عليهم السلام، ولما جاء جبريل بالوحي إلى نبينا محمد ﷺ اشتدت عداوة اليهود له ولمكائيل، والخطاب هنا عام في كل من عادى جبريل عليه السلام وأشد الناس عداوة له اليهود، بلغ عبدالله بن سلام رضي الله عنه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول أشراط الساعة؟، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟، ومن أي شيء ينزع إلى اخواله ؟، فقال رسول الله ﷺ: « **خبرني بهن آنفا، جبريل**» فقال عبدالله:

ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: « **أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها** » قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهْت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت، فقال رسول الله ﷺ: « **أي رجل فيكم عبدالله بن سلام ؟** » قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخبرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: « **أفرأيتم إن أسلم عبدالله ؟**» قالوا أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه ١.

فبين الله ﷻ في الآية أن جبريل ﵇ مكلف بذلك، وأنه نزل به على قلب محمد ﷺ بأمر الله ﷻ، وقد قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ ٢، والمراد تلاوته وليس الإلقاء في الروع، بل بتلاوة بصوت مسموع لنبينا محمد ﷺ بقراءة جبريل ﵇ فيسمعه نبينا محمد ﷺ فينزل لفظه ومعناه على قلبه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ ٣، فقد كان ﷺ من حرصه على التلقي يسرع في متابعة لفظ جبريل ﵇ فنهاه الله ﷻ عن ذلك حتى يتم جبريل قراءة الآية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ ٤، تكفل الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ بجع القرآن وقراءته وبيان معانيه، بعد هذا بين تعالى: أن القرآن مصدق لما قبله من التوراة والإنجيل، وأنه هدى وبشارة للمؤمنين.

---

١) البخاري حديث (٣٠٨٢) وانظر أطرافه.

٢) الآيتان (١٩٣، ١٩٤) من سورة الشعراء.

٣) الآية (١١٤) من سورة طه.

٤) الآيات (١٦ . ١٩) من سورة القيامة.

(٢/٩٨) قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والتسعون من سورة البقرة، وهي تبين أن الله ﷻ بالمرصاد لأعدائه، وأعداء ملائكته ورسله، وجاء التصريح بجبريل وميكائيل وهما من الملائكة تنويها بشأنهما، وهو من ذِكر الخاص بعد العام؛ ولأن اليهود يزعمون أن جبريل عدو لهم، وميكائيل وليٌّ لهم، وبين تعالى أن عداوته للكافرين معلنة لقاء كفرهم، ومعلوم أن العداوة لله ﷻ هي معصيته وعدم طاعة رسله، ومحاربة أوليائه، أما عداوة الله ﷻ لهؤلاء فهي بغضهم وتعذيبهم على عصيانهم.

(٢/٩٩) قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والتسعون من سورة البقرة، وهي تبين أن ما جاء به نبينا محمد ﷺ لا يختلف عما جاء به موسى ﷺ من حيث كونه منزلا من عند الله ﷻ، وأنها دلائل واضحة من كلام الله ﷻ أو علامات كونية ومعجزات تدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وفي آيات الكتاب بيان لأحوال أهل الكتاب وكشف ما عندهم من الحق والباطل، وفي توجيه الخطاب لنبينا محمد ﷺ تطييب لخاطره وتسلية عما لقي من صلف كفار قريش ومن اليهود من الصد عن دعوته وعدم الاستجابة له، وبين تعالى أن ما نزل إليه لا يكذب به إلا من اختار الكفر على الإيمان، وفسق عن أمر ربه.

(٢/١٠٠) قال تعالى:

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

هذه الآية المائة من سورة البقرة، وهي بيان لمنهج اليهود مع رسول الله ﷺ أنهم لا يفون له بعهد أبدا، وليس الفريق النابذ للعهد قليلا بل هو الأكثر، يبن ذلك ما بعده فأكثرهم لا يؤمنون، وسواء كان العهد منهم لرسول الله ﷺ أو من رسول الله ﷺ لهم

فإن النقض في الحالين منهم وهو دأبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[1]، لأنهم أهل خيانة وغدر إلا القيل منهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وكيف يرجى من قوم وفاء وقد نبذ فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم، فهم لا يؤمنون به لا على الإجمال ولا على التفصيل.

(١٠١/٢) قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾.

هذه الآية الحادية بعد المائة من سورة البقرة، وهي بيان لمقاومة كل ما ينزل من عند الله ﷻ وهذا شأن اليهود وأسلافهم، وأن الأكثرين منهم على الكفر بما أنزل الله ﷻ مع علمهم بأنه مصدق لما في كتبهم من الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3]، ولكنهم اختاروا الكفر حسدا وعنادا وتكبرا، وهم يتجاهلوا ما عندهم من علم بمصداقية محمد ﷺ وما نزل عليه من الحق، وأظهروا أنهم لا يعلمون من ذلك شيئا، وقد تقدم في الآية التاسعة والثمانين أن اليهود كانوا يبشرون بالكتاب الجديد والرسول القادم على ما هو موجود في كتبهم، وكانوا يهددون مشركي العرب بنصرهم للنبي المنتظر وقتال المشركين معه، لتوقعهم أنه سيكون من اليهود وليس من العرب، فلما جاء محمد ﷺ حسده اليهود وأنكروا ما في كتبهم من صفته، ونبذوا ما جاء به، وليست عداوتهم

---

١) الآيتان (٥٥، ٥٦) من سورة الأنفال .

٢) من الآية (١٣) من سورة المائدة .

٣) الآية (١١٠) من سورة آل عمران .

خاصة بمحمد ﷺ بل حتى الذين من اليهود لم يقابلوا بالإيمان والاتباع، بل بالجود والعناد ونقض المواثيق.

(١٠٢/٢) قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

هذه الآية الثانية بعد المائة من سورة البقرة، وهي عطف على الآية السابقة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ وفي الآية الكريمة بيان لمنهج اليهود الأسلاف والأتباع على حد سواء مع كل من أرسل فهم ينصرفون عن الإيمان بالرسل والعمل بما جاؤا به إلى الاجتماع على ما تتلوا الشياطين، وذلك أن الشياطين حين عرفوا موت سليمان بن داود عليهما السلام، كتبوا أصناف السحر: من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا، وهلم جرا حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب، ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان عليه السلام، وكتبوا عُنْوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود، من ذخائر كنوز العلم.

ثم دفنوا الكتاب تحت كرسي سليمان عليه السلام، واستخرجه بعد ذلك بقايا بني إسرائيل وقالوا: والله ما كان سليمان بن داود يحكم إلا بهذا فكفروه عليه السلام، وأفشوا السحر في الناس فتعلموه وعلّموه، وأحدثوا به ما أحدثوا، وليس السحر في أحد من الناس أكثر منه في اليهود لعنهم الله.

فلما ذكر رسول الله ﷺ سليمان بن داود عليهما السلام، فيما نزل عليه من الله ﷻ، وعدّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبيًا، والله ما كان إلا ساحرًا، وهو عندهم كافر بهذا، وبزعمهم أنه مال إلى آلهة بعض نسائه، فأنزل الله هذه الآية تكذيبا لهم، فكتابة السحر لم تكن من سليمان ﷺ، وإنما كانت تزويرا من الجن، وما كفر سليمان ﷺ ولكن الشياطين كفروا، بما كتبوا من السحر، وبتعليهم الناس السحر، زاعمين أن الله أنزله على الملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام، فكذبهم الله ﷻ في ذلك، وقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ عطفا على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ فالشياطين كفروا ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ويعلمونهم ما يزعمون أنه نزل على الملكين﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ وهل هاروت وما روت ملَكان بفتح اللام، أو رجلان صالحان من أهل بابل، أو ملكين بكسر اللآم ؟، أو بدل من الشياطين، فيكونا شيطانين، في ذلك كلام طويل، والذي أميل إليه أنهما ملِكين بكسر اللام على قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، وهي قراءة صحيحة، وذُكرت بابل لاشتهارها بمعارف السحر في ذلك الوقت، فكان الملِكان فيها يعلمان الناس السحر، وأضيفت بابل في الآية إلى هاروت وماروت، على معني أرض هاروت وماروت، فهما ملِكان عليها، وكان من قولهما للمتعلم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فيه إشارة والله أعلم أنهما لا يعلمان ما فيه ضرر، وأنهما يحذران المتعلم من التوسع في تعلم السحر إلى حد الضرر، ولكنهم تعلموا منهما ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهذا ضرره كبير لقطعه موردين بين المرء وزوجه وقد نوه الله بشأنهما حيث قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[١]، ومَحْقُ وجود المودة والرحمة بين الزوجين من أعظم الفساد، ولكن ذلك لا يكون الضرر منه إلا بإذن الله ﷻ، ولا قدرة للمتعلمين على إيجاد الضرر ما لم يأذن بذلك ابتلاء منه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولكنهم

---

١) من الآية (٢١) من سورة الروم.

يتعلمون منه ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ تقبيح لتعلم السحر لأنه ضرر في الدين لانفع فيه، ونفعه فيما سوى ذلك لا يوازي ضرره في الدين ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ المراد اليهود وأسلافهم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأتبعوا ما تتلوا الشياطين، وقد علموا أن الساحر لا خلاق له، ولذلك زعموا أن سليمان عليه السلام كفر، والخلاق النصيب وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومن لا نصيب له في الآخرة هو الكافر، فدل هذا على كفر الساحر إذا وقع منه ما هو كفر وأن كفره ناقل عن الملة إذا مات عليه، وهذا واضح في سياق هذه الآيات، ولكن اليهود وأسلافهم قدموه على ما أنزل الله تعالى:﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ بئس استبدالهم اتّباع الرسل والإيمان بالسحر واتّباع ما تتلوا الشياطين، ولو كان لهم علم ينتفعون به ما وقعوا في الضلال، وتركوا ما أنزل الله عليهم من البينات والهدى.

(٢/١٠٣) قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

هذه الآية الثالثة بعد المائة من سورة البقرة، وهي بيان لما كان لليهود وأسلافهم من الخير لو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتقوا ما حرم الله من الفواحش والسحر ونقض المواثيق وغير ذلك من المعاصي، وكذلك اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ لو آمنوا بمحمد ﷺ واتقوا الله ﷻولم يقدموا على إنكار ما بشرت به كتبهم لكانت لهم مثوبة من عند الله ﷻ ومثوبة الله ﷻ خير من كل نفع حملهم على المكابرة، ولو كانوا يعلمون مثوبة الله ﷻ على ذلك ما وقعوا فيما وقعوا فيه من عدم الإيمان والتقوى، وهذا ما أكده في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾[١].

---

١) الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

(٢/١٠٤) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحولٌ من الكلام عن اليهود وأسلافهم إلى توجيه المؤمنين بنبينا محمد ﷺ للإهتمام بالألفاظ النزيهة الكريمة في مخاطبة نبينا محمد ﷺ ولا يكونوا في ذلك كاليهود الذين لا يهتمون بنزاهة الألفاظ، وسبب هذا التوجيه الكريم أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبي ﷺ الشريعة والقرآن يطلبون منه الإعادة، والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه، فكانوا يقولون له: راعنا يا رسول الله، من المراعاة: أي لا تتحرج منا حينما نطلب الإعادة لنعي ونفهم ما تقول، وكان المنافقون من اليهود يسبون النبي ﷺ في خلواتهم سرا، وكانت لهم كلمة بالعبرانية تشبه كلمة راعنا بالعربية، ومعناها في العبرانية سب، وقيل: معناها لا سمعت: دعاء عليه، فقال بعضهم لبعض: كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن، قالوا هذا وأرادوا به اسم فاعل من رَعَنَ، إذا اتصف بالرُّعُونة، فكانوا يقولون هذه الكلمة مع المسلمين ناوين بها السب، فكشفهم الله ﷻ وأبطل عملهم بنهي المسلمين عن قول هذه الكلمة، حتى ينتهي المنافقون عنها ويعلموا أن الله ﷻ أطلع نبيه على سرهم، وأبدل المؤمنين لفظة واضحة صريحة فيما تدل عليه﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ وأمرهم بالاستجابة لهذا التوجيه، ونهاهم أن يتشبهوا بالكافرين في أقوالهم وأفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يختارون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من السب والتنقيص، كما في قولهم راعنا، ولذلك أتبع السماع بالوعيد الشديد لمن يكفر بما أنزل الله فقال:﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

(٢/١٠٥) قال تعالى:

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحدد العلاقة بين المؤمنين وغيرهم من المشركين ومنهم اليهود والنصارى قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١]، وأي شرك أعظم من هذا؟!، وقد اتفق عموم المشركين على حسد المؤمنين والسخط على نبيهم وشريعتهم، فالعلاقة إذاً علاقة حسد وبغض، لأن الصارف لليهود وأسلافهم ليس التمسك بما أنزل الله ﷻ بل الصارف لهم عن الإيمان الحسد والكبر أن يكون نبي من غيرهم ولاسيما ونظرتهم للعرب كانت دونية، فلما جاءت الرسالة الخاتمة فيهم اشتد حسدهم وغيظهم لذلك، وبين تعالى أن رحمته لا يملكها أحد سواه وأنه تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فلا غرابة أن يكون للعرب نصيب من رحمة الله، وأنه تعالى واسع الفضل والعطاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

(١٠٦/٢) قال تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

هذه الآية السادسة بعد المائة من سورة البقرة، وهي دخول مباشر في بيان أن إرسال الرسل وإنزال الكتب شأن رب السماوات والأرض فهو ملكها، وأن جميع البشر أهل مملكته وطاعته، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء، ولكن اليهود وأسلافهم يزعمون استحالة النسخ، فأنكروا نسخ بعض أحكام التوراة بالإنجيل وجحدوا نبوة عيسى عليه السلام، وكذلك أنكروا نسخ القرآن للكتب السابقة، وأنكروا نبوة محمد ﷺ، وقد

١) الآيتا (٣٠، ٣١، ٣٢) من سورة التوبة.

علموا أن الله ﷻ أمر إبراهيم ﷺ بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأكد ذلك القرآن قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم ﷺ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾[1]، فاستجاب الابن لأبيه، وأقدم الأب على التنفيذ، فقال الله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[2]، فقد نسخ الله ﷻ ذبح إسماعيل ﷺ، وفداه بالذبح العظيم الذي شرع في ملة الإسلام في يوم النحر تعبدا لله ﷻ بتلك النعمة التي أنعم بها على إبراهيم وابنه عليهما السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأمر أسلاف اليهود بأن يقتلوا أنفسهم، فلما استحر بهم القتل نسخ الأمر به بالعفو عنهم حتى لا يهلكوا، وتقدم بيانه عند الآية الرابعة والخمسين من السورة، والحكمة في ذلك ظاهرة فحياة إسماعيل ﷺ أرادها الله ﷻ سببا في كون نبينا محمد ﷺ من ولده، وفي العفو عن بني إسرائيل بقاء أراده الله ﷻ لنسلهم، وكان في نسخ بعض أحكام التوراة خير كثير لليهود، وفي نسخ الكتب السماوية بالقرآن خير للبشرية جمعاء يجتمعون على عبادة الله وحده لا شريك له، وفي نسخ بعض آيات وأحكام القرآن رحمة للأمة المحمدية، ولا يكون النسخ ولا التأخير إلا لما هو خير وأنفع للعباد، أو لما هو مماثل، ولله ﷻ الأمر والحكم﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(٢/١٠٧) قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة بعد المائة من سورة البقرة، وهي بيان للحكمة من النسخ سواء في بعض الأحكام أو لبعض أحكام الكتاب الواحد كما وقع في التوراة، أو لكل الكتب المنزلة كما هو حال القرآن الكريم مع الكتب السابقة، وما ذلك إلا لأن الله له ملك

١) من الآية (١٠٢) من سورة الصافات.

٢) الآية (١٠٧) من سورة الصافات . والآيات (١٠٢ ـ ١١٢) من سورة الصافات توضح ذلك بجلاء.

السماوات الأرض ومن فيهين، وأنه يفعل ما يشاء ومن ذلك أمر العباد تحليلا وتحريما، أمرا ونهيا، كل ذلك شأنه وحده لا شريك له، وليس لمخلوق كائنا من كان من دون الله ولي ولا نصير، وقد يكون النسخ لحكمة ظاهرة نصا كما في تحريم الخمر وقت الصلاة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾١، ويجوز نسخ الأخف بالأثقل، والأثقل بالأخف.

فمثال نسخ الأخف بالأثقل: نسخ التخيير بين الصوم والإطعام المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ ﴾٢ نسخ بأثقل منه، وهو تعيين إيجاب الصوم في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾٣، ونسخ حبس الزواني في البيوت المنصوص عليه بقوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾٤، نسخ بأثقل منه وهو الجلد والرجم المنصوص على الجلد للبكر في قوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾٥، وجاء النص على الرجم بآية الرجم التي نسخت تلاوةً وبقيت حكماً ثابتاً، وهي قوله تعالى: ﴿ **الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ وبالسنة فقد رجم رسول الله ﷺ من زنى.

ومثال نسخ الأثقل بالأخف: نسخ وجوب مصابرة المسلم عشرة من الكفار المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ ﴾٦، نسخ بأخف منه وهو مصابرة المسلم اثنين منهم المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ

١) من الآية (٤٣) من سورة النساء.

٢) من الآية (١٨٤) من سورة البقرة.

٣) من الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

٤) من الآية (١٥) من سورة النساء.

٥) من الآية (٢) من سورة البقرة.

٦) من الآية (٦٥) من سورة الأنفال.

ﭐللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾[1]، ونسخ قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[2]، وهو الأثقل بقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3]، وهو الأخف، ونسخ اعتداد المرأة المتوفى عنها بحول، الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾[4]، نسخ بأخف منه وهو الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[5]، هذه أمثلة لنسخ بعض الأحكام، فلله الأمر من قبل ومن بعد، وويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله.

واعلم أن النسخ ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: " **كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن**"[6]، فآية عشر رضعات منسوخة التلاوة والحكم إجماعاً.

الثاني: نسخ التلاوة وبقاء الحكم، ومثاله آية ﴿ **الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ وآية خمس رضعات على قول الشافعي وعائشة ومن وافقهما.

---

١) من الآية (٦٦) من سورة الأنفال.

٢) من الآية (٢٨٤) من سورة البقرة.

٣) من الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

٤) من الآية (٢٤٠) من سورة البقرة.

٥) من الآية (٢٣٤) من سورة البقرة.

٦) مسلم حديث (٢٦٣٤).

الثالث: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وهو غالب ما في القرآن من المنسوخ؛ كآية المصابرة، والعدة، والتخيير بين الصوم والإطعام، وحبس الزواني، في الأمثلة السابقة، ولا خلاف بين العلماء في نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة بمتواتر السنة، لأن الجميع وحي من الله تعالى.

فمثال نسخ السنة بالكتاب: نسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام؛ فإن استقبال بيت المقدس أولاً إنما وقع بالسنة لا بالقرآن، وقد نسخه الله ﷻ بالقرآن في قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1]، والصحيح أن الكتاب والسنة كل منهما يُنسخ بالآخر، وأن الصحيح من أحاديث الآحاد ينسخ المتواتر، إذا كان متأخرا عن المتواتر ومفيدا حكما جديدا.

قال شيخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[2]:

تنبيه: اعلم: أن في قوله جل وعلا: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ إشكالاً من وجهين:

الأول: أن يقال: إما أن يكون الأثقل خيراً من الأخف؛ لأنه أكثر أجراً، أو الأخف خير من الأثقل لأنه أسهل منه، وأقرب إلى القدرة على الامتثال.

وكون الأثقل خيراً يقتضي منع نسخه بالأخف، كما أن كون الأخف خيراً يقتضي منع نسخه بالأثقل؛ لأن الله صرح بأنه يأتي بما هو خير من المنسوخ أو مماثل له، لا ما هو دونه. وقد عرفت: أن الواقع جواز نسخ كل منهما بالآخر.

الثاني: من وجهي الإشكال في قوله: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ لأنه يقال: ما الحكمة في نسخ المثل ليبدل منه مثله؟، وأي مزية للمثل على المثل حتى ينسخ ويبدل منه؟.

والجواب عن الإشكال الأول: هو أن الخيرية تارة تكون في الأثقل لكثرة الأجر، وذلك فيما إذا كان الأجر كثيراً جداً والامتثال غير شديد الصعوبة؛ كنسخ التخيير بين

---

١) من الآية (١٤٤) من سورة البقرة.

٢) أضواء البيان٢/٤٥٠ وما بعدها بتصرف.

الإطعام والصوم بإيجاب الصوم؛ فإن في الصوم أجراً كثيراً كما في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام هو لي وأنا أجزي به** »[١]، والصائمون من خيار الصابرين؛ لأنهم صبروا لله ﷻ عن شهوة بطونهم وفروجهم؛ والله يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]، ومشقة الصوم عادة ليس فيها صعوبة شديدة تكون مظنة لعدم القدرة على الامتثال، وإن عرض ما يقتضي ذلك من مرض أو سفر؛ فالتسهيل برخصة الإفطار بقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٣]، وتارة تكون الخيرية في الأخف، وذلك فيما إذا كان الأثقل المنسوخ شديد الصعوبة بحيث يعسر فيه الامتثال؛ فإن الأخف يكون خيراً منه؛ لأن مظنة عدم الامتثال تعرض المكلف للوقوع فيما لا يرضي الله؛ وذلك كقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[٤]، فلو لم تنسخ المحاسبة بخطرات القلوب لكان الامتثال صعباً جداً، شاقاً على النفوس، لا يكاد يسلم من الإخلال به، إلا من سلمه الله تعالى، فلاشك أن نسخ ذلك بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٥] خير للمكلف من بقاء ذلك الحكم الشاق، وهكذا.

والجواب عن الإشكال الثاني: هو أن قوله: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ يراد به مماثلة الناسخ والمنسوخ في حد ذاتيهما؛ فلا ينافي أن يكون الناسخ يستلزم فوائد خارجة عن ذاته يكون بها خيراً من المنسوخ، فيكون باعتبار ذاته مماثلاً للمنسوخ، وباعتبار ما يستلزمه من الفوائد التي لا توجد في المنسوخ خيراً من المنسوخ.

وإيضاحه: إن عامة المفسرين يمثلون لقوله: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ بنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال بيت الله الحرام، فإن هذا الناسخ والمنسوخ بالنظر إلى ذاتيهما

---

١) البخاري حديث (٥٤٧٢) ومسلم حديث (١٩٤٢).

٢) من الآية (١٠) من سورة الزمر.

٣) من الآية (١٨٥) من سورة البقرة.

٤) من الآية (٢٨٤) من سورة البقرة.

٥) من الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

متماثلان؛ لأن كل واحد منهما جهة من الجهات، وهي في حقيقة أنفسها متساوية، فلا ينافي أن يكون الناسخ مشتملاً على حِكم خارجة عن ذاته تصيره خيراً من المنسوخ بذلك الاعتبار.

فإن استقبال بيت الله الحرام تلزمه نتائج متعددة مشار لها في القرآن ليست موجودة في استقبال بيت المقدس، منها: أنه يسقط به احتجاج كفار مكة على النّبي ﷺ بقولهم: تزعم أنك على ملة إبراهيم ولا تستقبل قبلته، وتسقط به حجة اليهود بقولهم: تعيب ديننا وتستقبل قبلتنا، وقبلتنا من ديننا، وتسقط به أيضاً حجة علماء اليهود فإنهم عندهم في التوراة: أنه ﷺ سوف يؤمر باستقبال بيت المقدس، ثم يؤمر بالتحول عنه إلى استقبال بيت الله الحرام، فلو لم يؤمر بذلك لاحتجوا عليه بما عندهم في التوراة من أنه سيحول إلى بيت الله الحرام، والفرض أنه لم يحول. وقد أشار تعالى إلى هذه الحِكم التي هي إدحاض لحجج اليهود الباطلبقوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1]، ثم بين الحكمة بقوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾[2]، وإسقاط تلك الحجج من الدواعي التي دعته ﷺ إلى حب التحويل إلى بيت الله الحرام المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[3].

(٢/١٠٨) قال تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

---

١) من الآية (١٥٠) من سورة البقرة.

٢) من الآية (١٥٠) من سورة البقرة.

٣) من الآية (١٣٨) من سورة الأعراف.

هذه الآية الثامنة بعد المائه من سورة البقرة، وهي تتجه لخطاب اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ مسليا نبينا محمد ﷺ حتى لا يزعجه سؤالهم، كما سأل أسلافهم رسولهم موسى عليه السلام وماذا سأل الخلف والسلف من اليهود؟، بينه الله ﷻ بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ١، وقد وقع اليهود في الكفر بسبب تسلسل الأسئلة، كما في هذه الآية، وكقولهم: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ ٢، ومنها ما جر لهم العناء والمشقة كما تقدم في قصة البقرة، واختار بعض العلماء أن المسلمين سألوا نبيهم محمدا ﷺ أمورا لا خير لهم في السؤال عنها، فحذرهم الله من مشابهة اليهود في إيراد أسئلة لا خير من ورائها، وقد ورد نهي المؤمنين عن كثرة سؤال النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ٣، أي لا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يُحرّم من أجل ذلك السؤال، ولكن ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ ٤، أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، وقد عفى الله عما لم يبد لهم، فمن الخير عدم السؤال عنه، وافتراض وجوده.

(١٠٩/٢) قال تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح أن إصرار أهل الكتاب على عدم الإيمان بنبينا محمد ﷺ، وإعراضهم عن الإسلام طمعا في أن يردوا

١) من الآية (١٥٣) من سورة النساء.

٢) من الآية (١٣٨) من سورة الأعراف.

٣) من الآية (١٠١) من سورة المائدة.

٤) من الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

المؤمنين إلى ما كانوا عليه من الشرك والضلال، فيبقوا على ذلك، أو يردونهم إلى الدين اليهودي، والحال أن العلماء منهم اتضح لهم بالتطابق بين ما في التوراة وما رأوه عيانا أن محمدا ﷺ نبي حق وما جاء به هو الحق، لكن الحسد جعلهم يختارون كيدا للإسلام وأهله، فبشر الله ﷻ المؤمنين أن ذلك الاختياراليهودي ومحاولة إضلال المؤمنين لن يتحقق، وسيعود ضرره على أهل الكتاب أنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1]، لذلك أمر الله ﷻ نبيه والمؤمنين بالعفو عنهم قال تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ والمراد بأمر الله هنا النصر والفتح.

(٢/١١٠) قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

هذه الآية العاشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي ترشد المؤمنين إلى الأخذ بالأسباب المحققة لما وعدهم الله به من إتيان أمره بالنصر والفتح، ومن أعظم أسباب ذلك المحافظة على الفرائض، وما يتلوها من النوافل والأعمال الصالحة، وكل ذلك مكفول ثوابه عند الله ﷻ بما يعجل لهم في الدنيا، وما يؤجل في الآخرة، فهو سبحانه البصير بأعمالهم.

(٢/١١١) قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

---

١) الآية (٦٩) من سورة آل عمران.

هذه الآية الحادية عشرة بعد المائه من سورة البقرة، وهي توضح نوعا من تزكية اليهود والنصارى لأنفسهم، فاليهود يزعمون أنهم وحدهم الداخلون الجنة، والنصارى يزعمون ذلك لهم، وحكى الله ﷻ قول الفريقين لأن دعواهما واحدة، والمفهوم أن غيرهم لا يدخلها، فرد الله ﷻ هذا الزعم بالآية التالية، وأن ذلك من أمانيهم الباطلة، حين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾١، رد الله زعمهم هذا، فقال تعالى مخاطبا نبينا محمد ﷺ: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾٢، وفي هذا تكذيب لليهود والنصارى، وتطمين للمؤمنين بأنهم على الحق، ودفع لشبه المغرضين من المشركين وغيرهم، وقد أمر الله نبينا محمد ﷺ أن يطلب من أهل الكتاب الإتيان بدليل على ما يزعمون لإثبات صدق ما يدعون فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وبهذا كشف الله باطلهم.

(٢/١١٢) قال تعالى:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي رد على زعم أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود أو النصارى، وبينت الآية الكريمة أن من أقبل بوجهه على الله ﷻ طائعا مختارا، وهو محسن في عبادته وسلوكه، فهو الموعود بالجنة، ومحور ذلك الإخلاص لله ﷻ، والاتباع لرسوله ﷺ ومن كان كذلك فهو موعود بالثواب، وهو آمن من الخوف والحزن، ولذلك قال تعالى مخاطبا نبينا محمداﷺ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾٣، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ

١) من الآية (١٨) من سورة المائدة.

٢) من الآية (١٨) من سورة المائدة.

٣) من الآية (٢٠) من سورة آل عمران.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [1]، وهذا بيان لأسباب الفوز بالجنة، وأنها ليست بالمزاعم والتمني، وبهذا أعلى الله حجة المؤمنين على من ناوأهم من أهل الأديان، وغيرهم.

(٢/١١٣) قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحولٌ لبيان ما وقع بين الفريقين: اليهود والنصارى من الخلاف، ودعوى كل فريق أنه هو المحق، وهذا يبين تهور الفريقين، وتخبطهم في الأقوال والأفعال، يرمي كل فريق بالضلال الفريق الآخر، مع وجود ما يمكن الاحتكام إليه وهو الكتاب المنزل، وهذا قول العلماء منهم؛ واتّبعهم الذين لا يعلمون فقالوا مثل قولهم، ومن هنا لا يستغرب رمي الفريقين المسلمين بالضلال، واليهود والنصارى وإن رمى بعضهم بعضاً بالضلال، واختلفوا فيما بينهم غير أنهم لا يختلفون على رمي المسلمين بالضلال.

(٢/١١٤) قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

هذه الآية الرابعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي تفضح صنفا آخر يسعى جاهدا في ظلم المؤمنين، وهم المشركون وهم أظلم من اليهود والنصارى لمنعهم المؤمنين من ذكر الله ﷻ في المسجد الحرام، وذلك سعي منهم في خراب مساجد الله، وكان الأجدر بهم أن تكون مقر خوفهم من الله ﷻ، فوعدهم الله الخزي في الدنيا، وفي الآخرة عذاب عظيم.

---

١) من الآية (١٢٥) من سورة النساء.

(٢/١١٥) قال تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح أن تحديد الاتجاه في العبادة ليس لأحد سوى الله ﷻ، فله المشرق والمغرب، والمراد به جنس المشرق والمغرب، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستّون، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك، قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [١]، أقسم سبحانه بها لأنه ربها ومدبر أمرها وحده لا شريك له، وقال تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [٢]، يعني مشرق الشتاء، ومشرق الصيف ومغربهما، كما عليه الجمهور، وقيل: مشرق الشمس والقمر ومغربهما، وقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ أي: مشارق الشمس ومغاربها، كما تقدم، وقيل: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها، والعلم عند اللّه تعال [٣]، وتلاحظ أنه في الآية الكريمة أفرد باعتبار الجنس، وثنى في آية الرحمن باعتبار مشرق الشتاء، ومشرق الصيف، وجمع في آية المعارج باعتبار المطالع مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها، فمتى صدر منه سبحانه الأمر بالاتجاه في عبادته إلى أي جهة فعلى العباد السمع والطاعة، وهم يتوجهون في ذلك إلى الله وحده لا شريك له، فالجهة ليست المهمة في العبادة بل المهم أن تكون العبادة خالصة لله ﷻ، وأن تكون الجهة مأذونا بها منه تعالى، ومن توجه بعبادته إلى غير الله فلا ينفعه ذلك ولو توجه إلى جهة مأذونٍ بها كجهة الكعبة مثلا، لأن العبادة باطلة، وقد ذكر بعض العلماء أن الآية نزلت قبل التوجه إلى بيت المقدس، وفي التوجه إليه تحولٌ عن الكعبة فقد كان النبي ﷺ والمؤمنون يصلون إليها في مكة، وفي المدينه إلى بيت المقدس فنزلت الآية رفعا للشك فلا يكون مثارا لأن يقول المشركون: ما ولى محمدا وأتباعه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكة، أي

---

١) من الآية (٤٠) من سورة المعارج.

٢) الآية (١٧) من سورة الرحمن.

٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦/٣٠٥.

استقبال الكعبة مع أنه يقول: إنه على ملة إبراهيم، ويأبى عن اتباع اليهودية والنصرانية، فكيف ترك قبلة إبراهيم واستقبل بيت المقدس، وتكون الآية الكريمة تثبيتا للمؤمنين بأنهم على الحق، وقد فقِه المؤمنون ذلك، ولم يترددوا في التحول من جهة بيت المقدس إلى الكعبة حين جاءهم الخبر بذلك وهم يصلون العصر في المسجد المسمى اليوم مسجد القبلتين، ونسخ التوجه إلى بيت المقدس بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾[1].

(٢/١١٦) قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة عشرة من سورة البقرة، وهي تبين أن القول على الله ﷻ بغير علم، فرية عظيمة في جانب الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وقد عُلِمَ القائلون بهذا الإفك العظيم من سياق الكلام عن أهل الكتاب، لكنه تعالى زاد الأمر وضوحا بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2]، وقد شارك اليهود والنصارى في هذه الفرية الشنعاء مشركوا العرب، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[3]، وقد رد الله ﷻ في الآية ذاتها ذلك الزعم بطريق الإضراب عن فريتهم فقال تعالى: ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أي له ملك ما في السماوات والأرض، وهم جميعا له عابدون، فهو المالك وهم العبيد، وقد أكد نفي هذه الفرية القبيحة في قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا

---

١) من الآية (١٤٩) من سورة البقرة.

٢) الآية (٣٠) من سورة التوبة.

٣) الآية (٥٧) من سورة النحل.

﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾[1]، وشنعها عليهم بقوله تعالى: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[2]، هو المالك الفرد الصمد، والصمدية تنافي أن يكون له صاحبة، وما دام الأمر كذلك فلا يكون له ولد، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3]، وقد مجّده المسلمون من الجن قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾[4]، ومجّد نفسه تعالى فقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[5]، فأي زور وأي كذب أعظم من ذلك الزعم؟!، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وإذا تأملت الآية الكريمة تلحظ ورودها بالجمع ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ لتشمل الأصناف الثلاثة: اليهود والنصارى والمشركين، فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون الملائكة بنات الله، فاتفقوا على الضلال المبين.

(٢/١١٧) قال تعالى:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق الرد على الأصناف الثلاثة: اليهود والنصارى والذين أشركوا في زعم أن لله ولدا، ببيان أنه تعالى: مبدع ومنشئ السماوات والأرض، وحده لا شريك له، وخالقها على غير مثال سابق، وأن الكائنات في هذا الملكوت العظيم لا تتم إلا بأمره، وأنها خاضعة لأمره

---

١) الآيات (٩٠ . ٩٤) من سورة مريم.

٢) الآية (٥) من سورة الكهف.

٣) الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

٤) الآية (٣) من سورة الجن.

٥) الآية (١١١) من سورة الإسراء.

وتكوينه، لأنه أبدع محلها وأبدعها للحلول فيه، فسبحانه من مبدع عظيم، فهو غني عن الصاحبة والولد.

(٢/١١٨) قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح قول الذين ليس لهم كتاب فهم لا يعلمون وهم المشركون، قالوا: لولا يكلمنا الله، أو تأتينا آية حتى نؤمن بمحمد وما جاء به، وهذا كقول الذين يعلمون وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يعلمون من كتابهم أن محمدا ﷺ حق، وأن القرآن الذي أنزل عليه حق، ولكنهم جحدوا ذلك وكتموه حسدا، فتشابهت قلوبهم في الضلال، وإنكار الحق، فقالوا مثل قولهم المحكي عنهم في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ ١، فكان ذلك منهم إنكار للأديان كلها، اليهودية والنصرانية والإسلام، فأشبهوا اليهود في قولهم: ليست النصارى على شيء، وأشبهوا النصارى في قولهم: ليست اليهود على شيء، وقد بين الله الآيات الدالة على صدق نبينا محمد ﷺ ولكن لا ينتفع بها إلا الموقنون.

(٢/١١٩) قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحولٌ إلى تسلية نبينا محمد ﷺ فما لقي من تكذيب المشركين أحزنه كثيرا، وزاد أسفه حينما كذبه أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان الأجدر بهم المبادرة إلى الإيمان به ﷺ لأنه النبي الموعود في كتبهم، لكنهم أحجموا عن الحق واتبعوا الهوى، فكان هذا التعزيز الكريم من الله العزيز الحكيم حتى يزول أسفه وحزنه ﷺ، وهو البشير لأهل الإيمان؛ لأن مقتضى

---

١) من الآية (٩١) من سورة الأنعام.

البشارة الترغيب في فعل الواجبات وترك المحرمات، والنذير لأهل الكفر؛ لأن مقتضى الإنذار التحذير من فعل المحرمات وترك الواجبات، وهو في نفس الوقت ليس مسؤلا عن هداية أصحاب الجحيم، وإنما هو مسؤل عن البلاغ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[1].

(٢/١٢٠) قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

هذه الآية العشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تؤكد تسلية الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ مقررة أن اليهود والنصارى لن ترضى عنه ولا عن دين الإسلام وهو الحق الذي جاء به، حتى يترك ما جاء به ويتبع شريعتهم، وهي تسلية مُؤيسة من إيمان اليهود والنصارى على وجه الإجمال، وفي هذا تأييس لليهود والنصارى أن يتبع محمد ﷺ ملتهم؛ لأنه المستحيل أن يتبع محمد ﷺ ملتهم، فكان رضاهم عنه مستحيلا أيضا، وأخبر تعالى نبيه الكريم بأن يوضح للناس أن الهدى بيد الله يوفق له من شاء من عباده، وهذا يشير إلى أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء من الهدى، وأن الهدى هو القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ؛ وفي نفس الوقت ينبه نبيه ﷺ أنه لو اتبع أهواء اليهود والنصارى وزعمهم أنهم أهل دين سابق ونبي سابق، لو فعل ذلك بعد الذي جاءه من العلم بالقرآن وأنه الدين الحق الذي ختم الله ﷻ به الأديان السابقة، فليس له من الله من يتولى أمره، ولا من ينصره، وإذا كان هذا واردا في حق المصطفى ﷺ فمن الأولى أن يكون واقعا في حق غيره من البشر، وإذا أمعنت النظر في الآية الكريمة فقد تجد فيها التمهيد لنسخ القبلة إلى بيت المقدس، وهي قبلة اليهود، وقد بينا ذلك عند الآية الخامسة عشرة بعد المائة من السورة، وتلاحظ أنه تعالى: عبر عن

---

١) الآية (١٠٨) من سورة يونس.

طريقة اليهود والنصارى في دينهم بالملة إشارة على ما يعتقدون، ثم عبر عنها في نفس الآية بالأهواء إشارة إلى أن ما يزعمونه دينا إنما هو مجموعة أهواء، وفي ذلك إشارة على ما وقع من تحريف منهم في الكتابين، التوراة عند اليهود، والإنجيل عند النصارى، وليس هو الدين الخالص الذي جاء به موسى لليهود ولا عيسى لليهود والنصارى، ولو كان ذلك عند الفريقين كما نزل، لما جاز لمحمد ﷺ أن يتبع اليهود والنصارى وقد أغناه الله بالقرآن الكتاب الخاتم، والناسخ للكتب السماوية قبله، وليس بعد القرآن كتاب ينزل من السماء، وليس بعد محمد ﷺ نبي ولا رسول.

(١٢١/٢) قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٢١) ﴾.

هذه الآية الحادية والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في مدح من آمن من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، فإن منهم من كان مؤمنا بالكتاب وهو التوراة والإنجيل، وعبر عنهما بالكتاب لأن الإنجيل مكمل للتوراة فكأنهما كتاب واحد، فهم يتلونه حق تلاوته، والمراد تلاوة علم وفهم وتدبر، فكانت النتيجة معرفتهم لصفات النبي الموعود، ولانطباقها على محمد ﷺ بادروا إلى الإيمان به ومنهم عبدالله بن سلام ﷺ كان من أوائل المؤمنين من اليهود، ومن النصارى عدي بن حاتم ﷺ والنجاشي رحمه الله آمن بمحمد ﷺ ولم يره، فالضمير في قوله تعالى: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِهِۦ** ﴾ يعود إلى محمد ﷺ عودا ذهنيا بطريق الالتفات، ويجوز أن يعود إلى القرآن، فهم كما اعتنوا بالتوراة والإنجيل آمنوا بالقرآن، وقد أثنى الله ﷻ على المؤمنين من أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾[١]، وبين تعالى أنهم يفرحون بما ينزل على محمد ﷺ من كلام الله ﷻ، قال

١) من الآية (١٩٩) من سورة آل عمران.

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[1]، ومن شدة فرحهم بسماع الحق ذكر الله ﷻ ما يفعلون عند سماع الحق، قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[2].

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ففيه إشارة إلى أن المؤمنين به هم الرابحون، ويقابلهم الكافرون به فهم الخاسرون، وهذا فيه قصر الفوز على المؤمنين به، وقصر الخسران على الكافرين به.

(٢/١٢٢) قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، بدأ الله ﷻ هذا النداء لبني إسرائيل في هذه السورة المباركه في الآية الأربعين منها، وفي السابعة والأربعين، وكرر تعالى نصها مرة أخرى، وهي هذه الاية، وإن هذا النداء تكريم لإسرائيل عليه السلام وهو يعقوب أبو يوسف عليه السلام وإخوته وذريتهم، وفيه ترغيب لبني إسرائيل في عهد نبينا محمد ﷺ لعلهم يتذكرون فضل الله على أسلافهم فيؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ويعتنقوا دين الإسلام، وقد أوضحنا الكلام على هذه الآية عند الآية الأربعين، والسابعة والأربعين.

(٢/١٢٣) قال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

---

١) من الآية (٣٦) من سورة الرعد.

٢) من الآيات (١٠٧ . ١٠٩) من سورة الإسراء.

هذه الآية الثالثة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توصي بني إسرائيل في عهد نبينا محمد ﷺ بعد أن يتذكروا نعمة الله ﷻ على أسلافهم، أن يتقوا يوم الجزاء والحساب، وهو اليوم الذي لا تجزئ فيه نفس عن نفس شيئا، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[1]، فلا يغتر بنوا إسرائيل بانتسابهم إلى يعقوب عليه السلام، فإن الموقف يوم الجزاء والحساب لا يقيم لذلك وزنا، فكل نفس بما كسبت رهينة، فلا ينفعها نسب ولا حسب، ولا تنفعها فدية ولو بمن في الأرض، وهذا نفي لكل أشكال العون والمساعدة، فلا شافع ولا ناصر، وقد نفى الله ﷻ قبول ذلك في ذلك الموقف العظيم.

(٢/١٢٤) قال تعالى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

هذه الآية الرابعة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي عود على ما بدأ به تعالى في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وما تلا من الكلام على آدم عليه السلام، واصطفاء بني إسرائيل من ذريته، وما أنعم به عليهم، وذكَّر الله به خلفهم من اليهود في عهد نبينا محمد ﷺ؛ فصح أن يعطف قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾ على ما تقدم ليتم تذكير مشركي العرب بسيرة إبراهيم عليه السلام لأنهم ينتسبون إليه من طريق إسماعيل عليه السلام، وكانو ينتمون إلى الحنيفية ملة إبراهيم، فذكرهم الله تعالى بذلك، وقد ورد تأكيد هذا في قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[2]، والعرب هم القائمون على خدمة بيت الله الحرام، وكان منهم من يعبد الله على الحنيفية كزيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد رضي الله عنه، وقد مات قبيل البعثة، وكان لا يأكل إلا ما ذكر اسم الله عليه،

---

١) من الآية (١٠١) من سورة المؤمنون.

٢) من الآية (٧٨) من سورة الحج.

وورقة بن نوفل وغيرهما، ولم يستبعد أهل الكتاب من هذا التذكير فهم ينتسبون إلى إبراهيم أيضا من طريق إسحاق عليه السلام، فالتذكير بقصة إبراهيم يشملهم تبعا، هذا الأب الكريم والنبي الكريم إبراهيم عليه السلام إبتلاه الله عز وجل بكلمات وهي على الصحيح التكاليف الشرعية، وهي مجموع ما أُمر بفعله، وما نهي عنه، وقد أتمهن على الوجه الذي أراده الله عز وجل من فعل المأمور به، وترك المنهي عنه، وقد نوه الله بوفاء إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ ١، فكافأه على وفائه وصبره وإخلاصه بأن جعله إماما يقتدى به، ومن كمال صدق إبراهيم عليه السلام، وحبه الخير للغير لم ينس ذريته وقد تفضل الله عليه بهذه الصفة العظيمة فقال عليه السلام: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ هكذا على الإطلاق، ونظرا لأن ذريته منهم المؤمن والكافر قال تعالى: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بين الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام أن صفة الإمامة لا ينبغي أن ينالها غير المؤمنين، وإذا تأملت الآية الكريمة والآية التالية لها قد تلحظ أنها بالكلام عن إبراهيم وذريته تمهد إلى فهم ما تضمنته الآية التالية من صرف الكلام إلى فضل البيت الحرام، والبلد الحرام، وما يلزم من العناية به وتطهيره، وفي الآية منقبة لإبراهيم عليه السلام.

(٢/١٢٥) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تتضمن الكلام عن سبب إقامة البيت الحرام في البلد الحرام، وأن ذلك ليكون ملاذا آمنا للناس، قال تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ٢، وهذا سبب عظيم في توجه الناس إليه لعبادة الله وحده لا شريك لتوفر الأمن والطهر، وممارسة العبادة من طواف واعتكاف وركوع

---

١) الآية (٣٧) من سورة النجم.

٢) من الآية (٩٧) من سورة آل عمران.

وسجود، ولهذا توجه الأمر على الناس بقصد البيت للحج والعمرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ١.

(٢/١٢٦) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق قصة إبراهيم ودعائه ربه تعالى، يذكّر تعالى بذلك الفريقين العرب واليهود، وكان إبراهيم عليه السلام حظيا بتوفيق الله ﷻ فدعا ربه أن يجعل البلد كله آمنا فلا يكون الأمن قاصرا على البيت الحرام، ولم يعمم في طلب الرزق لأهله كما عمم في طلب الإمامة لذريته، تّعلم من جواب ربه فيما سبق، فقصر طلب الرزق للمؤمنين فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ولكن الله ﷻ صوب له القول كما صوبه في طلب الإمامة، وذلك لفرق بين الطلبين فالإمامة لا ينبغي أن تكون لغير المؤمنين، أما الرزق في الدنيا فقد تكفل الله به لكل دابة، وللبشر المؤمن والكافر على حد سواء، من حيث الإجراء، لا من حيث الكثرة والقلة، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ٢، فقد ينال الكافر من متاع الدنيا ما لا يناله الألوف من المؤمنين، ولكن ليس له في الآخرة إلا النار، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ وفي الآية الكريمة منقبة لإبراهيم عليه السلام.

(١/١٢٧) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾.
هذه الآية السابعة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، لو تأملت الآيات السابقة

١) من الآية (٩٧) من سورة آل عمران.
٢) من الآية (٦) من سورة هود.

تلحظ فيها التمهيد لبناء البيت الحرام، وقد صرح الله ﷻ بتحديد مكانه لإبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [1]، عرَّف محله وعيَّن مكانه، وحدَّه القديم؛ فبنى عليه إبراهيم عليه السلام، وفي هذا منقبة عظيمة لإبراهيم عليه السلام، وتنويه بشرف البيت الحرام، وإشهار لإخلاص إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وطلبهما من الله ﷻ أن يقبل عملهما، فإنه يسمع دعاءهما، ويعلم ما في قلبيهما من اليقين والإخلاص.

(١٢٨/٢) قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والعشرون من سورة البقرة، وهي تُعرّض بالمشركين من خلال دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يكونا مسلمين، هذا الدعاء العظيم عليه مدار الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وقد أُمر أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، وقد تلحظ في الآية السابقة وهذه الآية أن فيهما تمهيدا لنسخ القبلة إلى بيت المقدس، فإن جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنا، وتحديد مكانه القديم وتعيينه لإبراهيم عليه السلام، وأمره ببنائه ورفعه، واسترسال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في الدعاء كل ذلك يوحي بعظمة البيت الحرام، فيعود له ما كان عليه من التعظيم والتكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [2]، فاستحق أن يتوجه إليه المسلمون.

---

١) من الآية (٢٦) من سورة الحج.

٢) من الآية (٩٦) من سورة آل عمران.

(٢/١٢٩) قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾.

هذه الآية التاسعة والعشرون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق الثناء على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبيان ما يملكان من الإخلاص لله والصفاء وحب الخير للغير، ولا أعظم من أن يبعث الله فيهم من أنفسهم رسولا معصوما يعلمهم الخير كله، فكان محمد ﷺ خاتم الرسلِ هو المبعوث رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[١]، وهذا مما أجاب الله به دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فالأميون هم العرب بالإجماع، وهم من ذرية إسماعيل عليه السلام، وهو ولد إبراهيم عليه السلام، وتلاحظ التطابق في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في آية البقرة، والإجابة في آية الجمعة، طلب النبيان الكريمان أن يبعث الله فيهم رسولا، فبعث الله محمدا ﷺ، وطلبا أن يكون منهم، فكان محمدا ﷺ وهو من العرب، وطلبا أن ينزل عليه كتاب يتلوه عليهم، فكان القرآن يتلوه محمد ﷺ على الأمة، وطلبا أن يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فأعطي ذلك كله لمحمد ﷺ، وزاد رب العزة والجلال أن جعل محمدا ﷺ رسولا إلى الناس كافة، وبه ختم الرسالات والنبوات، فلا رسول ولا نبي بعده، وليس بعد القرآن كتاب ينزل من السماء، وهذا معنى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: « **أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى** »[٢]. في قوله تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[٣].

---

١) الآ (٢) من سورة الجمعة.

٢) قال الهيثمي: أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد ولم يوثقه غير ابن حبان، وزاد في تخريجه، ولفظه "مجمع الزوائد حديث (١٣٨٤٥)".

٣) من الآية (٦) من سورة الصف.

(٢/١٣٠) قال تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

هذه الآية الثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تقرر كمال وصحة ما دعا إليه إبراهيم عليه السلام فكانت ملته شرعا مرتضا من الله ﷻ، وقد بين تعالى ملة إبراهيم أنها دين الإسلام الذي بعث به محمد عليه السلام وهداه إليه، وأمره تعالى فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١]، وقد حدد الله هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢]، ولذلك أنكر في آية البقرة هذه على من طلب ملة غير ملة إبراهيم، واعتبره ممن سفه نفسه، أي صيرها في عداد السفهاء؛ لأنه تعالى إستخلص إبراهيم في الدنيا، وجعله في الآخرة في عداد الصالحين الذين أخلصوا له العبادة في الدنيا، وفي هذا تسفيه لعقول المعرضين عن ملة إبراهيم من اليهود والنصارى والمشركين.

(٢/١٣١) قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

هذه الآية الحادية والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي إجابة عن سؤال مقدر، فقد يقال: ما سبب هذا الاصطفاء، نقول: نعم إن الله تعالى فعال لما يريد، يحكم ولا معقب لحكمه، ومع ذلك جعل لكل شيء سببا، علمه من علمه وجهله من جهله، ومن أسباب اصطفاء إبراهيم أنه ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، وقد تقدم فهم هذا عند الكلام على الآية الرابعة والعشرين بعد المائة، ومن الأسباب ما نصت عليه هذه

---

١) الآية (١٦١) من سورة الأنعام.

٢) الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

الآية، قال تعالى حكاية عنه ﷺ: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يتردد في الطاعة والاستسلام.

(٢/١٣٢) قال تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

هذه الآية الثانية والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تضيف سببا آخر لاصطفاء إبراهيم ﷺ، وذلك أنه لما بادر إلى الاستسلام لله رب العالمين، لم يقف عند ذلك الحد؛ بل بادر إلى وصية بنيه بها، وبين لهم أن ذلك من عند الله وليس اجتهادا من إبراهيم، وأنه تعالى استخلص لهم الدين، وهو الإسلام، وأمرهم ﷺ أن يلتزموا به حتى الموت، وهي وصية يعقوب من بعد أبيه إبرهيم عليهما السلام.

(٢/١٣٣) قال تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق إثبات أن الدين الحق هو الإسلام، فتوجه الخطاب في الآية لليهود والمشركين بأنه الذي وصى به إبراهيم بنيه، ومنهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ الذي لم يتوان عن نقل الوصية إلى بنيه، وكانت وصيته ﷺ بأسلوب التقرير، إذ سألهم ما تعبدون من بعدي؟، ولم تكن الإجابة عسيرة عليهم لعلمهم بمعبود أبيهم وجدهم إبراهيم عليهما السلام وهو الله رب العالمين وحده لا شريك له، وتلاحظ أن هذا التواصي هو بأصل الإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى هذا مدار الشريعة بكل تفاصيلها، وتلاحظ في هذا قوة الترابط الاجتماعي بين الآباء والأبناء والأتباع من عامة المؤمنين، فالإسلام لله يجمعهم، وقد جمعت هذه الوصية أبواب الخير في أصل

الإيمان، وبه أوصدت أبواب الشر ، وفي الوصيتين تنويه بالحنيفية وأنها أساس الإسلام، وتلاحظ أن وصية يعقوب جاءت عند نزول مقدمات الموت به، وفي ذلك شدة الحرص على الوصية بما هو حق ثابت لا يتغير ، ليتمكن الموصَى من فهمه والتمسك به، لأن وصية المودّع من أهم ما يُحرص عليه، ومن هذا الباب حرص الصحابة ﷺ لما وعظهم رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقالوا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا[١] ، طلبوا منه ﷺ الوصية حرصا على التمسك بها، وكذلك في خطبته ﷺ في حجة الوداع قال: « **ألا إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد هذا اليوم، فليبلغ أدناكم أقصاكم** »[٢] .

(٢/١٣٤) قال تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

هذه الآية الرابعة والثلاثون من سورة البقرة، وهي توضح بعد ذكر الثناء على إبراهيم وبنيه، بين تعالى أن للصالحين أعمالهم الخاصة بهم، ولغيرهم أعمالهم الخاصة بهم، فلا يزعم أحد خالفهم فيما هو حق أن صلته بهم من نسب وغير نافعة لهم، فإن الاختلاف في الكسب قطع للوشائج، والمراد بالكسب هنا الأعمال الصالحة، وهي عقيدة الإسلام برمتها، فلا ينفع اليهود انتسابهم إلى إبراهيم وبنيه عليهم السلام وهم يكفرون بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه، فإن فضل الآباء والأجداد لا يشمل المردة من الأبناء، فلصالحين ثواب أعمالهم، وللمسيئين عقاب إساءتهم.

(٢/١٣٥) قال تعالى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

هذه الآية الخامسة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح تعالِي اليهود واغترارهم بانتسابهم إلى الأنبياء، لذلك دعو الناس إلى أن يكونوا يهودا أو نصارى

---

١) الترمذي حديث (٢٨٩١) وغيره.

٢) الآحاد والمثاني ٤٦٢/٥ .

زاعمين أن الهداية محصورة فيهم، ولازم هذا أن الضلال في غيرهم، وصدقوا لو كانوا على ملة إبراهيم، ولكنهم جافوها وعادوها، ولذلك كذبهم الله ﷻ بأن إبراهيم كان حنيفا مسلما، وما من المشركين، وهذا تعريض بما هم عليه من الكفر والشرك.

وقد شابهت الرافضة اليهود في هذه الدعوا؛ قال الرافضة: من لم يؤمن بلاية علي ﵁ فهو كافر، ولا يدخل الجنة إلا من اعتقد ولايته، وقال بعصمته، فكفروا أهل السنة قاطبة، وهم يستبيحون دماءهم وأموالهم متى ما تسبطوا عليهم.

(٢/١٣٦) قال تعالى:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾.

هذه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي ترشد اليهود والنصارى إلى طريق الهدى الصحيح، ووسائل الوصول إليه، وليس في الأمر عسر ولا عنت، وذلك بربط الماضي بالحاضر فيعلنوا إيمانهم قولا واعتقادا بالله، فالإيمان بالله لا تختلف فيه الشرائع، وبما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، وبما أنزل إلى إبراهيم من صحف، مرورا بجميع الأنبياء ومنهم نبينا محمد ﷺ وهو خاتمهم، من غير تفريق بين أحد منهم؛ لأن من كفر برسول واحد منهم فإنه كافر بجميع الرسل، وعلى هذا يكونوا مسلمين حقا، إذا أعلنوا عقيدتهم وأشهروها ظاهرا وباطنا، ولا طريق للهداية غير هذا البتة، ولا يلزم من الإيمان برسولٍ الكفرَ بغيره، وكذلك الكتب السماوية، ويصح أن يكون الخطاب للمسلمين بأن يقولوا ذلك ردا على اليهود والنصارى في قولهم: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا؛ فلم يمنع المسلمين نسخ تلك الشرائع من الإيمان بأنها من عند الله بعث بها الرسل إلى أقوامهم خاصة، ثم نسخها بالقرآن، وختم الرسالات بمحمد ﷺ وجعل رسالته عامة للناس كافة، فالذين تخلفوا عن الإيمان بترابط هذه المسميات في الآية هم اليهود والنصارى والذين أشركوا، ويؤيد توجيه الخطاب إلى اليهود والنصارى نص الآية التالية.

(٢/١٣٧) قال تعالى:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

هذه الآية السابعة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحدد الموقف من اليهود والنصارى والذين أشركوا، حيث خاطب الله ﷻ نبينا محمدا ﷺ بعلامة اهتدائهم أن يؤمنوا بمثل ما آمن به المسلمون، وهو ما تقدم تفصيله في الآية السابقة، بحيث يتم تطابق الفريقين في القول والاعتقاد وحينها يكونوا مهتدين، وإذا لم يؤمنوا بما آمن به المسلمون فإنما يريدون المخالفة والشقاق، وفي هذه الحال يطمئن الله ﷻ نبينا محمدا ﷺ بأنه سيكفيه شرهم وأذاهم، وأنه سيجعل الدائرة عليهم، وهو تعالى سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم.

(٢/١٣٨) قال تعالى:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

هذه الآية الثامنة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تصف ملة إبراهيم بأنها دين الله الذي اختاره للناس كافة، وصبغ به قلوب عباده المؤمنين، ولا أحد أحسن من الله يختار ذلك لعباده تعالى.

(٢/١٣٩) قال تعالى:

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

هذه الآية التاسعة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة، جادل أهل الكتاب المسلمين في بعث محمد ﷺ خاتما للرسل، ونسخ الشرائع السابقة بالقرآن منكرين ذلك، وقد صدر منهم الجدل لزعمهم إختصاصهم بالتفضيل، منكرين أن يفضل الله عليهم أحدا، ورغم علمهم بصدق نبوة محمد ﷺ وصدق ما نزل عليه من القرآن لكن الحسد أشعل الجدل فيما هو حق، فوجه الله نبينا محمدا ﷺ أن يذكرهم بفساد تلك المحاجة؛

لأن الله ﷻ كما هو رب اليهود والنصارى هو رب المسلمين أيضا، فما المانع أن يفضل المسلمين ويمن عليهم كما من على غيرهم، وإذا كنتم تزعمون أن الله فضلكم لأعمالكم الصالحة، فنحن المسلمون كذلك لنا أعمال صالحة قد تكون سببا في تفضيلنا، ولاسيما ونحن له مخلصون، وقد تلحظ طلب المقارنه بين أعمال اليهود والنصارى ومزاعمهم وبين إيمان المسلمين وأعمالكم، عند ذاك تجد الفرق بين أعمال الفريقين يجسد الفرق بين الإيمان وضده، وربنا وربكم الله وسيجازي كلا بعمله، وقد أخلصنا له العبادة ولم تخلصوها، وقد تبرأتم من أعمالنا، ونحن أيضا نتبرأ من أعمالكم.

(٢/١٤٠) قال تعالى:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

هذه الآية الأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تفنّد زعما من مزاعم اليهود يزعمون أن ما هم عليه من الضلال هو ما كان عليه المذكورون في الآية وهو زعم باطل، فليسوا أعلم من الله ﷻ وقد بين وصية إبراهيم في الآية الثانية والثلاثين بعد المائة من السورة **﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾** وكذلك وصية يعقوب لبنيه في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة من السورة **﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾** وقد نفى الله تعالى زعم اليهود فقال: **﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾**[1].

١) الآية (٦٧) من سورة آل عمران.

(٢/١٤١) قال تعالى:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي نص الآية الرابعة والثلاثين من السورة، وهي تؤكد أن لكل أمة ما كسبت من الخير والشر، وأن كل أمة مسؤلة عن عملها.

(٢/١٤٢) قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تنبئ رسول الله ﷺ أن سفهاء من اليهود والنصارى سيقولون مالذي ولى المسلمين عن قبلتهم، وقد كانوا يستقبلون بيت المقدس، فكانت أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ والمسلمون إلى بيت المقدس صلاة العصر، وقد صلى رسول الله ﷺ والمسلمون إلى بيت المقدس ستة أو سبعة عشر شهراً، وكان هذا الثبوت بالسنة ونسخ بالقرآن، وهي قبلة شرعها الله ﷻ لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، فأنكر اليهود والنصارى ذلك التحول، فرد الله ﷻ بقوله: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقد تقدم بيان هذا عند الكلام على الآية الخامسة عشرة بعد المائة من السورة.

---

١) الآية (٨٧) من سورة يونس.

(٢/١٤٣) قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحوُّلٌ إلى الكلام عن أمة محمد ﷺ وبيان ما فضلت به على الأمم، ومن ذلك أن الله ﷻ جعلهم خيارا عدولا، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[١]، ولذلك منحهم الله ﷻ الشهادة على الناس، وجعل محمدا ﷺ شهيدا عليهم في الآخرة قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[٢]، فهو شهيد على أمته ﷺ، أما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ فهو ابتلاء للعباد لا للاستفادة العلمية تعالى الله عن ذلك فإنه عليم بما كان وما يكون، قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[٣]، فهو غني عن الاختبار، لأنه يعلم من يتبع ومن لا يتبع، ولكنه تعالى أراد علما يظهر للناس الذين لا يعلمون إلا بالظواهر، وبناء على ذلك يترتب الثواب والعقاب، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ المراد الابتلاء بتحويل القبلة إلى البيت العتيق، لما في ذلك من ظن السفهاء أن محمدا ﷺ في شك من أمره، إذ يتوجه تارة إلى جهة وتارة إلى جهة أخرى، أما من هدى الله فإنهم يعلمون أن ذلك حق وأن الله يفعل ما يشاء، ولا ينتظرون ظهور الحكمة ليؤمنوا، ولذلك عمر بن خطاب ﷺ

---

١) من الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

٢) الآية (٤١) من سورة النساء.

٣) من الآية (١٥٤) من سورة آل عمران.

قال عند تقبيل الحجر الأسود: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"، فقبّله عمر ﷺ إقتداء برسول الله ﷺ، وكل المسلمين كذلك لم ينتظروا معرفة الحكمة من تقبيل الحجر الأسود، وكثير من العبادات المأمور بها شرعا قد لا تظهر الحكمة من التكليف سوى الابتلاء، والسمع والطاعة هو سبيل الرشاد فيها.

(٢/١٤٤) قال تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح شرعية ما تقرر في شأن القبلة، فإن رسول الله ﷺ حينما كان في مكة كان يتوجه في صلاته إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام، فلما هاجر إلى طيبة وجد أهل الكتاب يتوجهون إلى بيت المقدس، فتوجه إلى قبلتهم بيت المقدس، والذي أفهمه أن ذلك لم يكن باجتهاد منه ﷺ بل بوحي من الله ﷻ، يؤيد هذا الفهم قوله تعالى في الآية السابقة من السورة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ فإن فيها ما يدل على عدم الاجتهاد منه ﷺ، وأن الله جعله يتوجه إليها في مهاجره لسبب أراده تعالى، وذلك ابتلاء أهل الكتاب من حيث الاتّباع لمحمد ﷺ المتوجه إلى قبلتهم، أو الانقلاب عنه ولاسيما عند نسخ التوجه والعودة إلى جهة الكعبة، فتوجه نبينا محمد ﷺ إلى بيت المقدس إمتثالا لله ﷻ الذي أراد أن يبتلي أهل الكتاب بذلك، وليس مجاملة لليهود ولا تألفا كما فهم بعض العلماء، مع أن الرغبة منه ﷺ والهوى أن يتوجه إلى الكعبة، وشوقا إلى أمر ربه كان ﷺ يرفع وجهه إلى إلسماء مقلبا بصره، لأن حاله يغنى عن سؤاله، والله عليم بذات الصدور، فشرحت الآية الكريمة هذا الموقف بجلاء، وتحقق ما أراد الله ﷻ من التوجه إلى البيت العتيق، وتبعا لذلك

تحقق ما يرضاه نبينا محمد ﷺ، وظهر به البلاء الذي أراده الله لأهل الكتاب، فجاء النص بالتوجه إلى المسجد الحرام وفيه البيت العتيق، ومن كل أقطار الدنيا، وليس من طيبة حيث يقيم رسول الله ومن معه من المؤمنين، بل من كل بقعة من الأرض برا وبحرا وجوا، وأخبر تعالى أن أهل الكتاب اليهود والنصارى يعلمون أنه هو الحق من عند الله ﷻ وليس من عند محمد ﷺ، وأخبر تعالى بأنه يعلم ما في قلوبهم من الحقد والحسد وإنكار الحق.

(٢/١٤٥) قال تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي كشفٌ لبعض ما يعلمه الله ﷻ من فساد قلوب أهل الكتاب، والتعميم ليس على إطلاقه، لأن منهم من آمن، فينصرف إلى كل فريق منهم ما يليق به من القول، وتلحظ أن في الآية تسلية لنبينا محمد ﷺ وتخفيفا عليه من الحزن الذي ينتابه عند تكذيب أهل الكتاب له، فبين الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ أنه يعلم من فساد قلوب القوم ما يجعلهم ينفرون منه ﷺ ولو أحضر لهم كل الآيات الشاهدة بفساد ماهم عليه ما رجعوا عن باطلهم، وما دام الأمر كذلك فأنت يا محمد لست بتابع قبلتهم لعصمتك من الضلال، والمراد بالقبلة في الموطنين الملة والجهة معا، فلن يتبعوا ملة الإسلام ولن يتوجوا إلى المسجد الحرام، وكذلك العكس، وفي هذا توجيه لعموم المسلمين بترك مجادلة أهل الكتاب في شأن القبلة، والاعتناء بمقاصد الإسلام وإصلاح المجتمع، وقد بين الله ﷻ أفضلية قبلة المسلمين، وأيأس من هداية أهل الكتاب.

أما قوله تعالى: ﴿ **وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ** ﴾ فالمراد أن أهل الكتاب غير متفقين على الملة التي جاء بها النبيان موسى وعيسى عليهما السلام، وليس اليهود متبعين

للنصارى، ولا عكس أيضا، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ عند الآية الثالثة عشرة بعد المائة من السورة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فإن توجيه هذا التحذير إلى نبينا محمد ﷺ مع أنه معصوم من اتّباع الضلال، هو إنذار شديد لأمته من باب الأولى، ولما كان ﷺ معصوما من ذلك صار الوعيد خالصا لغير المعصوم وهم الأتباع، وما كان هذا الوعيد إلا لضلال أهل الكتاب وفساد ماهم عليه من الاعتقاد.

(٢/١٤٦) قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾.

هذه الآية السادسة والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تقيم الحجة الدامغة على اليهود والنصارى بأنهم يعرفون محمدا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وذلك من صفاته في التوراة والإنجيل، فلم ينتفعوا بذلك العلم، وجحدوا ما علموا، والمراد الأحبار والرهبان منهم لأنهم الراسخون في علم الكتاب، ويتبعهم العامة من أهل ملتهم، وهم الذين تولوا كبر كتمان الحق، فكان ذلك عدم إيمان منهم بما جاء على ألسنة أنبيائهم، وهم كذلك يعرفون أن ما جرى من تحول القبلة إلى المسجد الحرام أمر علم أهل الكتاب مسبقا أنه حق، وما كان طعنهم في ذلك إلا مكابرة منهم، وما أكثر مطاعنهم الباطلة، وهم الخاسرون قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]؛ لأنهم علموا صفاته في كتبهم علما قطعيا لا يقبل الشك، حتى الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات لم يكونوا من المهتدين

---

١) الآية (٢٠) من سورة الأنعام.

وهم الخيار من قوم موسى، أخذتهم الرجفة فدعا موسى عليه السلام ربه قال: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [1]، قال تعالى ردا على دعاء موسى عليه السلام: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [2]، هذه الصفات وغيرها وردت مسبقا قبل وجود نبينا محمد ﷺ؛ الله جعله خاتما للأنبياء والرسل، وجعل القرآن ناسخا للكتب السماوية، فكان إيراد ذلك في الكتب السابقة وبشارة الرسل به ﷺ أمرا مهما ليكون تمهيدا للإيمان به من الناس كافة من مبعثه إلى يوم القيامة، ولذلك أخذ ميثاق الأنبياء والرسل على هذا، ليكون حجة على الأتباع، ويكون الرسل شهودا على أممهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [3]، لا شك أن من تولى عن الإيمان بعد هذا البيان فإنما هو خارج عن ملة الإسلام.

(٢/١٤٧) قال تعالى:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾.

١) من الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

٢) الآيات من (١٥٦) والآية (١٥٧) من سورة الأعراف.

٣) الآيتان (٨١، ٨٢) من سورة آل عمران.

هذه الآية السابعة والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، والخطاب فيها موجه إلى النبي ﷺ والمراد المؤمنين من أمته، فإنه ﷺ لا يمكن أن يشك في شيء أوحاه الله إليه، وقد يحصل ذلك من المدعوين، وكل ما ورد على هذا النحو فالمراد به الأتباع، ومثل هذا كثير في الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [3]، وغير ذلك من الآيات فالمراد منها تحذير الأتباع، فإن المعصوم حين يخاطبه ربه بهذا فليعلم التابع أنه المخاطب من باب أولى.

(١٤٨/٢) قال تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والأربعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي عود إلى الكلام عن تحويل القبلة، ومكابرة اليهود في عدم الاعتراف بأنها حق لا مرية فيه، فوجه تعالى الخطاب إلى المسلمين بأن الحل الصحيح أن يتسابقوا في الخيرات، وهي التكاليف الإسلامية، ومنها التوجه إلى المسجد الحرام، وترك أهل الكتاب في ريبهم يترددون، لأن الفريقين أين ما يكونون سيأتي بهم الله ﷻ يوم الجمع للثواب والعقاب، ولن يغادر منهم أحدا إلا أحضره، فالملك بيده تعالى، وهو على كلّ شيء قدير.

---

١) الآية (٦٠) من سورة آل عمران.

٢) الآية (٩٤) من سورة يونس.

٣) الآية (٦٥) من سورة الزمر.

(٢/١٤٩) قال تعالى:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والأربعين بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق الكلام عن التوجه إلى المسجد الحرام، وقد تقدم الكلام عن القبلة عند الآية الثانية والأربعين بعد المائة من السورة، وكذلك عند الرابعة والأربعين بعد المائة، وفي هذه الآية والتي تليها كل ذلك لتأكيد أحقية المسجد الحرام بهذا الأمر، ولأن نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى المسجد الحرام أول نسخ في الإسلام، وأهل الكتاب يعلمون من كتبهم أن المبعوث سيتحول عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال المسجد الحرام، فكان في هذا قطع لمزاعمهم الباطلة، وبين تعالى أن ذلك التحول حق من عنده ﷻ، وسبحان من لا يغفل عن خلقه وهو العليم بكل شيء.

(٢/١٥٠) قال تعالى:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

هذه الآية الخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تؤكيد لوجوب التحول إلى المسجد الحرام من كل جهة وفي كل مكان، كما تقدم في الآيات السابقة، وفي هذا قطع لحجةٍ قد يوردها أهل الكتاب لو لم يتم التحول، وذلك لما يعلمون من أنه سيؤمر بالتحول إلى المسجد الحرام قبلة إبراهيم، لذلك قال تعالى: **﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾** ولكنه تعالى استثنى الذين ظلموا منهم، لأنه لا محالة سينكرون ذلك ظلما وعدوانا وإن صرحت به كتبهم، ووجه تعالى المسلمين أن لا يخافوا ظلم القوم وفجورهم، بل يكون خوفهم من الله ﷻ هو المسيطر على عقولهم وقلوبهم، وبذلك تتم عليهم نعمتا التوفيق والهداية.

(٢/١٥١) قال تعالى:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

هذه الآية الحادية والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تخاطب المؤمنين بنبينا محمد ﷺ وتذكرهم بأن هدايتهم إلى القبلة نعمة من الله ﷻ كما أنه تعالى أنعم عليهم ببعث محمد ﷺ رسولا منهم عربي اللسان صادق الجنان، فكان من قومهم وبلسانهم ليكون أيسر لهم على فهم ما يبلغهم به من كلام الله ﷻ ومن كلامه ﷺ، فلايشق عليهم فهم مراد الله ورسوله، ولا يعسر عليهم العمل بالحلال والبعد عن الحرام، فيحصل لهم بذلك التطهير من كل قذر ودنس حسي أو معنوي، ويحصل لهم العلم بالقرآن، وتجري الحكمة به على ألسنتهم ومن الحكمة رواية ما سمعوا من حديث رسول الله ﷺ، ويعلمهم من الحلال والحرام ما لم يكونوا به عالمين من قبل، وهذه إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام المذكورة في الآية التاسعة والعشرين بعد المائة من السورة، وقد امتن الله ﷻ على المؤمنين بنبينا محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١]، كان هذا لأن الرسول ﷺ عربي، ونواة الإسلام هم العرب، والقرآن بلسانهم فهم يفهمون مقاصد القرآن، ولذلك أدركوا فصاحته، وعرفوا إعجازه، فكانت نعمة الرسالة في هذا، ولذلك انتشر الإسلام بالعرب وبلغتهم، وشرح الله صدور المؤمنين من غير العرب لذلك، ويسر لهم تعلم اللغة العربية قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٢]، فهو ميسر لكل مؤمن عربي أو غير عربي، حتى حصل الفهم والاعتبار، لكل وفق للإسلام، وأراد الله له المجاة من النار.

---

١) الآية (١٦٤) من سورة آل عمران.

٢) الآية (١٧) من سورة القمر.

(٢/١٥٢) قال تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق مخاطبة المؤمنين بنبينا محمد ﷺ بأن يذكروا الله ربهم المتفضل عليهم بالنعم، فإنهم إن ذكروا ربهم المنعم ذكرهم في نفسه تعالى، وفي الملأ الأعلى، فقد صح في الحديث القدسي أنه تعالى قال: «**مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم** »[١]، وأمرهم بالشكر على ما حباهم، وحذرهم من كفر النعم؛لأنه يؤدي إلى الكفر بالمنعم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[٢].

(٢/١٥٣) قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي أيضا في سياق مخاطبة المؤمنين بنبينا محمد ﷺ وفيها إشارة إلى أنهم سيلحقهم عناء وشدة في الحياة، ولا يمنعهم من ذلك أن الله أنعم عليهم وهداهم، ولكنه تعالى أرشدهم إلى ما يعينهم على ما يعرض لهم من متاعب فالصبر من أعظم ما يستعين به المؤمن على البلاء، وفي الصلاة راحة نفسية وجسدية للمؤمن، وبشر الصابرين بأنه تعالى معهم، معية العون والتوفيق، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة[٣] وإذا حان وقت

---

١) البخاري ومسلم.

٢) الآية (٧) من سورة إبراهيم.

٣) أخرجه أبو داود في سننه (٧٨/٢.رقم ١٣١٩) من حديث حذيفة (كان النبي ﷺ إذا حز به أمر صلى) ويشهد له الذي بعده، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) هذا قول حذيفة وفي سنده محمد بن عبد الله الدؤلي مقبول.

الفريضة قال: « **يا بلا ل أرحنا بالصلاة**»[1]، ولما اشتد خوف أبي بكر الصديق على رسول الله أن يكشف المشركون مكانه حكى الله ﷻقول رسول ﷺ لصاحبه، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[2].

(٢/١٥٤) قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في السياق ذاته، وقد تلحظ في الآية تمهيدا لأحكام الجهاد، ولما هم أهله من نصرة النبي ﷺ وإعلاء كلمة الله ﷻ بنشر دينه الحق، وهذه مهمة ليست هينه قد تزهق فيها الأرواح، ولكنها لا تذهب هدرا، بل أعد الله لها من حياة التكريم ما لا يعلمه إلا هو سبحانه، ومن بقي على قيد الحياة من قومهم وذويهم وإخوانهم المؤمنين لا يشعرون بتلك الحياة، وعدم الشعور ينفي بالأولى عدم إدراك الكيفية، بل هم في حياة منعمون، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، هذه بشائر المؤمنين بنبينا محمد ﷺ، وما يؤل إليه أمرهم، لأنهم حملوا الأمانة على أكمل وجه، فالغاية من الرسالة أن يعلم المرسَل إليهم الحق الذي جاء به الرسول، وغاية علم المرسَل إليهم أن يتحملوا مسؤلية العمل به وإبلاغه الآخرين، بالوسيلة التي أمر الله ﷻ في كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم، ولما علم رسول الله الحق من ربه آمن به وأعد

---

١) أخرجه الطبراني (٣٤٠/٦) من حديث صحابي من أسلم.

قال الهيثمي في المجمع (١٤٥/١): فيه أبو حمزة الثمالي ضعيف واهي الحديث، وأخرجه أبو داود (٢٦٢/٥) والإمام أحمد في المسند (٣٦٤/٥، ٣٧١) وفي إتحاف السادة المتقنين (١٣٧/٣) قال: إسناده صحيح.

٢) من الآية (٤٠) من سورة التوبة.

٣) الآيات (١٦٩ ـ ١٧١) من سورة آل عمران.

نفسه لحمل الأمانة ولذلك ثبت عنه في السيرة الصحيحة أنه قال: « **والله يا عم! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يظهره الله، أو: أهلك دونه** »[1]، وبه اقتدى أصحابه ومنهم الخلفاء الأربعة ﷺ وسار على نهجهم أهل السنة والجماعة حتى استقر الأمر، وسيبقون ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهذا ثابت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

(٢/١٥٥) قال تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح بجلاء ما سبقت الإشارة إليه من موجب الصبر والاستعانة به وبالصلاة، وذلك أن الله ﷻ قضى أن يبتلي عباده المؤمنين بأنواع من البلاء، منها المذكورات في الآية إما بنوع منها أو بأنواع مجتمعة، والعاقبة لمن صبر واستعان به وبالصلاة، ولما بشّر تعالى عباده بالجنة قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[2]، والصابرون ينالون أجرهم بغير حساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3]، هذا وعد الله ﷻ والله لا يخلف الميعاد.

(٢/١٥٦) قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

---

١) نور اليقين ٣٢/١.

٢) الآية (٣٥) من سورة فصلت .

٣) الآية (١٠) من سورة الزمر .

هذه السادسة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي بيان لصفة من صفات الصابرين وهم الذين لا يشتد جزعهم عند حلول المصيبة، بل يرجعون عند الصدمة الأولى إلى ذكر الله ﷻ فيقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ولو انتابهم شيء من الجزن لكنهم لا يقولون إلا ما يرضي الرب ﷻ، وقد قال رسول الله ﷺ عند موت إبنه إبراهيم: « **تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون** » ١.

(٢/١٥٧) قال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين ثواب الصابرين على ما يجري عليهم، ومقابلته بذكر الله ﷻ والرجوع إليه، والصلاة من الله على عباده: الثناء عليهم في الملأ الأعلى، وما ينالهم منه تعالى من كرم وعفو وبركة وتشريف في الدنيا والآخرة، وذَكَر الرحمة مع أنها من أجزاء الصلاة؛ لأن الرحمة تشمل كل أنواع الخير والنعم، وذَكَر أنهم هم المهتدون؛ لأخذهم الهداية من كلام الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ؛ وفي ذلك عصمة من الخطأ، ورأس الهداية الإيمان بالله تعالى؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ ٢، ومن الإيمان بالله الصبر عند الصدمة الأولى.

(٢/١٥٨) قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

١) في الصحيحين، وهذا لفظ مسلم حديث (٤٢٧٩) .

٢) الآية (١١) من سورة التغابن.

هذه الآية الثامنة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين أن الله ﷻ جعل الصَّفا والمَرْوة من الشعائر التي يذكر الله ﷻ عندها، وجعلهما من أنساك الحج والعمرة، فلا يحل لمسلم حج أو: اعتمر أن يترك السعي بينهما، وقد نفى الله الحرج عمن تطوف بهما؛ لأن من العرب من تحرج من السعي بين الصفا والمروة بعد الإسلام؛ لأنهم لم يكونوا يفعلونه قبل الإسلام، فترددوا في ذلك، فجاء القرآن الكريم بحل ذلك، ونبْذ ما كان في الجاهلية من عدم السعي بين الصفا والمروة من بعض العرب، وقد سئل أنس ﷺعن الصفا والمروة فقال: "كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾"[١] وأخبر الله ﷻ أن كل من تطوع له تعالى بفعل الخير فإنه تعالى يسارع في قبول عمله وإثابته عليه، وهو عليم بأعمال العباد.

(٢/١٥٩) قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

هذه الآية التاسعة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة، وهي عود على ما تقدم من الكلام عن علماء أهل الكتاب، فإن علماء اليهود والنصارى كتموا صفات نبينا محمد ﷺ ودلائل صدقه في نبوته، وهي مسطورة في كتبهم معلومة لهم، أنكروها ولم يخبروا بها حسدا لكونه من العرب، فكانوا كاتمين للبينات والهدى، وهو عمل محرم؛ لأنه يؤدي إلى الضلال، وهذا يشمل كل من يكتم الحق وهو قادر على إظهاره، سواء كان من الحقوق العامة أوالخاصة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فبيان الحق للناس أمر لازم ولاسيما ما يتعلق بالعبادة والدين، والحلال والحرام، ومن كتم شيئا من ذلك عامدا من غير عذر شرعي يبيح له ذلك، فإنه مطرود من رحمة الله ﷻ، مدعو عليه باللعن من كل لاعن.

---

١) البخاري حديث (٤٤٩٦).

(٢/١٦٠) قال تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

هذه الآية الستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي بيان لكرم الله ورحمته وغناه عن عذاب خلقه تعالى، حيث استثنى التائبين بشروط ثلاثة: التوبة الصادقة، وإصلاح النفس، وبيان الحق للناس، وهو سبحانه كثير قبول التوبة، واسع الرحمة.

(٢/١٦١) قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي عامة في كل من كفر بالله ﷻ بأي سبب من أسباب الكفر، فإنهم مطرودون من رحمة الله ﷻ، والملائكة والناس أجمعون يدعون عليهم بذلك، وهذا أمر محتوم من الله ﷻ عليهم، لا شفاعة فيه تقبل، ولافداءًا يقبل قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[١]، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[٢]، هذا ما تقرر في الكتاب العزيز في شأن من يموت وهو كافر بالله ﷻ.

(٢/١٦٢) قال تعالى:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تؤكد ما سبق الحكم به من الله ﷻ على من يموت وهو كافر به تعالى، بأنهم في العذاب الأليم خالدون، من

١) الآية (٩١) من سورة آل عمران.

٢) الآية (٣٦) من سورة المائدة.

غير تخفيف عنهم من العذاب ولا يمهلون، بل يتتابع العذاب عليهم دون مهلة أو انقطاع عنهم، يضاعف لهم العذاب بطرق شتى قال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1]، هذه عاقبة الكفر بالله ﷻ، ولو عرف الكفار قدرة الله ﷻ ما غفلوا عن طاعته طرفة عين.

(٢/١٦٣) قال تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحسم أمر الألوهية لتضمنها معنى لا إله إلا الله، فهي تقرر تفرد الله ﷻ بالألوهية، وحده لا شريك له، وتنفيها عما سواه، وتبين أنه تعالى رحمن بخلقه في الدنيا، رحيم بعباده المؤمنين في الآخرة، ولا حظ لسواهم في رحمته في الآخرة، وهذا أعظم الحق، وهو إبطال لكفر الكافرين به تعالى.

(٢/١٦٤) قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تقيم البرهان على وحدانية الله وألوهيته لكل شيء، ومن الدلائل على ذلك خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار في نظام لا يختل، والسفن التي تجري في البحر ناقلةً منافع كثيرة للناس، والماء المنزل من العلو تحيا به الأرض فتنبت ما تنتفع به المخلوقات جميعها، والرياح المرسلة لما ينفع الناس، فهي تدفع السفن في البحار في كل إتجاه

---

١) الآيتان (٢٦، ٤٠) من سورة الأنبياء.

تريده، وتدفع السحاب المحمل ببخار الماء، يجري بين السماء والأرض ليصيب نفعه من يشاء الله له ذلك، كل ذلك آيات بينات تدل دلالة قاطعة على ألوهية الله ﷻ لكل شيء.

(٢/١٦٥) قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تصف ضلال أناس جعلوا لله أندادا مع ظهور تلك الدلائل التي لا تخفى على ذي عقل وبصيرة، فإن تكوين تلك الدلائل الجلية الظاهرة، ونظامها الدقيق في حركتها وتفاعلها، وعدم اختلال نظامها البديع لهي براهين قاطعة على أن لها خالقا متصفا بكمال العلم والقدرة المطلقة، وأنه الإله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأن حقيقة الألوهية منتفية عمن سواه، ومع هذا أشرك به تعالى بعض عباده، ولم ينتفعوا بشيء من تلك الدلائل، لأن عقولهم ليست راسخة في العلم به، وجعلوا لله أندادا يعظمونهم كتعظيمه سبحانه، ولكن المؤمنين أشد حبا لله لخلوص محبتهم من الشرك، ولسلامة عقولهم وبصائرهم استدلوا بتلك الآيات على أن لها خالقا لا يستحق العبادة غيره، ومن أظلم الظلم أن تجعل لله ندا وهو خلقك [١].

أما قوله تعالى: **﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾** فالمراد أن الذين جعلوا لله أندادا لو يرون في الدنيا ما أعد الله لهم من العذاب الذي سيرونه في الآخرة لعلموا وهم في الدنيا أن القوة المطلقة في كل شيء لله ﷻ، يحكم بما يشاء ويفعل ما يريد، وأن الله شديد العقاب لمن أشرك به، ولما أقدموا على الشرك به تعالى.

---

١) في الصحيحين وهذا لفظ البخاري حديث (٤٣٨٩).

(٢/١٦٦) قال تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

هذه الآية السادسة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تذكر مزيدا من حسرة الكافرين بعد رؤيتهم العذاب في الآخرة، وعندما يتبرأ منهم متبوعوهم الذين كانوا يضلونهم في الحياة الدنيا، فلا يجدون منهم نفعا في ذلك اليوم العصيب، وقد رأى الفريقان العذاب، وتقطعت بهم أسباب النجاة التي كانوا يوعدون بها من متبوعيهم في الدنيا، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٢] ، وهذا لقاء تعاونهم على الشرك بالله ﷻ فأهلك بعضهم بعضا، وكانوا شركاء في العذاب.

(٢/١٦٧) قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

هذه الآية السابعة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين أن كل من عصى الله ﷻ ومن كفر به تعالى يتمنون في الآخرة، والأماني قد يتحقق شيء منها في الدنيا، أما الآخرة فلا أماني وليس للإنسان إلا ما سعى، وهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليقيموا توحيد الله في نفوسهم ويتبرؤا من دعاة الضلال، ولكنها أمنية مستحيلة؛ لأن الله أنذرهم ذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يهتدوا بها، فهم يوم القيام يرون نتائج أعمالهم في الدنيا حسرات عليهم، وكتب عليهم الخلود في النار.

---

١) الآية (٦٢) من سورة مريم.

٢) الآية (٢٥) من سورة العنكبوت.

(٢/١٦٨) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾.

هذه الآية الثامنة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي عودة إلى دعوة الناس كافة ومنهم كل من عبد غير الله ﷻ، دعاهم الله ﷻ إلى التمتع بما في الأرض من المطعومات التي أحلها ﷻ، وكل شيء أحله الله للناس فهو طيب، ونبه بالأكل على ما سواه من الحلال من ملبس ومركب وغير ذلك؛ لأن الطعام قوام حياة الناس، وأساس معاشهم، وحذرهم تعالى من حبائل الشيطان، ومكره وكيده لهم فإن عداوته لهم بينة ظاهرة، وفي هذا الخطاب لوم لمن يترك ما أحل الله ويقع فيما حرم من كل شيء، وفي ذلك أيضا إيماء إلى المكاسب ووجوب أن تكون من مصدر أحله الله ﷻ، لأنها مناط الأكل والتمتع، وفي هذا امتنان من الله ﷻ بأن أحل الطيبات من كل شيء، وحرم الخائث من كل شيء، والطيب هو المستطاب في ذاته فلا يحمل ضررا، والخبيث ما خبث في ذاته وهو يورث الضرر والأذى، وكل وساوس الشيطان طرائق إلى الوقوع في السوء والفحشاء والمنكر، وهذا محور عداوته للناس كافة.

(٢/١٦٩) قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ ﴾.

هذه الآية التاسعة والستون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح المحور الذي تدور عليه وسوسة الشيطان وما يزينه للناس إنما هو من أجل إيقاعهم في الأعمال الخبيثة، وما فحش منها، وليفتروا على الله من الأقوال والأفعال ما لا يعلمون حله ولا حرمته، فالوقوع في عمل سيء أمر غليظ، وأغلظ منه الوقوع في الفحشاء وهي كبائر الذنوب، وأشد من ذلك القول على الله ﷻ بغير علم.

(٢/١٧٠) قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾.

هذه الآية السبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي في سياق مخاطبة المشركين الذين اتّبعوا خطوات الشيطان، فإن جوابهم لمن دعاهم لاتّباع ما أنزل الله ﷻ أنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، والواقع أن آباءهم في ضلال مبين، فلم يعقلوا صوابا، ولم يهتدوا إلى الحق، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[٣] وغير ذلك من الآيات في الكتاب العزيز، وهذه حجة من عطل عقله عن التدبر، وأطفأ ضوء بصيرته عن معرفة الحق والعمل به.

(٢/١٧١) قال تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

هذه الآية الحادية والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، في سياق الإخبار عن حال الذين كفروا عموما بأنهم كمن يرفع صوته بأمر لا يستجاب له فيه، فليس فيه سماع قبول، وقد تقدم وصف المنافقين في الآية الثامنة عشرة من سورة البقرة، بأنهم صم

---

١) الآية (١٠٤) من سورة المائدة.

٢) الآيات (٥٢ . ٥٤) من سورة الأنبياء.

٣) الآية (٢١) من سورة لقمان.

بكم مع أنهم يسمعون ويتكلمون، لأن المراد بالصمم عدم سماعهم الحق، وعدم نطقهم به، فكان حالهم كحال من لا يسمع ولا يتكلم، وقال في الآية الثامنة عشرة من السورة: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾يعني إلى حق، وهنا قال: لا يعقلون يعني لا يعقلون الانتفاع بالحق، فكان حالهم كحال من لا عقل له أصلا، وقد وصفهم الله ﷻ بهذا مع أنهم يتكلمون قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[1]، أي سبوكم وشتموكم بكلام مقذع حاد، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾[2]، لفصاحتهم وحلاوة منطقهم، فالمنفي عنهم في هذه الآية وما يماثلها هو سماع القبول والانتفاع، وإعمال العقل في تدبر المسموع وأخذ الحق منه ورد الباطل، ولعدم تمتعهم بهذه الصفة فهم مع الموروث عن الآباء.

(٢/١٧٢) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي التفات إلى خطاب المؤمنين، وهم أتباع الرسل عليهم السلام، وقد أمر الله ﷻ الرسل بأن يأكلوا من الطيبات، ويعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[3]، فأمر الله ﷻ المؤمنين أتباع الرسل بذلك لما في التقيد بالأكل من الطيبات، وإتْباع ذلك بالأعمال الصالحة من أثرٍ طيبٍ في قبول الأعمال في الدنيا، والثواب عليها في الآخرة، لذلك قال رسول الله ﷺ: « **يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين** »[4]، ومن أعظم

---

١) من الآية (١٩) من سورة الأحزاب.

٢) من الآية (٤) من سورة المنافقون.

٣) الآية (٥١) من سورة المؤمنون.

٤) مسلم حديث (٢٣٩٣).

النعم قبول الأعمال، ولذلك أُمر المؤمنون بشكر الله ﷻ تحقيقا لصدقهم في عبادته تعالى وحده لا شريك له.

(٢/١٧٣) قال تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين للمؤمنين ما حرم الله عليهم، فالميتة حرام بجميع أنواعها إلا ما كان في البحر قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[1]، والمراد من طعام البحر ميتته، وهي ما رمى به، وقد قال ﷺ: « **هو الطهور ماؤه الحل ميتته**» وهو حديث صحيح[2]، وما عدا ذلك ففيه الخلاف، والصحيح في الضفدع عدم جوازه لنهي النبي ﷺ عن قتله كما في سنن أبي داود، والنسائي[3] وغيرها، وكذلك ميتة الجراد حلال قال ﷺ: « **أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال** » وهو حديث حسن[4].

والمحرم الثاني في الآية الدم، وهو المسفوح فإنه حرام، دون ما لم يكن مسفوحا كالمتبقي في اللحم ومنه تعلو الحمرة الماء في القدر، والكبد والصحال حلال، لأنهما دمان غير مسفوحين، ودليل حلهما الشطر الثاني من الحديث الآنف الذكر من قوله ﷺ: « **وأما الدمان: فالكبد والطحال** » وحرم تعالى لحم الخنزير، وهو من أخبث الحيونات، طعامه القذارات، منزوع الغيرة على أنثاه دون سائر الحيوانات، فحرم الله تعالى أكل لحمه لما فيه من الضرر، وحرم تعالى من الذبائح ما ذبح تقربا لغير الله

---

١) من الآية (٩٦) من سورة المائدة.

٢) أحمد وغير حديث (٧٢٣٢).

٣) أبو داود حديث (٥٢٦٩) والنسائي حديث (٤٣٥٥).

٤) أحمد من عدة طرق وغيره حديث (٥٧٢٣).

ﷻ بذكر اسم ذلك الغير عند الذبح، وذلك الذبح من أخبث الخبائث، لما فيه من صرف القربة لغير الله ﷻ وهو عمل المشركين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[1]، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[2]، .

أما قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالصحيح أنه عام في كل ما يترتب عليه ضرر بالغ، ومن ذلك المخمصة: شدة الجوع المفضية إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[3]، والإكراه المفضي إلى الهلاك قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[4]، فيباح لمن وقع في هذه المواقف من المحرم ما يسد الرمق، ويكف الهلاك، ويمنع بطش العدو المهلك، وقد قال ﷺ: « **إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** »[5].

(٢/١٧٤) قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) ﴾.

هذه الآية الرابعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي عود على ما ذكر في الآية التاسعة والخمسون بعد المائة من السورة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ

---

١) من الآية (١٢١) من سورة الأنعام.
٢) من الآية (٣) من سورة المائدة.
٣) من الآية (٣) من سورة الأنعام.
٤) من الآية (١٠٦) من سورة النحل.
٥) ابن حبان حديث (٧٢١٩).

وَالْهُدَىٰ ﴾ وفي الآية الكريمة تحذير للمسلمين مما أحدثه أهل الكتاب في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم، وتحليل بعض ما حرم الله عليهم؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرؤوا من كتابهم ما غيروا العمل بأحكامه، كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة، حين دعا النبي ﷺ أحد اليهود ليقرأ ذلك الحكم من التوراة فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك[1]، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾[2]، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل، وقد كتم اليهود والنصارى الحقائق المتعلقة بمحمد ﷺ ونبوته والقرآن المنزل عليه، وقد أخذوا بالفتوى أموالا من المستفتين ليفتوهم بما يوافق أهواءهم، وكذلك أخذهم الرشوة ثمنا لأحكام باطلة، وهذا الفريق من اليهود والنصارى بعملهم السيء ما يأكلوا في بطونهم إلا النار، بيان لما يؤل إليه حالهم في الآخرة، وليس لهم حظ في خطاب الله يوم القيامة لسوء عملهم، وليس لهم عنده ذكر ولا ثناء حسن، فليس لهم إلا الذم والعذاب الشديد الألم.

(٢/١٧٥) قال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وفيها بيان لمآل الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، وأولهم اليهود والنصارى والسياق مستمر في الإخبار عنهم ومن نهج نهجهم إلى يوم الدين، لأنهم بعملهم القبيح إبتاعوا الضلالة بالهدى، المشترَى الضلال والثمن ترك الهدى، وأختاروا العذاب مقابل المغفرة، وهذا تدمير لحياتهم في الآخرة، وهذا التصوير التجاري يؤكد أن حياة الإنسان في الدنيا هي رأس ماله، ونتائج أعماله فيها هي مكاسبه في الآخرة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولذلك كانت هذه التجارة خاسرة، وكان الخسران عظيما، ولذلك جاء التعجب من

---

١) البخاري حديث (٦٨٤١) وله أطراف، ومسلم حدبث (١٦٩٩).

٢) من الآية (٩١) من سورة الأنعام.

طول صبرهم على النار، وفي ذلك إشارة إلى طول المدة التي يعذبون فيها، وهي مدة أخبر الله عنها في كثير من الآيات أنها الخلود.

(٢/١٧٦) قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تعليل لما سبق ذكره في الآيتين السابقتين من أحكام إلهية، كان سببها أن الله ﷻ نزّل الكتاب بالحق والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل، فكتم اليهود والنصارى ما فيه من الحق ولاسيما المتعلق برسالة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، وغيروا وبدلوا حقائق يعلمون أنها من عند الله ﷻ، ويجوز أن يقال: إن المراد بالكتاب في هذة الآية القرآن الكريم، وأن أهل الكتاب كتموا ما يتعلق به في كتابهم التوراة والإنجيل، وهو المنزل من عند الله بالحق، وكتموا صدق نبوة محمد ﷺ وهو حق، فاستحقوا العذاب لقاء ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فأرى والله أعلم أن المراد بالكتاب القرآن الكريم، وأن الذين اختلفوا فيه هم المسلمون الذين آمنوا بأنه كلام الله ﷻ منزل من عند الله ﷻ على رسول الله ﷺ، وخالفهم اليهود والنصارى الذين كتموا ما يؤكد ذلك ويصدقه في كتابهم التوراة والإنجيل، فالفريقان في خلاف بعيدٌ أمده لا يلتقيان إلى يوم القيامة، وأجاز بعض العلماء أن يراد بالكتاب التوراة والإنجيل، والذين اختلفوا فيه اليهود والنصارى، وأجازوا أيضا أن يراد به القرآن، والذين اختلفوا فيه هم مشركوا العرب اختلفوا في وصفه بأنه شعر أو سحر وغير ذلك.

(٢/١٧٧) قال تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ

ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تلخص مبادئ الإسلام، وتجعلها ركائز لسلوك المؤمن بها، لتصل به إلى البر الكامل، والخلق الرفيع، وفي الآية الكريمة عود بالإيماء إلى مزاعم اليهود والنصارى في تحويل القبلة، وبينت أن مجرد التوجه إلى المشرق أو المغرب أو غيرهما ليس هو البر، ولكن البر ما يكون سببا للتوجه إلى أي جهة وهو الإيمان بالله ﷻ، والملائكة، والكتاب: المراد به جنس الكتاب المنزل من عند الله، والنبيين: من كان منهم رسولا، أو: نبيا لم يرسل، وهذه أربعة من أركان الإسلام، وفيها من أركان الإسلام ما هو ظاهر معلوم، وفيها من الحث على الأعمال الصالحة من الصدقات، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والعقود، والتزام الصبر مطلقا في حال الشدة والرخاء، وعند لقاء العدوا، هذه جملة وافرة من خصال البر، وختمت الآية بشهادة العليم الخبير بصدق أصحاب هذه الصفات، وتقواهم لله ﷻ، ومنها يعلم الفرق الشاسع بين ما يدعو إليه المسلمون، وما يدعو إليه غيرهم.

(٢/١٧٨) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي طرح في إرساء العدل بين الناس وليكون الإسلام رائدا في ذلك، قال شيخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بينته السنة، وحاصل تحرير المقام فيها: أن الذَكَر الحر المسلم يقتل بالذَّكَر الحر المسلم إجماعاً، وأن المرأة كذلك تقتل بالمرأة كذلك إجماعاً، وأن العبد يقتل كذلك بالعبد إجماعاً، وإنما لم

نعتبر قول عطاء باشتراط تساوي قيمة العبدين، وهو رواية عن أحمد، ولا قول ابن عباس: ليس بين العبيد قصاص لأنهم أموال؛ لأن ذلك كله يرده صريح قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وأن المـرأة تقتـل بالرجل؛ لأنها إذا قُتلت بالمرأة، فقتلها بالرجل أولى، وأن الرجل يقتل بالمرأة عند جمهور العلماء[1].

(٢/١٧٩) قال تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

هذه الآية التاسعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تخاطب ذوي العقول السليمة، وتوضح علة الحكم بالقصاص بعد كون ذلك عدل لا ريب فيه، قال شيخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: يعني أن من علم أنه يُقتل إذا قَتل يكون ذلك رادعاً له وزاجراً عن القتل، ولو كان الاثنان لا يقتص منهما للواحد، لكان كل من أحب أن يقتل مسلماً، أخذ واحداً من أعوانه فقتله معه، فلم يكن هناك رادع عن القتل، وبذلك تضيع حكمة القصاص من أصلها، مع أن المتمالئين على القتل يصدق على كل واحد منهم أنه قاتل فيقتل، ويدل له أن الجماعة لو قذفوا واحداً لوجب حد القذف على جميعهم، والعلم عند الله تعالى[2]، وقال رحمه الله: ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: القصاص، فإن الإنسان إذا غضب وهم بأن يقتل إنساناً آخر فتذكر أنه إن قتله قتل به، خاف العاقبة فترك القتل، فحيي ذلك الذي كان يريد قتله، وحيي هو؛ لأنه لم يَقتل فيُقتل قصاصاً، فقتْل القاتل يحيا به ما لا يعلمه إلا الله كثرة كما ذكرنا، ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها، ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديماً وحديثاً قلة وقوع القتل في البلاد التي تُحكّم كتاب الله، لأن القصاص رادع عن جريمة القتل، كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفاً.

---

١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/٣٧٢.

٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/٤١٠.

وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحْبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع، كله كلام ساقط عار من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعة فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل[1].

قلت والعجب من منتقدي حكم القصاص، أنهم نظروا إلى حال القاتل، ولم ينظروا إلى جريمته وحال المقتول وذويه، فالقاتل ظالم بإزهاق نفس حرم الله قتلها، والمقتول قد يكون مظلوما، وقد يكون عائلا لأبوين كبيرين، وأبناء قاصرين، يلحقهم من الضياع والهوان بقتل عائلهم ما لا يخفى وقوعه في كثير من الحالات، والحق أن القصاص عدل لا ظلم فيه، وهو سبب قوي من أسباب الأمن المترتب على قوة الردع لسلامة المجتمع من الظالمين المعتدين، ولولا هذا الضابط الشرعي لأسرف الناس في قتل بعضهم بعضا لأتفه الأسباب، ولكان الأخذ بالثأر لا ينقطع يتوارثه الآباء عن الأجداد، والأبناء عن الآباء، وهكذا دواليك دون انقطاع، قال تعالى:
﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[2]،
والمراد بالسلطان الحكم بالقصاص، فإنه سلطان في يد ولي المقتول إن شاء أخذ به، وإن شاء عدل إلى الدية، وإن شاء عفا، والولي مُخيّر بين هذه الأمور الثلاثة، وهذا السلطان لولي من قُتل مظلوما، وليس لمن قتل بحق، فإنه لا سلطان لوليه، وهذا من رحمة الله بالناس.

(٢/١٨٠) قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

---

١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٣١ - ٣٢.

٢) من الآية (٣٣) من سورة الإسراء .

هذه الآية الثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين حكما شرعيا يُحكم العلاقة بين الأقارب في الأموال، خلافا لما كان عليه الناس قبل الإسلام من حرمان بعض الأقارب من الحصول على شيء مما يتركون بعد الموت، أو تفضيل بعضهم على بعض، ولا أحق من الوالدين بالوصية والمعروف قبل الموت وبعده، وكذلك الأقربون، وفي هذا التشريع الحكيم استئصال للبغضاء التي قد تنشأ بسبب الحرمان، وربط لأواصر المودة في القربى، وهذا من أهم مقاصد الإسلام لخيرية المجتمع وتزكيته، ولكن هذه الوصية منسوخة في حق الوارثين لوجود البديل، وهو ما فرض لهم من الإرث، وناسخها قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[1]، فسبحان رب العرش العظيم ما أرحمه بعباده، وما أعدل حكمه وأتمه.

(١٨١/٢) قال تعالى:

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح الوعيد لمن بدل ما أوصَى به المتوفى حال وجوب الوصية قبل نسخها، فإن الله عليم بأحوال عباده وحرصهم على المال، فقد يوصي المتوفى ويُقْدم كل أو بعض مَنْ بعده على تبديل ما أوصى به المتوفى، سواء بدّل بإبطال الوصية، أو بالزيادة فيها، أو بالنقص منها، كل ذلك محرم، لذلك حذر الله ﷻ من هذا العمل الشنيع لما فيه من التزوير، وظلم التوفى، والموصى له، فإن عقاب الفاعلين شديد، والله سميع لأقوالهم عليم بما أقدموا عليه، ومن أقدم على التبديل فقد استشعر أن الله غير عالم بما يصنع، فكان حاله

---

١) الآية (١١) من سورة النساء.

كحال المنكر لعلم الله ﷻ، والوصية باقية مشروعة لغير الوارثين بما لا يزيد عن الثلث، وقدثبت ذلك بالسنة الصحيحة.

(٢/١٨٢) قال تعالى:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

هذه الآية الثانية والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تشير إلى أن لمن خاف على الموصِي الجور في وصيةٍ أوصى بها، وما يلحقه من الإثم بسبب ذلك جواز تبديل الوصية التي فيها جور وظلم من الموصي، وبين وسيلة هذا التغيير للوصية الجائرة وهي السعي بالإصلاح بين من لحقهم الضرر بالوصية، وبين من وُصّي له، فالخوف على الموصِي وليس على المصلح، ونفي الإثم عن المصلح مع أنه مأجور على ذلك، المراد به عدم الوقوع في الأمر الذي حذر الله منه في الآية السابقة، وهو تبديل العدل بالظلم، أما المصلح فقد بدل الظلم بالعدل، وهذا منفي عنه الإثم بل له الأجر، والله غفور لكل مذنب عاد للصواب، ورحيم بعباده المصلحين.

(٢/١٨٣) قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين غرضا جديدا من أغراض الإسلام، وهو إرساء عبادة لله وحده لا شريك له، تعتني بتزكية النفس على وجه الخصوص؛ لأن صلاح نفس الفرد يرمي إلى صلاح الأسرة، وصلاح الأسرة يرمي إلى صلاح المجتمع، وصلاح المجتمع يرمي إلى صلاح الأمة، هذا الترابط هو لحمة الإسلام العظيمة، ونتيجته تقوى الله ﷻ على العموم، إذ ليس هو تعالى في حاجة إلى تقوى الناس، ولكنها لصلاح أنفسهم، والمراد بالصيام على الصحيح صيام شهر رمضان، فصومه حكم عظيم شرعه الله ﷻ لأمة محمد ﷺ على وجه الفرضية،

وهو الإمساك نهارا عن الأكل والشرب، والنساء، وكل مانهى الله عنه على وجه الخصوص في رمضان إضافة إلى ما نهى عنه المسلم بإطلاق في رمضان وغيره.

أما قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم الأمم السابقة، فالمراد جنس الصيام والمماثلة في فرضية الصيام مع اختلاف الكيفية، فأصل الصيام مفروض على الأمم السابقة، ومنهم اليهود والنصارى، قيل: كتب عليهم صوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويوم عاشوراء، وسيأتي مزيد بيان عند الآية السابعة والثمانين بعد المائة من السورة.

(٢/١٨٤) قال تعالى:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾.

هذه الآية الرابعة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تفصل ما أجمل في حكم الصيام في الآية السابقة، إذ بينت الآية أن الصيام في الإسلام يختلف منهجا عن الصيام لدى الأمم السابقة، فهو يخالف صيام اليهود والنصارى في القيود والكيفية، ففي الإسلام المريض من الناس أو من كان على سفر رخص الله له الفطر في نهار رمضان، وأوجب عليه قضاء الأيام التي أفطر فيها بسبب مرض أو سفر، وخيَّر الذين يطيونه: يقدرون عليه بين الصيام والفدية عن كل يوم طعام مسكين، ومن تطوع بالصوم أو: الفدية كل ذلك خير، فهو خير له عند الله، ومن اختار الصوم على الإطعام فهو خير له، لما في الصيام من الأجر، والإسرار بالعبادة، لكن هذا التخيير وهو نصف الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ من الآية التالية.

وليعلم أن مدلول لفظ "مريض" واسع جدا يشمل كل ما يُمرض الإنسان، فليس كل مرض يبيح الفطر، فالزكام، وألم السن، والصداع الخفيف، ونحو ذلك مما يطيق

الإنسان الصبر عليه فإن الفطر لا يباح بسببه، ولكن ما كان عسيرا من أنواع المرض هو المبيح للفطر.

(٢/١٨٥) قال تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي ناسخة للنصف الأخير من الآية السابقة، وهو التخيير بين الصيام أو الإطعام، وفي الآية بيان أن القرآن أنزل في شهر رمضان في ليلة القدر، قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[١]، وهي ليلة مباركة قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[٢]، وسواء كان نزولا بالجملة إلى السماء الدنيا أو كان ابتداءُ نزوله فيها منجما حسب الوقائع، فنزول القرآن من أعظم النعم على الأمة المحمدية، فكان صوم رمضان من أعظم الشكر لله ﷻ، فناسب وجوبه، ولم تكن أيامه أعيادا يلهو فيها الناس، ويتذكرون فيها نزول القرآن، بل كان بصوم أيامه وإحياء لياليه وتلاوة القرآن فيه، والذكر والدعاء هو العيد العظيم، فما أعظمها من نعمة على المسلمين.

وقد وصف الله ﷻ القرآن بأنه هدى للناس، والهدى من أعظم النعم قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[٣]، والسبق في الخيرات لا يكون إلا بهداية القرآن، ومن أجل هذه النعمة العظيمة علّم عباده أن

---

١) الآية (١) من سورة القدر.

٢) الآية (٣) من سورة الدخان.

٣) من الآية (٣٢) من سورة فاطر.

يحمدونه فقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [١]، وبين تعالى أن القرآن رحمة قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [٢]، والآيات في هذا الصدد كثيرة في الكتاب العزيز، وهو آياتُ هدى، وهو فرقان بين الحق والباطل، فشهرٌ نزل فيه كتابُ يتضمن نعما لا تحصى ألا يستحق أن يصام شكرا لله المنعم المتفضل، بلى والذي نفسي بيده إنه لحق.

أما قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فهو نسخ لحكم التخيير بين الصيام والفدية لمن يطيق الصيام، وإحكام وجوب الصوم عليه عند تيقن هلال شهر رمضان، وبقي الحكم للمريض والمسافر على ماهو عليه في الآية السابقة، ولكنه أعيد في هذه الآية لتؤكيد بقائه، ولئلا يتوهم أحد نسخه مع التخيير، وهذا النسخ أراد الله به اليسر دون العسر، وفيه تنبيه لئلا يتوهم أحد أن نسخ التخيير وهو الأيسر ظاهرا وقع بما هو أشد في الظاهر أيضا، لأن الله ﷻ عليم بما هو أصلح لعباده فاليسر والعسر يتعلق بالمآل دون ظاهر الحال.

والمراد بشهود الشهر، من طلع عليه الشهر وهو في غير سفر ولا مرض مبيح للفطر.

ولـيُعلم أن دخول شهر رمضان لا يثبت إلا برؤية العدول له وشهادتهم بذلك، ولا يثبت بالحساب الفلكي، استنادا إلى قول النبي ﷺ: « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين** »[٣]، وفي هذا النص تعميم الفائدة والتيسير على المسلمين أينما كانوا، والحساب الفلكي بالتأكيد لا يعم خبره كل الناس في كل مكان من الأرض سواء كانوا جماعة أو أفرادا، رغم تقدم أدوات الرصد والمتابعة، والاستئناس بذلك حسن، مع عدم التفريط في اعتبار الرؤية، والعمل بما ثبت في السنة.

١) الآية (١) من سورة الكهف.
٢) الآية (٨٦) من سورة القصص.
٣) البخاري حديث (١٩٠٩).

أما قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فالمراد أن من أفطر شيئا من رمضان لعذر مشروع كمرض أو سفر فهو مطالب بإكمال صيام شهر رمضان بقضاء ما أفطر منه، ليكمل تكبير الله وذكره وشكره على هدايتهم لتمام ما أمروا به من صيام الشهر الكريم.

(٢/١٨٦) قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

هذه الآية السادسة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي التفات بالخطاب إلى نبينا محمد ﷺ لتقرر أمرا طالما غلط فيه العرب وغيرهم، وهو دعوة غير الله ﷻ، وتقرر أن الدعاء عبادة عظيمة لا يجوز التوجه بها لغير الخالق ﷻ، ومن توجه بالدعاء لغير الله ﷻ فقد أقدم على عمل أشرك فيه مع الله ﷻ غيره، وهو من أشنع الذنوب، ولهذه الخطورة لم يقل الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ: وإذا سألك عبادي عني فليأتوا إليك ويعرضوا حاجاتهم عليك، وأنت تعرضها عليّ، بل أخبر أن يعلمهم أن الله ﷻ قريب من كل فرد ولو دعاه من في الأرض في لحظة واحدة فإنه قريب من كل فرد، يسمع دعاءه، ويجيب دعوته، ويعلم حاله، لأنه تعالى محيط بكل شيء من خلقه، لذلك أجاب سبحانه مباشرة: فإني قريب، ولم يقل لنبينا محمد ﷺ: قل إنه قريب، ولكنه تعالى شرط لإجابة دعوتهم أن يستجيبوا له أولا في كل ما شرع لهم، ويؤمنوا به تعالى إلهًا لا شريك له، وبهذا يتحقق رشدهم ومعرفتهم بالصواب، وهذا خاص بدعاء المؤمنين، فإنه تعالى وعدهم بالإجابة على نص الآية الكريمة، وقد تكون الإجابة بواحد من ثلاثة أمور: إما أن يجيبهم فيعطيهم ما سألوا في الدنيا، وإما أن يصرف عنه سوءًا كاد يقع بهم، وإما أن يدّخر لهم في الآخرة خيرا مما سألوا، وقد أخبر تعالى أنه يستجيب دعاء الكفار أيضا، ولكن الإجابة مقيدة بالمشيئة، قال

تعالى: ﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾[1]، وتلحظ أن في الآية تعظيما لنبينا محمد ﷺ إذ هو مورد المؤمنين للسؤال عن الله ﷻ وعن كل ما شرع من الحلال والحرام، وعن علاقتهم المباشرة به تعالى، وفي هذا تنبيه على شدة قرب العبد من ربه إذا حزبه أمر يلجأ إليه، وهذا يجب أن يحرص عليه المسلم في كل الأحوال رخاء وشدة، وقد أدرك هذا المشركون، فإنهم في الشدة لا يدعون غير الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[2]، وتلحظ فهم المؤمنين لقدرة الله ﷻ، ولكنهم سألوا عن شيء يجهلونه، قالوا لنبينا محمد ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟، سألوا عن القرب والبعد، ولم يسألوا عن الواسطة، وسواء كان السؤال عن البعد والقرب، أو: عن الوقت، أو: عن المكان، فإن الواسطة في الدعاء مستبعدة في كل الأحوال، والإجابة جاءت مطلقة لم تقيد بوقت ولا مكان، وبناء على هذا قال رسول الله ﷺ لما رفع الناس أصواتهم بالدعاء وأجهدوا أنفسهم: « **يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنه معكم إنه سميع قريب** » تبارك اسمه وتعالى جده[3].

(٢/١٨٧) قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

---

١) الآية (٤١) من سورة الأنعام.

٢) الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

٣) البخاري حديث (٢٩٩٢) ومسلم حديث (٢٧٠٤).

هذه الآية السابعة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تقرر حكما جديدا للأمة الإسلامية، وهو حِل ما كان محرما على الأمم السابقة، وهو الجماع ليلا، فقد أحله الله ﷻ وأحل مقدماته مالم يطلع الفجر، وبناء عليه فمن جامع في آخر لحظة قبل طلوع الفجر، وأصبح جنبا فصومه صحيح، وقد فرح المسلمون بنزول هذه الآية لما في ذلك من التخفيف، فقد كانوا إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مَشَقة كبيرة.

أما قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ فإن بعضهم كان يخالف ما كانت عليه عادتهم في أول الإسلام، فيقع على أهله بعد العشاء أو بعد النوم، وقد روي أن عُمَر بن الخطاب ﷺ بعدما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت، قال: « **وماذا صنعت؟** » قال: إني سَوَّلَتْ لي نفسي، فوقعت على أهلي بعد ما نمت وأنا أريد الصوم[1]، فنزل الحكم الشرعي، وتاب الله على من وقع منه شيء من ذلك، وعفا عنهم، وبين حدود ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ فالأكل والشرب والجماع ومقدماته مباح ليلة الصيام، يلتبس الرجل بامرأته وتلتبس به، في أي وقت من بعد غروب الشمس حتى طلوع الفجر، وهو تبُّن الخيط الأبيض والمراد به ظهور أول وقت الفجر، والخيط الأسود وهو إنحسار ظلمة الليل قبيل الفجر.

وليُعلم أن الفجر هنا المراد به الفجر الصادق، وهو الذي يظهر نوره معترضا في الأفق، وليس المراد الفجر الكاذب الذي يظهر قبل الفجر الصادق بنور كذنب السرحان واقفا، والسرحان هو الذئب.

---

١) تفسير ابن كثير ٥١١/١.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ فهو حكم جديد يحرّم مباشرة النساء حال العكوف في المساجد؛ لأن الاعتكاف عبادة قوامها الانقطاع عن الشهوة مطلقا، والتعلق بالذكر والصلاة والدعاء وتزكية النفس، فحرم الله ﷻ فيه لمس الرجل أمرته بشهوة فضلا عن المباشرة بمقدمات الجماع أو بالجماع ذاته.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإنه يوضح بجلاء أن إباحة الرفث ليلة الصيام، وحرمة معاشرة النساء حال العكوف في المساجد أمور جعلها الله ﷻ حدا لما يحل وما يحرم، فلا يجوز لأحد تجاوز المباح إلى الحرام، ولا تجاوز حد المحرم بالوقوع فيه، وهذا بيان جلي من الله ﷻ ليكون الناس على حذر وتقوى.

(٢/١٨٨) قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

هذه الآية الثامنة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تقرر حكما شرعيا يُشيع العدل بين الناس، ولاسيما في الأموال التي يحبونها حبا جما، فقد حرم الله ﷻ أن يأكل المسلم مال أخية بغير أمر شرعي يجيز له ذلك، لذلك عبر بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ لأن المسلم يجب أن يعتبر مال أخية ذا حرمة كماله، فلا يرضى باستباحة أكله بالباطل، ولذلك قال ﷺ: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »[١]، وهذا نفي لكل ما كان عليه العرب في الجاهلية، فقد كانوا في مكاسبهم يأكلون أموال بعضهم بالباطل، وأول ذلك الربا، والميسر، والنهب والسلب، وأكل أموال الأيتام وغير ذلك كثير، لذلك جاء التحريم عاما في كل الأموال، وهذه قاعدة في حفظ الأموال عند المسلمين لا يجوز تجاوزها.

---

١) البخاري ومسلم، وهذا لفظ البخاري حديث (١٢).

أما قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي تتقدمون بدعاواكم الباطلة عليها إلى القضاة زاعمين أنها لكم، وتقيمون على ذلك شهادة الزور، ولو صح الحكم لكم ظاهرا، فإنها في الواقع حرام عليكم، لأنكم بنيتم دعواكم فيها على باطل، وما بني على باطل فهو باطل، فحكم القاضي لا يحل حراما، ولا يحرم حلالا، ولكنه يفصل الخصومة لا غير، ومن فعل ذلك فهو يأكل أموال الناس بالباطل، وذلك عام في القريب والبعيد، وحاصل الأمر أنهم يعلمون ظلمهم وكذبهم فيما يدّعون، ومن تأمل منهج الرافضة في الخمس يعلم تمام العلم أنه أكل لأموال الناس بالباطل.

(٢/١٨٩) قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

هذه الآية التاسعة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تو ضح أمرا كونيا لا يعلمه إلا الله ﷻ سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة ما شأنها؟؛ وكان منشأ السؤال من اليهود، عن الأهلة تهل صغيرة وتزداد حتى تصير بدرا، ثم تتناقص حتى تختفي، وتهل مرة أخرى وهكذا دواليك، وكان الأجدر بهم النظر في غرائب صنع الله ﷻ وعجائب خلقه في السماوات والأرض، ليستدلوا بذلك على كمال قدرته تعالى، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، ومع ذلك أرشد رب العزة والجلال رسوله ﷺ أن يجيبهم بأنها مواقيت للناس في مواعيدهم في مجرى شئونهم في الحياة، ومن ذلك شأن العبادات، ومنها معرفة وقت الحج المفروض على المسلمين، وغير ذلك كصيام شهر رمضان، وجواز العمرة في كل شهر، وغير ذلك من النوافل.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ففيه نفي ما كان عليه الناس قبل الإسلام، وذلك أنه كان من عادت الأنصار إذا حجوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار

فدخل من قبل بابه فكأنه عُير بذلك فنزلت١ الآية، لبيان أن تلك العادة ليست من البِر الذي يرضاه الله ﷻ، ولكن البر الذي يرضاه الله ﷻ هو التقوى، وبذلك يكون الفرح في الدنيا والآخرة.

(٢/١٩٠) قال تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

هذه الأية التسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي بيان لكيفية تعامل المسلمين مع غيرهم، بادئ ذي بدء، وهو من التدرج في إيجاب الجهاد في سبيل الله ﷻ، وقيل: هي أول آية نزلت في الجهاد في المدينة، فذكرت أولا أن يكون القتال والمراد به الجهاد المشروع بالكتاب والسنة مقصودا به إعلاء كلمة الله ﷻ؛ وهي قول لا له إلا الله، كلمة تنفي الألوهية عن غير الله ﷻ، ومعناها لا معبود بحق إلا الله، فالقتال لم يشرع في الإسلام إلا لهذا الغرض، تطهير الأرض من عبادة غير الله ﷻ، وحتما يقاتل المسلمين من يعبد غير الله ﷻ، فشرع الله للمسلمين قتالهم، ونهاهم عن الاعتداء بكل أنواعه، لأنه تعالى يكره المعتدين ولو كان المعتدى عليه من ملة غير الإسلام، لأن الاعتداء ظلم والظلم محرم في الإسلام، والآية محكمة على رأي ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ما أميل إليه.

(٢/١٩١) قال تعالى:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي ناسخت للآية السابقة على رأي في ذلك، والصواب أنها تهييج للمسلمين، وإغراء بأعداء الإسلام، لتكون هممهم منبعثة على عداوتهم وقتالهم، كما كانوا منبعثين على قتال المسلمين، وعلى

---

١) البخاري ومسلم، وهذا لفظ البخاري حيث (١٦٧٦).

إخراجهم من مكة، وأباح لهم الاقتصاص بالقتل وبطردهم من أرض مكة لقاء فعلهم بالمسلمين، فإن فتنة إخراجهم من أرضهم أشد عليهم من القتل، وفتنة إجبارهم على الشرك أعظم من قتلهم، وفي الآية الأمر بتتبع المقاتلين منهم بالتقتيل حيثما حلوا، سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين أم كانوا في حالة تنقل أو استطلاع ونحو ذلك، لأن أحوال المحارب لا تنضبط، وليس في الوقت سعة للنظر في نوايا العدو، إذ قد يبادر إليهم في حال ترددهم وتفكرهم، فزمام الأمر يُملك بالمبادة والمناجزة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ فيه بيان ما فيه صلاح المسلمين وهو عدم القتال عند المسجد الحرام تعظيما له، فلو ظفروبهم عند المسجد الحرام غير متلبسين بقتال فلا يقاتلوهم، ولكنه تعالى أذن في قتال الدفاع، فمن قاتل المسلمين عند المسجد الحرام فلهم قتاله دفاعا عن النفس.

(٢/١٩٢) قال تعالى:

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

هذه الآية الثانية والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تحتمل أن يراد: فإن انتهوا عن قتالكم عند المسجد الحرام فإن الله غفور رحيم إذ قاتلتموهم عند المسجد الحرام، فتكون المغفرة والرحمة للمؤمنين، وتحتمل إن انتهوا عن الكفر وآمنوا فإن الله غفور رحيم، فلا يعذبهم بعد الإسلام والإنابة، ولو قتلوا بعض المسلمين.

(٢/١٩٣) قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة والتسعون بعد المائة وهي تبين سبب الأمر بقتال المشركين، أنه عدم إظهار توحيد الله ﷻ، فالمراد أن يستمر قتال المشركين حتى القضاء على فتنة الاعتقاد، فإن الشرك فتنة عظيمة للناس، والقضاء على مظاهره إقامة للدين، والدين

المراد به عبادة الله وحده لا شريك له، وعند انتهائهم عن عبادة غير الله ﷻ فلا عدوان عليهم إلا من تعدى وظلم بعبادة غير الله ﷻ أو بما يوجب معاقبته، ومن أظهر الإسلام وجب الكف عنه بنص الكتاب في هذه الآية وغيرها، وبنص السنة كما في قصة أسامة رضي الله عنه حين قتل رجلا بعد أن قال: لا إله إلا الله، وقد لامه رسول الله ﷺ أشد اللوم، وكرر عليه قوله: «**أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟** »[1]، وفي رواية « **وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟** »[2].

(٢/١٩٤) قال تعالى:

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾.

هذه الآية الرابعة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي التفات من الكلام عن حرمة المكان وهو المسجد الحرام إلى بيان حرمة الزمان، وهو الشهر الحرام، والأشهر الحرم أربعة: ثلاثة سرد، ذو القعدة وذوالحجة والمحرم، وواحد فرد وهو شهر رجب، هذه الأشهر حرم الله فيها الاعتداء بكل أنواعه، لتوطيد الأمن بين الناس، وكل من انتهك حرمتها بجناية فإنه يعاقب بمثل جنايته، قصاصا وليس إكراها للناس على الإسلام، وهنا وفي الآية السابقة تلحظ إباحة الرد على المعتدي بمثل فعله؛ لأن حرمة الناس أعظم من حرمة المكان المسجد الحرام، والزمان الأشهر الحرم، وهذا مقصد شرعي، وختمت الآية بتوجيه المسلمين إلى تقوى الله ﷻ وعدم تجاوز ما شرع لهم، والله مع المتقين بالنصر والتوفيق والتأييد.

(٢/١٩٥) قال تعالى:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾.

---

١) البخاري ومسلم، وهذا لفظ البخاري حديث (٣٩٣٥).

٢) مسلم حديث (٢٥٩).

هذه الآية الخامسة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تخاطب جميع المسلمين بلازم الجهاد في سبيل الله ﷻ، وهو الاستعداد لقتال العدو بالقوة المناسبة، وأولها السلاح وكل ما يعين المجاهدين في سبيل الله على قهر عدوهم، وأول شيء يعد لذلك توفير المال اللازم للنفقة العامة، والأخذ بأسباب النصر على العدو، كل هذا بعد التوكل على الله ﷻ والإيمان بأن النصر من عنده تعالى، ولكن جعل له أسبابه ومنها الإعداد لكل صغيرة وكبيرة من أمور لقاء العدو، وليعلموا أنهم مأمورون ببذل أقصى الوسع في الأخذ بالأسباب التي تساعد على النصر، وتسرع بهزيمة العدو، وحذرهم تعالى أن يقعوا فيما فيه هلاكهم، ومن ذلك عدم الحيطة، وعدم الأخذ بالأسباب، فالتأييد والنصر مرتبط ببذل الوسع في توفير أسبابهما، والتهلكة عامة في كل ما يصرف عن عز الإسلام والمسلمين، وكسر شوكة الأعداء، ولا ريب أن الإنفاق في سبيل الله: الجهاد من أعظم الإحسان، ولكن الآية ترمي إلى أبعد من ذلك وهو أن يكون الإحسان عاما في جميع أبوابه الفاضل منها والمفضول، فسبحان من شرع للمسلمين هذه المبرة العظيمة، وأحب المحسنين من عباده.

(٢/١٩٦) قال تعالى:

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي توضح العديد من الأحكام، فيها وجوب إتمام الحج والعمرة، وذلك لمن شرع فيهما أو: في واحد منهما، والصحيح أن وجوب الحج والعمرة مرة في العمر على الفور لمن كان مستطيعا، وبينت الآية أن من نواهما أو أحدهما ومنع من الوصول إلى مكة وهو المحصر فإنه يتحلل في المكان الذي أحصر فيه، فيحلق ويذبح الهدى إن كان معه، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية، إذ لم يتمكنوا من دخول مكة لأداء العمرة،

وأوضحت الآية الكريمة منع أن يحلق الحاج رأسه حتى يبلغ الهدي محله يوم النحر، إلا من عذر شرعي كالإحصار مثلا، وكذلك المعتمر إذا لم يكن معه هدي لا يحلق إلا بعد تمام السعي، وإن كان معه هدي فيوم النحر، إلا من عذر شرعي كالإحصار، وبينت الآية الكريمة أن من كان محرما بحج أو عمرة، وكان به ما يؤذيه في رأسه من مرض وغيره، فإنه يحلق شعر رأسه، وتجب عليه الفدية، وهي المنصوص عليها في الآية الكريمة، والصحيح أنها على التخيير، فإن شاء صام ثلاثة أيام، وإن شاء أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، وإن شاء ذبح ذبيحة، وقد بينت السنة ذلك في قصة كعب بن عجرة ﷺ الذي نزلت الآية بالحكم فيما لحقه من الأذى وهم محرم عام ست من الهجرة وهو المعروف بعام الحديبية[1]، وفي الآية حكم الهدي على المتمتع، لأن قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ ﴾ عام بلفظه في جميع الناس، خُص منه أهل مكة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ لرجوع الإشارة إلى التمتع، وليس إلى الصيام البديل عن الهدي عند العجز، وفي الآية الكريمة بيان التخيير في الهدي من بهيمة الأنعام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فللمتمتع الخيار فيما يهدي إن شاء أهدى الأفضل من بهيمة الأنعام وهي الإبل، وإن شاء من البقر، وإن شاء من الغنم، واحدة أو أكثر، والصحيح أن ذبح الهدي يوم النحر، وليس قبل ذلك، وفي الآية الكريمة بيان حكم من لم يجد القدرة على شيء من بهيمة الأنعام فله أن ينتقل إلى الصيام وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ والأولى أن يصوم الأيام الثلاثة قبل يوم عرفة، ليتفرغ للدعاء في يومها، والذكر وإكمال المناسك فيما بعد عرفة، ولا يجب التتابع في الصيام، وأمرهم تعالى أن يتقوه بالتزام ما أمرهم به، وحذر من مخالفة أمره تعالى فإنه شديد العقاب.

---

1) انظر: البخاري حديث (٣٨٤٢) ومسلم حديث (٢٠٨٣).

(٢/١٩٧) قال تعالى:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

هذه الآية السابعة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين الزمن الذي ينعقد الحج فيه، فمن نوى الحج ودخل في أشهره لزمه ذلك، وأشهر الحج هي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وهي معلومات للعرب وقريش خاصة يعلمون أنها زمن الحج، وجاء الإسلام فجعل التلبس بالإحرام في هذه الأشهر ملزما بعدم الرفث والفسوق والجدال، وقد فصلت الآية ما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾١، ولا يكون الإهلال بالحج إلا في أشهر الحج على الصحيح، لذلك قال تعالى: ﴿فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فكل من عزم الحج في الأشهر المذكورة لزمه التمام مع البعد عن الرفث والفسوق والجدال، والرفث عام يشمل الجماع ومقدماته، والكلام فيما يثير الشهوة سواء حصل عند النساء أو عند الرجال، والقبلة واللمس بشهوة حرام على المحرم ذكرا أو أنثى، والفسوق كل ما فيه خروج عن طاعة الله ﷻ، والجدال كل ما يؤدي إلى مخاصمة، وما فيه خروج عن آداب الحوار والنقاش العلمي الهادف، والعزم على الحج يكون بالنية والإحرام والتلبية.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فالمراد به التشويق إلى الإكثار من أعمال الخير في كل زمان ومكان في أشهر الحج وغيرها، فكل ذلك لا يعزب عن علم الله ﷻ، أمرهم بالتزود من الأعمال الصالحة إشارة إلى عدم استقرارهم في الدنيا، وأنهم عنها راحلوا، فأشبهوا المسافر في مفازة عظيمة فإنه يتزود لسلامته من الهلاك، بكل سبب ينجيه، وبين تعالى أن خير ما يتزود به المسلم تقوى الله ﷻ، والمراد بالتقوى: أن يجعل بينه وبين ما حرم الله حاجزا، ولا يكون ذلك إلا بفعل الخير والتزود منه.

---

١) من الآية (٩٧) من سورة آل عمران .

(٢/١٩٨) قال تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تبين جواز الجمع بين طلب خير الآخرة بإتمام مناسك الحج والعمرة، وطلب خير الدنيا بالتجارة وطلب الرزق، هذا الفضل المبتغى في الحج مجمل في هذه الآية، لكنه مبين في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[1]، والمراد بالضرب في الأرض السفر وطلب الرزق الحلال من أرجائها بالتجارة وغيرها، والتجارة من فضل الله ﷻ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2]، فقوله: ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ يوضح أن الاشتغال بالتجارة من فضل الله ﷻ، ولا خلاف في أن الفضل المذكور في هذه الآية من السورة أنه التجارة إذ لا تعارض بينها وبين أعمال الحج والعمرة، وفي ذلك من مصلحة التعامل بين أفراد المسلمين، وتبادل المنافع بينهم ولاسيما وأنهم يفدون من أقطار الأرض ما يثري التواصل بينهم عقيديا وفكريا واقتصاديا، ويحصل كل فرد منهم على مبتغاه من الآخرين.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ فإن فيه حكم جديد لقريش أصحاب الحرم فقد كانوا لا يخرجون إلى عرفات، ولا يقفون بها، زاعمين أنهم أهل الحرم فلا يخرجون في حجهم إلى الحل، فألزمهم الإسلام بالوقوف في عرفات، كما تؤكد هذا الآية التالية، ولم يغفل المولى

---

١) من الآية (٢٠) من سورة المزمل.

٢) الآيتان (٩، ١٠) من سورة الجمعة.

ﷻ فضل المزدلفة والوقوف بها وذِكْره تعالى فيها، وبين ﷻ أن ذِكْره تعالى من الشكر والتعبد على أن هداهم إلى ذلك التشريع، وقد كانوا قبل ذلك من الضالين فيما شرعوا لأنفسهم.

(٢/١٩٩) قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والتسعون بعد المائة من سورة البقرة، وهي تؤكد أن على أهل الحرم أن يباشروا الحج مع المسلمين من كل أقطار الأرض ولا ينفردوا عنهم بالوقوف في المزدلفة، ولا يفيضوا منها إلى منى إلا بعد الوقوف بعرفة مع الناس والإفاضة منها إلى المشعر الحرام مزدلفة، ومنها إلى منى، وقد استحسن بعض العلماء أن المراد بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ الإفاضة من المزدلف إلى منى، فإن قريشا ألزمهم الإسلام بالوقوف مع الناس في عرفات، والإفاضة منها إلى المزدلفة، وهذه هي الإفاضة الأولى، والإفاضة الثانية مع الناس من المزدلفة إلى منى، ثم أمرهم تعالى بالاستغفار لما في ذلك من الخير، فإنه تعالى واسع المغفرة والرحمة.

(٢/٢٠٠) قال تعالى:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

هذه الآية المائتان من سورة البقرة، وهي تحدد عملا تعبديا بعد أداء المناسك فيما قبل الإفاضة من المزدلفة إلى منى، وذلك أن عليهم بعد ذلك أن يمكثوا في منى لذكر الله ﷻ وشكره على ما أنعم ويسر من الوصول إلى البقاع الطاهرة وتعظيمه تعالى فيها، وفي ذلك نقيض ما كان عليه العرب قبل الإسلام من جعلهم أيام منى أيام ذِكْر لمفاخر آبائهم، وهذا هو المراد على الصحيح، فطالبهم الإسلام بذِكْر الله تعالى ذِكْرا

لا يقل عن ذكر آبائهم بل أشد ذكرا، والمراد بالذكر التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد وتلاوة القرآن والاستغفار وغير ذلك من الثناء والدعاء، وذلك خير من عادة العرب في ذكر الأحساب والأنساب، فذكر الله ﷻ يجمع المسلمين ولا يفرقهم، وعادة العرب مثار البغضاء والفتن.

أما قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ ففيه التحذير من المكاسب المحرمة لأنها تكون على حساب حرمانه من مكاسب الآخرة، فالحلال والحرام لا يجتمعان، والحرام إذا خالط الحلال أفسده ولا عكس في ذلك، فالمشتغل بمكاسب الدنيا المحرمة لا نصيب له في الآخرة، وهذا صنف من الناس وقعوا في هذه المثلبة، فحذر المولى ﷻ من من منهجهم في طلب الدنيا دون الآخرة.

(٢٠١/٢) قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

هذه الآية الحادية بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين الصنف الثاني من الناس، وهم الذين طلبوا خير الدنيا ولم ينسوا خير الآخرة، فكان منهجهم سويا، يعملون لدنياهم ويطلبون ما أحل الله ﷻ من المكاسب فيها، واجتناب ماحرم، ويعملون لمكاسب الآخرة، فكما تحروا الحلال في مكاسبهم، تحروا كذلك الحلال في إنفاقها، لأنهم علموا أن نعيمهم في الآخرة، سببه صلاحهم في الدنيا صلاحا عقيديا واقتصاديا واجتماعيا، ومنهل ذلك الشريعة الإسلامية، وفي الآية ما يشير إلى أن من المؤمنين من ينعّم في الدنيا والآخرة، ومن أمثال هؤلاء في الأنبياء يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، وفي الصحابة عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغير من أغنياء الصحابة ﷺ، ومثلهم كثير من صالحي المسلمين الذين أغناهم الله من

فضله بالرزق الحلال، ووفقهم إلى استخدامه في الحلال، وهم في حالة الكسب والإنفاق يسعون إلى رضوان الله ﷻ ليقيهم عذاب النار.

(٢/٢٠٢) قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

هذه الآية الثانية بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحدد مصير الفريقين:

فالصنف الأول اشتغل بالدنيا صارفا همه لها دون اعتبار للآخرة، فله نصيب من كسبه فقد تراه ممتعا بأمواله في الدنيا منعما بمكاسبه فيها فلا تستغرب، لأنه في الآخرة من أتعس الناس وأشقاهم، فليس له في نعيم الآخرة نصيب، فقد اختار حرث الدنيا قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾١.

أما الصنف الثاني فقد ربح خير الدنيا والآخرة لاهتمامه بالأمرين، فإنه لما نظر إلى الآخرة وهو يطلب الدنيا زوده الله ﷻ خير الدنيا قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾٢، والزيادة إما بإضافة خير الدنيا إلى خير الآخرة، أو بالبركة له فيهما.

(٢/٢٠٣) قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

هذه الآية الثالثة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحدد حكما شرعيا ليكون منسكا من مناسك الحج، وهو الاجتهاد في ذِكْر الله ﷻ في أيام معدودات، وهذا الذكر هو عين الذكر المتقدم في الآية المائتين من السورة، ولكنه هنا بين أنه في أيام، وهي

---

١) من الآية (٢٠) من سورة الشورى.

٢) من الآية (٢٠) من سورة الشورى.

أيام منى الثلاثة المعروفة بأيام التشريق: الحادي عشر من ذي الحجة، والثاني عشر، والثالث عشر، ومن المناسك التي يذكر الله ﷻ عند أدائها في هذه الأيام: رمي الجمرات، وعند ذبح الهدي، والتكبير بعد الصلوات، وغير ذلك من الأذكار المطلقة والمقيدة، وفي قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بيان أن مكث الحاج في آيام التشريق الثلاثة ليس على الوجوب، بل على التخيير، ومن شاء التعجل بعد مرور اليومين الأولين فذلك جائز، ومن أتم الثلاثة فذلك جائز وله فضله، وليست هذة الرخصة في التعجل أو التأخر على الإطلاق، بل هي مقيدة بالتقوى، ومن التقوى عدم التعجل تساهلا فيما بقي من المناسك، لأن التقوى مطلوبة في كل المناسك، ليخرج الحاج مغفورا له، لا ذنوب عليه، كيوم ولدته أمه، والمتساهل في واحد منها غير متقي، والتساهل في مناسك أيام منى حاصل في هذا الزمان من كثير من الحجاج، مغترين بالتوكيل على ما بقي من المناسك، ولاسيما في اليومين الأولين، وقد جعل الله تكفير الذنوب لمن اتقى، وأمرهم الله تعالى بالتقوى لأن فلاحهم متعلق بها، ولأن مردهم اليه ﷻ، فيجازي كلا بما عمل.

(٢/٢٠٤) قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تتحدث عن صنف من الناس لم يؤمنوا باطنا، وقد تقدم عند الكلام على الآية العشرين من السور بيان فرق المنافقين في عهد رسول الله ﷺ، وذكر بعض أسمائهم، وقد أشارت إليهم هذه الآية، وبينت أنهم يحسنون القول ظاهرا في الإيمان والنصح للمسلمين، فيقولون للنبي ﷺ من الإيمان وحب الخير ما يعجبه هو وأصحابه، ويبطنون غير ذلك من الكفر والعداوة، وذلك أشد العداوة والخصام، ومن هؤلاء الأخنس بن شريق الثقفي، فإن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة في الصنف المماثل، ولذلك قالوا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا كثير في أسباب النزول في آيات الكتاب العزيز، فالمنافق

هذا منهجه يحدّث بما لا يعتقد، ويخادع بإشهاد الله ﷻ على أن ما قال مطابق لما في قلبه، وهو كاذب في ذلك، شديد العداوة للمؤمنين.

(٢/٢٠٥) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

هذه الآية الخامسة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح منهج المنافقين الخبيث في كل زمان ومكان، وهو منهج أساسه الخداع والمواربة، ولا يثمر سوى الضرر الشديد بالمجتمع، لاختلال ما به قوام أحوال الناس، وعبر بالحرث عن أمور الحياة ومعاملات الناس فيها الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك عبر بالنسل عن كل ما يتعلق بحياة الفرد الاجتماعية،والدينية، والأمنية، والتربوية، والأخلاقية، وأي فساد أعظم من إصابة الناس في هذة الأمور، ولا شك أن من يتسبب في ذلك بأدنى سبب أنه مستحق للعقاب؛ لأن مقتضى عدم حب الله للفساد معاقبة المفسدين.

(٢/٢٠٦) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي في سياق الكلام عن المنافقين، تبين أن من صفاتهم الاستكبار عن قبول الحق، ومن أعظم الحق تقوى الله ﷻ، ومع ذلك إذا أمروا بها استكبروا وأخذتهم الحمية لضلالهم، ويرون أنه بذلك تكون لهم الغلبة والقهر، وهذا من سخف عقولهم واستخفافهم بالآخرين، فاستحقوا بذلك دخول النار، فالعزة المراد بها الحمية والاستكبار؛ لأن الكفار عموما ومنهم المنافقون ليست لهم عزة على الإطلاق، إنما هي للمؤمنين خاصة قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، نعم لهم حمية واستكبار لا غير.

---

١) من الآية (٨) من سورة المنافقون.

(٢/٢٠٧) قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ ﴾.

هذه الآية السابعة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحوُّلٌ عن الحديث عن المنافقين إلى الكلام عن المؤمنين، فقد ذكر في الآية السابقة حال الكفار الصرحاء، والمتعاملين بظاهر القول مع إبطانهم الكفر، وعقّب هنا بذِكْر المؤمنين الذين يسعون إلى تحصيل الحسنة في الدنيا والآخرة، وهم الذين أخلصوا القول ظاهرا وباطنا، لإيثارهم الحق على الباطل، وقد استعمل المولى ﷻ وصفهم بالشراء الذي هو بمعنى البيع، لأنه أبلغ في الإخلاص، وعبر بالنفس لأنها أغلى ما يملك الإنسان، وأنفس ما يبذل في طاعة المحبوب، لذلك باع المؤمنون أنفسهم لله ﷻ وأوردوها في الدنيا الهلاك طلبا لمرضاة الله ﷻ، والمراد بالهلاك هنا واقع الحال من قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العلياء، أما واقع المآل فهو فوز لأن الغاية منه مرضاة الله ﷻ، فإن سبب نزول الآية يؤكد صحة هذا الفهم، كان صهيب بن سنان الرومي ﷺ له ثراء في الجاهلية، فأسلم فخرج مهاجرا إلى الله ورسوله، فلحق به نفر من قريش ليأسروه، وكان راميا بارعا، فقال لهم: لقد علمتم أني من أرماكم، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فقالوا: لا نتركك تخرج من عندنا غنيا وقد جئتنا صعلوكا، ولكن دلنا على مالك ونخلي عنك، وعاهدوه على ذلك فدلهم على ماله، فلما قدم على النبي ﷺ قال له حين رآه: « **ربح البيع أبا يحيى** »[١] وتلا عليه هذه الآية[٢]، فهذا الصحابي الجليل إستحق أن يكون المثل الأعلى لكل من يبيع نفسه لله ﷻ، فتقررت لهم الرأفة من الله ﷻ.

---

١) المعجم الكبير للطبراني حديث (٧٢٩٦) والمستدرك حديث (٥٧٠٦).

٢) أسباب النزول للواحدي ١/٣٩ .

(٢/٢٠٨) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي بهذا اللفظ الكريم تخاطب المسلمين عامة، ليدخلوا في الصلح كافة، وأساس ذلك حينما عقد رسول الله ﷺ مع أهل مكة يوم الحديبية أَسِف من وقوعه كثير من الصحابة ﵃ ومنهم عمر بن الخطاب لأنهم باعوا أنفسهم لله ﷻ فلم يرهبوا من قتال قريش، لذلك قال عمر ﵁: "ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟"، وحاور رسول الله ﷺ حول هذا[١]، وقبلوا ما قبل رسول الله ﷺ، ونزلت الآية بحكم قبول الصلح ليكون حكما في الإسلام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ فهو تحذير للأمة كلها من الخلاف والشقاق، وإن كان بقصد حسن؛ لأن في ذلك فرصة للشيطان العدو الأكبر للمؤمنين يستغلها لبث الفرقة وعدم اجتماع الكلمة، وإثارة الخلاف أول خطوة للشيطان يسعى إلى استغلالها، ليرتب عليها كثيرا من الشك، ومزيدا من الحقد، فيقع المسلمون بعضهم في بعض، وقد يصل الأمر إلى استباحة الدم والمال والعرض، نعوذ بالله من ذلك.

(٢/٢٠٩) قال تعالى:

﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحذر السلمين كافة من تعمد الزلل وهو العدول عن الحق، وتجاوز حدود الله ﷻ ولا يكون ذلك إلا باتّباع خطوات الشيطان، فأعلمهم العلم اللازم للعقاب؛ لأن الله ﷻ من صفاته العزة، ومن اتّبع

---

١) صحيح البخاري حديث (٢٧٣٢).

خطوات الشيطان فقد وقع في الزلل، ولم يراع صفة العزة لله تعالى، وأعلمهم أنه حكيم في كل الأمور حكمة بالغة كاملة لا يلحقها قصور أبدا، ومن حكمته إثابة المطيع، ومعاقبة العاصي، وإذا أمعنت النظر فيما سبق تلحظ أن في هذه الآية إشارة إلى أن ما وقع من تردد في قبول الصلح هو زلة ما كان لهم أن يقعوا فيها بعد قبوله من رسول الله ﷺ، ولكن شرح الله صدورهم فيما بعد لمتابعة رسوله ﷺ، وجاءت هذه الآية تحذر المسلمين من تعمد معاودة الزلل، ومن رحمته تعالى بالمسلمين أنه لا يؤاخذ بالزلل إلا بعد البيان، ومن وقع منه زلل قبل البيان فإن الله غفور رحيم، وهذا ما حدث لأصحاب الحديبية ﵃ فلم يؤاخذهم قبل البيان، وحذرهم من المؤاخذة بعده.

(٢/٢١٠) قال تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾.

هذه الآية العاشرة بعد المائتين من سورة البقرة، فهمي ألتفات إلى الذين لم يؤمنوا مع قيام البراهين على وجوب الإيمان، فالله ﷻ يوبخهم على عدم إيمانهم، لكونهم جعلوه مرهونا بموتهم، وإتيان الله يوم القيامة في ظلل من الغمام، وتأتي الملائكة، وحينذاك يؤمنوا، وهذا غاية السفه منهم؛ لأن أمر الإيمان في ذلك المشهد قد انتهى، ورجعت أمور الدنيا والآخرة إلى الله ﷻ، وهذا كقوله تعالى: **﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾**[1]، فهم ما ينظرون بعد البينات إلا القيامة ليحصل لهم اليقين، وذلك غير نافع لهم لفوات الأمر، ومما يؤيد فهمي هذا التعقيب بسؤال بني إسرائيل عن الآيات البينات التي أتتهم ولم يهتدوا بها.

١) من الآية (١٥٨) من سورة الأنعام .

(٢/٢١١) قال تعالى:

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

هذه الآية الحادية عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تأمر نبينا محمدا ﷺ بسؤال بني إسرائيل الممثلين باليهود والنصارى عن الآيات التي أقامها الله ﷻ لآبائهم الأولين تأييدا لموسى وعيسى عليهما السلام ولم يهتدوا بها، وهي من أعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم، ولكنهم بدلوها كفرا وجحودا، وهذا يستلزم عقابا شديدا لهم، وأعلمهم أنه تعالى شديد العقاب، وقد أمر رسول الله ﷺ بسؤال بني إسرائيل لأنهم أهل كتاب يعلمون من أحوال الرسل ما لا يعرفه غيرهم، والسؤال في حقهم ليس للإقرار بل لتقريعهم بأنه لا يسعهم إنكار ضلال آبائهم وضلالهم من بعدهم.

(٢/٢١٢) قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ .

هذه الآية الثانية عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين حب الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب للحياة الدنيا، والمراد كل ما تحتويه الحياة الدنيا من شهوات وملذات، ومظاهر يتفاخرون فيها، ومن كل شيء تمكن من نفوسهم، وتوسعت خطاهم في استحسانه، ولا يكون ذلك إلا بتوغل فيما حرم الله ﷻ منها، وإلا فالناس الكافر منهم والمؤمن يحبون ملذات الحياة، ولكن الافتراق في التعامل مع مصادرها، فالمؤمنون يحبون ما أحل الله منها، ويكرهون ما حرم منها أشد الكره، لذلك يسخر منهم الكفار لعدم تجاوز الحلال منها إلى الحرام، واستسلامهم للحكم الشرعي، ومن سخريتهم بالمؤمنين الضحك عليهم، والتغامز إذا رأوهم، ورميهم بالضلال، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [١]، وقد بشر الله تعالى المؤمنين أنهم فوقهم يوم القيامة، والمراد بالفوقية مطلق التفضيل، فليس العبرة بواقع الحال في الدنيا بل بواقع المآل في الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [٢]، وهذا نص في أن الخيرية ليست في الدنيا دار الزوال، بل في الآخرة دار القرار، ومن آثر خير الآخرة غالبٌ على من آثر الدنيا، ومن سخر من مؤمن فإن الخسران مصيره ولو لم يكن كافرا، لأنه سيلقى العقاب المناسب ما لم يتب ويتحلل من أخيه المسلم، وما أكثر الذين يسخرون اليوم من أهل العلم، والله يرزق من يشاء بغير حساب ومن هذا الرزق أن يسخر منهم الآخرون فيقتصوا منهم بالحسنات يوم القيامة، وأي رزق أعظم من هذا؟.

(٢/٢١٣) قال تعالى:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن الناس كانوا أمة واحدة على الإسلام، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إستقر توحيد الله إلى أن بعث الله نوحا عليه السلام، فوقع الخلاف في أمته عليه السلام فكفروا ولم يؤمن منهم إلا قليل، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ [٣]، فبعث الله عز وجل النبيين لينهوا عن ذلك الكفر، ويعيدوا الناس إلى ما كانوا عليه من الإسلام، فكانوا يبشرون الناس

---

١) الآيات (٢٩ . ٣٢) من سورة المطففين.

٢) الآيات (٣٤ . ٣٦) من سورة المطففين.

٣) من الآية (١٩) من سورة يونس.

بالإيمان بالله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له، مبشرين من أطاعهم بالجنة، وينذرون الناس عاقبة ما هم عليه من الكفر، وينذرون من عصاهم بأن جزاءه النار، وأنزل الله ﷻ على النبيين الكتاب، والمراد الكتب عبر بالجنس لكونها تتفق على دعوة واحدة هي عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1]، وكان هذا محور الخلاف بين قوم نوح ﷺ، لما صرفوا العبادة لغير الله ﷻ، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[2]، فبعث الله ﷻ النبيين لينذروا الناس هذا الخطر العظيم، وأنزل معهم الكتب للاحتكام إليها فيما اختلفوا فيه، ولم يكن الخلاف بين العامة بل بين الذين أوتوا العلم بالكتاب، ومع علمهم بما فيه من البينات وقع البغي بينهم، واستمر الخلاف في توحيد العبودية، وسلك فيه أكثر الناس الضلال إلى أن بعث الله ﷻ نبينا محمدا ﷺ فهدى الله الذين آمنوا به لما اختلف فيه الناس قبلهم من الحق، وهو توحيد الله ﷻ بالعبادة، وتلك مشيئة الله تعالى، واقعة على الفريقين، قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾[3]، بناء على المشيئة القدرية الكونية، قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾[4]، فهو أمر جرى به القلم، وقد علم الله ﷻ مسبقا أهل الهداية، وعلم كذلك أهل الضلال، وكل ميسر لما خلق له، فالهداية بيده وحده لا شريك له، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

١) من الآية (٣٦) من سورة النحل.

٢) الآية (٢٣) من سورة نوح.

٣) من لآية (٣٦) من سورة النحل.

٤) الآيتان (١٠٥، ١٠٦) من سورة هود.

(٢/٢١٤) قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن دخول الجنة مرهون بالثبات على الحق في الدنيا والصبر على كل ما يعرض للمؤمن من امتحان، سواء بمنازلة أعداء الله في مجال الانتصار للحق كما في هذه الآية، أو ما يقع البلاء فيه بغير ذلك، من عموم البأساء والضراء، في الأبدان والأموال والأولاد وغير ذلك، كل ذلك يجري على بني آدم إمتحانا من الله ﷻ وابتلاءً لا لعلم يظهر له تعالى، بل لحكمة أرادها، لذلك بين للمخاطبين أنهم يُختبرون بصنوف البلاء كما أبتُلي السابقون من الأمم، ولم يسلم من ذلك المرسلون عليهم السلام مع كمال طاعتهم وصبرهم وإيمانهم.

(٢/٢١٥) قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين للسائلين عن الإنفاق، من للمؤمنين سواء عمرو بن الجموح ﷺ أو غيره، أو هو وغيره؛ تبين لهم أن الإنفاق لا يكون نافعا للمنفق إلا إذا كان فيما يرضي الله ﷻ لذلك قيده تعالى بقوله: ﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ والمراد بالخير هنا المال على الصحيح، وأكد أن ذلك مما يرضيه تعالى بقوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي يعلم ما نويتم به من رضا الله ﷻ والتقرب إليه، وبين أن من ينفق فيما لا يرضي الله تعالى فإنه يكون من النادمين أشد ما يكون الندم، قال تعالى: ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾[١]، فكل نفقة

١) من الآية (٣٦) من سورة الأنفال.

لا ترضي الله ﷻ فإن منفقها يحصد منها الحسرة والندامة، لأن كل نفقة لا ترضي الله تعالى فيها صد عن سبيل الله ﷻ، ومن الإنفاق ما هو واجب كالنفقة المفروضة، ومنه ما يكون مندوبا بشرط ألا يعطل نفقة مفروضة، ويجوز الإيثار على النفس فيما زاد عن الحاجة الضرورية، ومن الضرورة النفقات الواجبة، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [1]، فالمراد بالخصاصة الفاقة والحاجة، فهم يبذلون المال لغيرهم من إخوانهم المؤمنين مع أنهم في حاجة لما أنفقوا.

أما قوله تعالى: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فذلك تنبيه على أنه لا أقرب من الوالدين لذلك عطف عليهما الأقربين عموما، ولكن لا أقرب بعد الوالدين من الأولاد والزوجات، ثم يليهم الأقرب فالأقرب، ثم اليتامى والمساكين وابن السبيل من المسلمين، ثم ختم تعالى الآية ببيان علمه تعالى بكل خير يعمله المسلم وبنيته في ذلك العمل الخيري، وفي ذلك حث للمؤمنين على الإكثار من فعل الخير، لأنه تعالى عليم به وسيجزيهم عليه أحسن الجزاء.

(٢/٢١٦) قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

هذه الآية السادسة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي انتقال من الحث على الإنفاق من الخير فيما يرضي الله ﷻ إلى أحد أعمال الخير التي أوجبها الله ﷻ على المؤمنين، وهو الجهاد في سبيل الله: قتال غير المسلمين ليكونوا مسلمين يعبدون الله في الأرض وحده لا شريك له، ولا شك أن هذا المكتوب فيه أمور يكرهها الإنسان فالقتال، يتطلب ترك الأموال والأولاد، والتعرض للموت لذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ولكن لِما فيه من حسن العاقبة في علم الله تعالى طمأنهم بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأن عسى في هذا المقام حقيقة لا شك

١) من الآية (٩) من سورة الحشر.

فيها، وفرق تعالى في العاقبة لِما يحبون وما يكرهون، فقال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ لأن ما كرهوا من القتال هو في علم الله خير لهم، وما أحبوا من البقاء في أموالهم وأولادهم هو في علم الله شر لهم، لذلك أكد هذا بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهو وحده تعالى يعلم حقائق ما يشرع لعباده، وما فيه من حسن العاقبة.

(٢/٢١٧) قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن الشهر الحرام معظّم في الإسلام كما كان معظما في الجاهلية، فإن المشركين تعاظموا القتل في الشهر الحرام، لمّا وقع بينهم وبين سرية عبدالله بن حش ﷺ منازلة في نخلة، في السنة الثانية من الهجرة، في أول يوم من رجب، وجميعهم من المهاجرين ﷺ، ولم يعلموا بدخول الشهر الحرام، وقد قتلوا من المشركين عمرو بن الحضرمي، ولم يرد المسلمون القتال، أرادو الاستيلاء على قافلة تجارية لقريش قادمة من الطائف، فاتّهم المشركون المسلمين بانتهاك حرمة الشهر الحرام، فأنزل الله ﷻ جوابا على دعوى المشركين، ليقول لهم نبينا محمد ﷺ: إن القتال في الشهر الحرام كبير ، ولكن أكبر منه إثما ما وقع فيه المشركون من الصد عن سبيل الله ﷻ، وذلك كفر بالله ﷻ، وصد عن المسجد الحرام الذي لا يُصد عنه أحد، وأكبر من ذلك ما فعله المشركون فقد أخرجوا أهله من المسلمين، وأكبر من ذلك فتنة الشرك بالله ﷻ كل ذلك أكبر من القتل في الشهر الحرام، ولا ريب أن المسلمين لما عرفوا أن ذلك وقع منهم في الشهر

الحرام عظم عليهم ذلك، فجاءت الآية بالحكم، وبيان أن ما فعلوه أقل بكثير مما فعله المشركون، فكان في هذا البيان تسلية للمسلمين عما وقع منهم، وأي ذنب أعظم من الفتنة في الدين، وكان عمرو بن الحضرمي أول رجل من المشركين قتله المسلمون، وسرية عبد الله بن جحش ﷺ أول سرية بعثها رسول الله ﷺ، وما غنموا فيها أول غنيمة للمسلمين.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ فيه بيان إصرار المشركين على الصد عن سبيل الله ﷻ، ولن يكفوا عن ذلك حتى يردوا المسلمين عن دينهم الإسلام، وأنهم سيبذلون في سبيل ذلك كل ما يعينهم على تحقيقه، ولذلك حذر المسلمين من التهاون في الدفاع عن إسلامهم، وبين أن من يرتد عن الإسلام ومات على ردته، فإن إيمانه بالله أولا وما عمل من الصالحات جراء ذلك الإيمان يُحبطه الله ﷻ بذلك الارتداد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ مؤكدا تعالى دخولهم النار وخلودهم فيها بقوله ﷻ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(٢/٢١٨) قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

هذه الآية الثامنة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن ما يقوم به المسلمون من أعمال صالحة، وأولها الإيمان بالله ﷻ، والهجرة إلى الله ﷻ حفاظا على دوام ذلك الإيمان، والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ﷻ، كل ذلك دافعه الرجاء في رحمة الله تعالى، وهذه الصفات الثلاث تحققت في المهاجرين ﷺ، وهذا أعظم الرجاء في الله ﷻ أن ينالوا مغفرته ورحمته، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢/٢١٩) قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أول خطوة في الشروع لتحريم الخمر، والخمر عند العرب قبل الإسلام من أعظم المفاخر، يتناولها الناس، وينشدون فيها الأشعار، ولم يترك شربها إلا نفر قليل من العقلاء، وبقي المؤمنون في أول الإسلام يشربون الخمر، فجاءت هذه الآية الكريمة تنبه إلى ما فيها بعد أن توجه بالسؤال عن حكمها جماعة من المؤمنين ﷺ منهم: عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، ونفر من الأنصار ﷺ، فكان من المؤمنين بعد نزول هذه الآية من ترك شرب الخمر لما فيها من الإثم، وشربها آخرون على العادة ولما فيها من المنافع في زعمهم، واستمر الحال على هذا حتى نزل تحريمها في أوقات الصلاة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[1]، فالتزم المؤمنون بذلك، فلما توطّنوا على ذلك جاء تحريمها تحريما عاما في كل الأوقات، وكان شربها بعد ذلك من الكبائر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2]، فاستجاب المؤمنون، وعلموا أنها رجس، وأنها من عمل الشيطان، ليوقع بينهم العداوة والبغضاء، وقد أمرهم الله ﷻ باجتنابها ليفلحوا، ومن لم يجتنبها فليس من المفلحين، وقد حرّمت آية المائدة هذه عملين من أعمال الجاهلية: الخمر والميسر، والميسر هو القمار، وهو محرم بنص هذه الآية، وقد جاء مربوطا بالخمر، لأن القمار غالبا ما يرافقه شرب الخمر، والمقصد من القمار اللهو والربح، وهو من أكل أموال الناس بالباطل، ولا يمارسه إلا السفهاء.

---

١) من الآية (٤٣) من سورة النساء.

٢) الآية (٩٠) من سورة المائدة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فهو طرح لسؤال فيه طلب حكم فيما يلزم من النفقة من الأموال، فإن المؤمنين حريصون على التقرب إلى الله ﷻ بكل ما هو ممكن ومتاح من أعمال الخير، فكأنهم بهذا السؤال يرغبون في معرفة ما هو لازم، فجاء الجواب من الله العزيز الحكيم موجها إلى نبينا محمد ﷺ بأن يقول للسائلين: أنفقوا العفو، والمراد بالعفو على الصحيح: الزائد على قدر الحاجة، يوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾١، أي زادوا وكثروا، وليعلم أن هذا الإطلاق في الإنفاق مقيد بعدم البخل وعدم الإسراف، فقد نهى الله عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾٢، ومن هذا تعرف تعين التوسط في الأمرين، ومن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾٣، نتعلم التفريق بين الجود والإسراف، وبين الإقتصاد والبخل، فالكمال في وضع الشيء في موضعه، فالمانع في موضع العطاء مذموم، مثاله قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾٤، لأن هذا الموضع مما يرضاه الله ﷻ، والمعطي في موضع المنع مذموم، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾٥، ولا يعترض على هذا بأن الإيثار مع الحاجة أفضل، لأن الله ﷻ أثنى على المؤثرين في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾٦، لأن الإيثار قد يكون ممنوعا، مثل لو كان على المؤثر نفقة واجبة، فإن الواجب هنا مقدم على الإيثار،

---

١) من الآية (٩٥) من سورة الأعراف.

٢) من الآية (٢٩) من سورة الإسراء.

٣) الآية (٦٧) من سورة الفرقان.

٤) الآية (٢١٥) من سورة البقرة.

٥) من الآية (٣٦) من سورة الأنفال.

٦) من الآية (٩) من سورة الحشر.

أو: كان المؤثر يقدم ما عنده، ثم لا يصبر عند الحاجة عن سؤال الناس، فلإيثار هنا ممنوع، ويجوز الإيثار إذا ضمن الفرض، وامتلك الصبر عن السؤال، ثم ذكر تعالى في ختام الآية الكريمة أنه كما سبقت الإجابة عن السؤال عن الخمر والميسر، جاءت هنا مبينة لما ينفق من الأموال، والغرض من ذلك كله أن يتفكر المؤمنون في أحكام الله ليعلموا أنها حق أنزله الله ﷻ لإصلاح البشر في الدنيا والآخرة، فالدنيا دار الصلاح، والآخرة دار الفلاح.

(٢٢٠/٢) قال تعالى:

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾.

هذه الآية العشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي في سياق الإجابة عن الذي سئل عنه رسول الله ﷺ، فقد ورد السؤال هنا عن حكم التعامل مع الأيتام من الأقارب وغيرهم، فبين تعالى أن العمل فيما يصلح أمورهم هو خير، وهذا في حالة عدم المخالطة، أما في حالة المخالطة فالأمر أكثر احتياطا، إذ يجب أن يعاملوهم كإخوانهم، وهذا من أعلى درجات الإحسان إلى الأيتام، ولأهمية هذا الأمر بين الله ﷻ أنه يعلم من يُفسد ومن يُصلح لتستشعر في المعاملة الرقابة الإلهية، وهذا محل التحذير، وقد أكد لهم ضرورة إحسان المعاملة بأن يتذكروا الحال فيما لو تركوا أبناءهم أيتاما، وهم يخافون عليهم الحيف والأذى، فكذلك فليحسنوا معاملة من في أيديهم من الأيتام، وهذه توصية بأعلى درجات الرعاية والإحسان، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[١].

---

١) الآية (٩) من سور النساء.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2]، انطلق من كان عنده يتيم فعزَل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيء من طعامه فيُحبَس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[3] وفي هذا بيان رحمة الله ﷻ بأولياء الأيتام، إذ خفف عنهم في الأمر برعايتهم الإيتام، ولوشاء لكلفهم ما يشق عليهم من الحفظ والرعاية، ومن المشقة تحريم مخالطتهم، ولاسيما لو كانوا من الأقربين.

(٢/٢٢١) قال تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

هذه الآية الحادية والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين حكم نكاح المشركات، وأنه محرم على المؤمنين، والآية ظاهرة في العموم للكتابيات وغيرهن، لأن الكتابيات تشملهن التسمية، فأهل الكتاب داخلون في اسم المشركين، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا

١) من الآية (٣٤) من سورة الإسراء.

٢) الآية (١٠) من سورة النساء.

٣) أسباب النزول للواحدي ٤٤/١.

يُشْرِكُونَ ﴾١، فهل المراد عموم اليهود أو: أن بعضهم قال هذا دون البعض الآخر؟، وقد استثنى الله ﷻ من هذا العموم الكتابيات بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾٢، وهل الاستثناء لعموم الكتابيات من أشركن ومن لم يشركن؟، والأحوط في نظري عدم جواز نكاح الكتابيات المشركات، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ففيه بيان لشرف المؤمن وخيريته عند الله ﷻ ولو كان عبدا مملوكا، وحقارة المشرك، ولو كان ذاشأن ومنزلة في الناس، لأن المشركين يدعون إلى النار بأعمالهم المحرمة، والله ﷻ يدعو بما شرع للمؤمنين إلى الجنة والمغفرة بإذنه تعالى، والغرض بيان الحق للناس ليتذكروا ما فيه من الخير والمنافع في الدنيا والآخرة.

(٢/٢٢٢) قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تتابع الأحكام في شأن النساء، ففي الآية السابقة صدر الحكم في تحريم نكاح المشركات، وقد ورد السؤال في هذه الآية عن حكم جماع النساء في حالة الحيض، فقد كان الناس قبل الإسلام لا يقربون الحائض: اليهود منهم والنصارى والمشركون يعتبرون المرأة في حال حيضها نجسة، ويتنجس منها كل شيء، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وأباح للرجل أن يصنع مع امرأته الحائض كل شيء إلا النكاح٣، فقد نهى الله ﷻ عنه حتى يحصل

١) الآيتان (٣٠، ٣١) من سورة التوبة.

٢) من الآية (٥) من سورة المائدة.

٣) قاله رسول الله ﷺ، مسلم حديث (٣٠٢).

الطهر من الحيض، لأنه أذى ففيه ضرر لكنه غير فاحش، قال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾١ ، أي لن يكون منهم ضرر بالغ، وإنما هو ضرر قليل، لا يجاوز كونه أذى، وقد وصف الله ﷻ الحيض بأنه أذى ليكون تعليلا لمنع الجماع فيه، ويحصل الأذى فيما لو وقع الجماع في زمن الحيض فإنه يطال الرجل والمرأة والجنين الذي يتولد من ذلك الجماع، وتفصيله عند الأطباء بيِّن معلوم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ﴾ فيه إباحة إتيان الرجل إمرأته بعد انقطاع الحيض والتطهر، ولكن أين يكون الإتيان؟، هو ما توضحه الأية التالية.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ففيه لفت نظر إلى أن غشيان الرجل امرأته في مدة الحيض ذنب يحب الله التوابين منه، وأن حبس الرجل نفسه عن إمرأته مدة الحيض طهارة، والله يحب المتطهرين.

(٢/٢٢٣) قال تعالى:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح العلاقة بين المؤمنين ونسائهم، فقد شرع الله زواج الرجل بالمرأة لما في ذلك من عمارة الأرض بعبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾٢ ، وقال رسول الله ﷺ: « **تزوجوا الودود الولود اني مكاثر الأنبياء يوم القيامة** »٣ ، وفي بعض الروايات « **مكاثر بكم الأمم** »٤ ومحور التوالد العلاقة المشروعة بين

---

١) من الآية (١١١) من سورة آل عمران.

٢) الآية (٥٦) من سورة الذاريات.

٣) أحمد حديث (١٢٦٣٤) صحيح.

٤) أبو داود حديث (٢٠٥٠) صحيح.

الرجل وامرأته بالجماع ويكون في القبل قال تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ وهذا يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث، يعني بذر الولد بالنطفة، وذلك هو القبل دون الدبر، لأن الدبر ليس محلا لبذر الأولاد، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [1]، فالمراد بما كتب الله لكم: الولد، عند جماهير العلماء، لأن ابتغاء الولد إنما يكون بالجماع في القبل، فالقبل هو المحل للإنجاب؛ إذن هو المأمور بالمباشرة فيه، والمراد بالمباشرة: الجماع الحقيقي، وليس مجرد الملامسة والملاعبة، والمراد بقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ إباحة جميع صفات الجماع في القبل، وفي ذلك سعة في متعة الرجل والمرأة بما أحل الله لهما، وتقوية لعفة الطرفين، وتقوية الصلة بينهما في هذا الأمر.

أما قوله تعالى: ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ من الأعمال الصالحة المبتغى بها وجه الله ﷻ، وقوله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عدم الوقوع فيما يغضبه تعالى، واعلموا علم يقين أنكم ملاقوه تعالى يوم القيامة، وهذا يستلزم الحذر من المعاصي، والتزود من الطاعات، والبشارة بالفوز لا تكون إلا لمن آمن وعمل صالحا.

(٢/٢٢٤) قال تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾.

هذه الآية الرابعة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقرر حكم الأيمان المانعة من البر والتقوى، وتصرح بالنهي عنها، ومن البر الإصلاح بين الناس، وصلة الأرحام، فإن الله ﷻ أنزل في شأن أبي بكر ﷺ لما حلف أن يقطع صلة مسطح وهو من أقاربه لما تكلم بالفحش في عائشة رضي الله عنها، قال تعالى:

---

[1]) من الآية (١٨٧) من سورة البقرة.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، نهي أصحاب الفضل والغنى أن يحلفوا على عدم فعل الخير، فلا يجوز لأحد كائنا من كان أن يحلف بالله ألا يفعل الخير، ولو لمن أساء إليه، لما في ذلك من الاستخفاف بالأيمان؛ ولأن الله ﷻ أمر بفعل الخير، فلا يجعل الحلف به سببا لمنع ما أمر به تعالى، ولو جرى على لسان المسلم شيء من هذا فإنه يكفر عن يمينه ويعمل الخير ولو لمسيء، قال رسول الله ﷺ: « **إني والله، إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها** »[2]، لذلك قال أبو بكر ؓ: "بلى، والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا"[3]، ولا ريب أن الله ﷻ سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم، وما تكن صدورهم.

(٢/٢٢٥) قال تعالى:

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾

هذه الآية الخامسة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح أن من الأيمان ما يكون لغوا، لا يعاقب عليه المسلم، لأنه يجري على اللسان دون قصد، وهذا مفاد الآية الكريمة في عدم المؤاخذة نفي للعقاب وللكفارة، لكنها تكون على عقد الأيمان بالقصد، وبيان هذا في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ

---

١) الآية (٢٢) من سورة النور.

٢) متفق عليه البخاري حديث (٣١٣٣) ومسلم حديث (٤٣٥٢).

٣) البخاري حديث (٤٧٥٠).

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[1]، ففي الآية بيا اللازم على من حنث في يمين قصد عقدها، فإن كفارته أن يختار واحدا من الثلاثة الأول، فإذا عجز عن واحد منها انتقل إلى الصوم.

(٢/٢٢٦) قال تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)﴾.

هذه الآية السادسة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي في سياق بيان أحكام الأيمان، فالذين يحلفون على هجر نسائهم، ألزمهم الله ﷻ بعد انتظار أربعة أشهر، أحد أمرين: إما العود إلى ما امتنع عنه وترك الهجر، وإما الطلاق وحَل عصمة الزوجية، لأن يمين الزوج إحتوت ثلاث مخالفات شرعية: تقدمت في الآية الرابعة والعشرين بعد المائتين، فالمخالفة الأولى ترك البر، وهو مستلزم العشرة الزوجية، وحسنها من البر، والثانية: عدم التقوى في الإضرار بالزوجه لو زاد عن أربعة أشهر، والثالثة: عدم الإصلاح في بادئ الأمر، فلم يأخذ به ولجأ إلى الإيلاء، فإذا مضت الأشهر الأربعة إنحلت يمين الزوج؛ لأن المدة كافية للتفكير في العاقبة، وألزم باختيار أحد الأمرين، وليس للمرأة قول قبل نهاية مدة الإيلاء.

(٢/٢٢٧) قال تعالى:

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

هذه الآية السابعة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحدد الخيار الثاني، إن لم يحصل الفيء، فالعزم على الطلاق هو الأمر الثاني، وللمرأة بعد نهاية مدة الإيلاء المطالبة بأيهما، وإن حصل أحد الخيارين فإن الله ﷻ سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم، وما تكن صدورهم.

---

١) من الآية (٨٩) من سورة البقرة.

(٢/٢٢٨) قال تعالى:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾.

هذه الآية الثامنة والعشرون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي في سياق بيان حكم المطلقات فيما لو كان هو المختار، فالمطلقة يجب عليها أن تنتظر بعد الطلاق ليمر عليها ثلاثة أطهار، وظاهر الآية الكريمة العموم في كل مطلقة، ولكن الأمر ليس كذلك فإن الله ﷻ استثنى من هذا الحكم المرأة الحامل، فالمرأة إذا طلقت وهي حامل، فإنها تنتظر مدة الحمل، قلَّت المدة أو طالت، قال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [١]، وكذلك المرأة إذا طُلقت قبل الدخول بها، فلا عدة عليها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [٢]، كذلك المرأة التي لا تحيض لصغر سنها أو لكبره فإنها تنتظر ثلاثة أشهر، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [٣].

تنبيه:

اختلف العلماء رحمهم الله في المراد بالقُرْء: لأنه يطلق على الحيض، ويطلق على الطهر، وكلا القولين له ما يؤيده من الكتاب ومن السنة الصحيحة، والذين قالوا: هو الطهر دليلهم أقوى، لصراحة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ

---

١) من الآية (٤) من سورة الطلاق.

٢) الآية (٤٩) من سورة الأحزاب.

٣) من الآية (٤) من سورة الظلاق.

﴿ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾[١]، فالعِدة المأمور بها في الآية الأطهار، ويؤيد هذا القول قول الرسول ﷺ في شأن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لما طلق زوجه وهي حائض: « **فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا من حيضتها قبل أن يمسها، فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله** »[٢]، فالآية صريحة في الطهر، والسنة جلية في ذلك، والمراد بالعِدة: زمن التربص، بغير خلاف بين العلماء، ولا زيادة على الأقْراء لمن تعتد بها، فتُطلَّق المرأة بعد طهرها من الحيض، عملا بالأقوى من أدلة الكتاب والسنة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فالمراد به أنه يحرم على المطلقات كتم ما يكون في أرحامهن من الحيض، وقت وقوع الطلاق، فإنه يجب عليها أن تخبر مطلقها أنها حائض، حتى لا يقع منه الطلاق في زمن الحيض، بل في زمن الطهر، وكذلك لا يجوز للمطلقة أن تدعي أنها يائسة لا تحيض، والواقع أنها من ذوات الحيض، ولو كتمت الحيض كانت كاتمة انقضاء الطهر، ولو ادعت حيضا لم يكن أصلا كانت كاتمة عدم انقضاء الطهر، وحرام عليها أن تكتم الحمل إذا ما وقع عليها طلاق، فإن الواجب عليها أن تخبر مطلقها أنها حامل، لتجري عدتها وفق ما شرع الله ﷻ، ولا يمكن أن يقع ذلك من امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، إلا أن تكون جاهلة، وعليها حينئذ السؤال عن الحكم الشرعي لأي حالة تمر بها.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ فهو بيان لحق كل زوج طلق امرأته، والآية الكريمة ظاهرها العموم في كل زوج طلق امرأته، وليس الأمر كذلك فإن من طلق طلاقا بائنا بواحدة قبل الدخول، أو بعده بثلاث فليس له حق الرد، لأن المرأة قبل الدخول طلاقها بائنا، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ

---

١) من الآية (١) من سورة الطلاق.

٢) مسلم حديث (٢٦٧٩).

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[١]، وبعده تبين بثلاث، ويلاحظ ختم الآية بشرط يقيد الرجعة بإرادة الإصلاح، ومن لوازم الإصلاح إحسان العشرة، ولاتجوز الرجعة للإضرار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٢]، لوقوعه فيما حرم الله ﷻ.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المراد أن للزوجات على الأزواج من الحقوق مثل الذي للأزواج على الزوجات من الحقوق، لا من كل وجه بل في بعضها، بالمعروف من الشرع، ومن العرف الذي لا يصادم حقا شرعيا، وهذا عين العدل.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالمراد به إحقاق حق وإبطال باطل، فالحق أن الله ﷻ آثر الرجال عموما على النساء في أمور خاصة اقتضت ذلك، أما الباطل فهو ما عليه الجاهليون في كل زمان ومكان من إذلال المرأة واحتقارها، ومن حق تفضيل الرجل على المرأة أن الله ﷻ نطق بهذا في كتابه العزيز ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[٣]، فالذكورة أفضل من الأنوثة في كل شيء، ولأن الله تعالى كلفهم من الحقوق ما لم يكلف النساء، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[٤]، وجعل في حقهم القوة والخشونة، وحب السلاح والفروسية، وفي النساء الرقة وحب الزينة ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٥]، وهذه حقيقة لا يمار فيها مؤمن ولا مؤمنة، ولا يعارض هذا بوجود بعض المسترجلات من المسلمات والكافرات، فذاك أمر شاذ

---

١) الآية (٤٩) من سورة الأحزاب.

٢) من الآية (٢٣١) من سورة البقرة.

٣) من الآية (١٢٢) من سورة النساء.

٤) من الآية (٣٤) من سورة النساء.

٥) الآية (١٨) من سورة الزخرف.

ونـادر، ولا عبرة بـه، لأن المخبر بالفارق بين الرجال والنسـاء هو العليم الخبير بما خلق سبحانه.

(٢/٢٢٩) قال تعالى:

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾.

هـذه الآيـة التاسـعة والعشـرون بعـد المـائتين مـن سـورة البقـرة، وهـي توضـح كيفيـة الطلاق، وظاهر الآية الكريمة يفهم منه أن الطلاق مرتين فقط، وليس الأمر كذلك بل المراد الطلاق الذي يمكن للزوج أن يراجع امرأته فيه، فإن لـه أن يطلق مرة واحدة في طهر لم يجامع فيه، ولـه حق المراجعة قبل الخروج من العدة، ولـه أن يطلق مرة ثانيـة، ولـه حق المراجعة كما في المرة الأولـى، فإن طلق الثالثـة فلا رجعة لـه لأنـه أبان امرأته بالطلقة الثالثة، وبيان ذلك في الآية التالية.

(٢/٢٣٠) قال تعالى:

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

هذه الآيـة الثلاثون بعد المـائتين من سورة البقرة، وهـي توضـح أن ظـاهر العموم فـي الآيـة السابقة لـيس مقصـودا، لأن الـزوج إذا طلـق امرأتـه مـرتين لـم يبـق لـه بعـد ذلك طلاق يملك فيه حق المراجعة، لأنـه إن طلقها بعدذلك الطلقة الثالثة فلا تحل لـه إلا بعد نكاح زوج آخر، تذوق منه ما ذاقت من الأول، وأن لا يكون مُحلِّلا، وإنما نكـاح رغبـة من الطرفين، ونيـة استدامة، فإن حدث بعد ذلك طـلاق من الثـاني فإنها تحل للأول، بشرط أن يغلب عليهما ظن إقامة الحقوق المشروعة بينهما، من حسن العشرة

بـالمعروف وغيـر ذلـك، وعدم انتهـاك حـدود الله ﷻ فـي ذلـك، وسمّاه تعـالى تراجعـا لزوال المانع من المراجعة بعد الطلقة الثالثة بنكاح صحيح، وطلاق صحيح.

(٢/٢٣١) قال تعالى:

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والثلاثين بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح أمرا هاما بعد الطلاق وقرب تمام العدة، وهو الإمساك والمراجعة قبيل نهاية العدة، لأن المراد ببلوغ الأجل قرب نهاية العدة، والرجعة لا تكون بعد نهاية العدة، قال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾[١]، أي في زمن العدة، وليس بعد انقضائها، فإن لم تحصل المراجعة، فالتسريح بإحسان هو إنفاذ الطلاق.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ﴾ فهو يحرم الرجعة للإضرار والاعتداء، لأن ذلك ليس من الإمساك بالمعروف ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[٢]، لوقوعه فيما حرم الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فيه لفت نظر إلى أن من يمسك للاعتداء والإضرار فهو كالمستهزئ بآيات الله المحرّمة لذلك، ولم يكن ذلك التحريم إلا رحمة من الله بالطرفين فلا يظلم أحد منهما ولا يظلم، وهذا حال جميع الأحكام في القرآن الكريم، فإنها شرعت لرحمة العباد والرأفة بهم، وأن المخالف لها كالمستهزئ بها لعدم تعظيمها، والوقوف عند ما قضت به.

---

١) من الآية (٢٢٨) من سورة البقرة.

٢) من الآية (٢٣١) من سورة البقرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ فالمراد التذكير بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد، ومن أجلها نعمة الإسلام، وبيان الحلال والحرام، ومنها على وجه الخصوص ما أنزل من الآيات البينات فيما يحل وما يحرم، وقد خاطبهم تعالى بذلك مع أن الكتاب منزل على محمد ﷺ لأنهم مخاطبون بأحكامه مكلفون باتّباعها، والمراد بالحكمة السنة النبوية كل ذلك من أجل الموعظة بإحلال الحلال، وتحريم الحرام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ المراد الأمر باستصحاب التقوى في كل الأحوال، واستشعار المعرفة بأن الله عليم بأحوالهم لا يخفى عليه منها شيء سبحانه.

(٢/٢٣٢) قال تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾.

هذه الآية الثانية والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تخاطب أولياء النساء كالأب والأخ وغيرهما، فليس لأحد منهم منع من له الولاية عليها من الرجوع إلى زوجها سواء بعد طلاق رجعي، أو بعد طلاق بائن ونكاح الغير وطلاق منه، وهو المقصود هنا لذلك قال: ﴿أَن يَنكِحۡنَ﴾ عبر بالنكاح لأنه نكاح جديد للمطلق الأول بعد نكاح الغير وطلاقه، وقال ﴿أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ باعتبار ما كان سابقا، وفي ذلك تأليف وتذكير بالعشرة الأولى، وذكر بأن مدار النكاح على التراضي بالمعروف، حتى لا يتجاوز الأولياء هذا الأمر لذلك نبه تعالى بالموعظة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وأن في ذلك زكاة لأعمالهم، وطهارة لقلوبهم، وذلك مقرر في علم الله ﷻ فعليهم التسليم والطاعة فإنهم لا يعلمون.

(٢/٢٣٣) قال تعالى:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾.

هذه الآية الثالثة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح حكم الرضاع، وظاهر الآية توجيه الحكم لعموم الوالدات، وليس الأمر كذلك فإن المقصود الوالدات المطلقات، كما هو واضح في سياق الآيات السابقة، ولأن الخلاف على رضاع المولود لا يقع إلا بعد الطلاق، وقد ذكرت الآية جملة من الأحكام بعد الفرقة بالطلاق، فذكرت الآية الكريمة أن المرأة المطلقة ترضع ولدها لا على سبيل الوجوب حولين كاملين: أربعة وعشرين شهرا، وهذا تمام الرضاعة، وهي أقصى ما يحتاج إليه الطفل من الرضاع، ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى أن الرضاع المحرِّم ما وقع قبل تمام الحولين، وأن ما كان بعد تمام الحولين لا يحرِّم، أما الولدات اللواتي في العصمة فيجب عليهن الرضاع في حالات الضرورة، ويلزم المولود له: الأب أو غيره من الأولياء النفقة والكسوة بالمعروف، من غير تكليف بما فوق الوسع.

أما قوله تعالى: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ ففيه تعليل لعدم التكليف بما فوق الطاقة، فلا يلحق الضرر الوالدة بما فوق الطاقة لولدها، ولا المولود له من أب وغيره من الأولياء، فلا يضارون بما فوق الطاقة من النفقة، بل كل ذلك في حدود المعروف، وليس من المعروف إدخال الضرر على أحد الطرفين بسبب من هو بضعة منه.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ المراد وارث ولي المولود وهو من يصل إليه شيء من مال الولي المتوفى بالفرض أو بالتعصيب فإن عليه النفقة المذكورة، ولا يلحقة ضرر بما فوق الوسع.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ فيه جواز تشاور الوالدان أو غيرهما من الأولياء في فطام الولد قبل تمام الرضاعة مع النظر فيما يصلح شأنه من غير ضرر يلحق به، وما يتم على التشاور والرضا فلا حرج في تنفيذه.

أما قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا زالت الأحكام في أمر الرضاع من الأم المطلقة، فإن الأم في العصمة لا يتصور منها الامتناع عن رضاع ولدها، وقد وردت إباحة الاسترضاع للأبوين أو: غيرهما من الأولياء من غير الأم مشروطة بدفع الأجرة المتفق عليها للمرضعة، ولم يبين سبب هذا الحكم، وقد ورد بيان ذلك وأنه الاختلاف وعدم توافق الطرفين، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ [١]، فقد بين تعالى أن الخلاف في رضاع الولد إذا وقع بين الأبوين أو غيرهما من الأولياء فمصلحة الولد أن يُطلب له مرضعة أخرى، وختمت الآية بالتوجيه إلى تقوى الله ﷻ بأنها خير معين على إحقاق الحق وإبطال الباطل، وعليهم استصحاب التقوى لأن الله بصير بأعمال العباد.

(٢/٢٣٤) قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحدد حكم الزوجات بعد وفاة الأزواج، كما بينت الآيات السابقة حكمهن بعد الطلاق، وليعلم أن هذه لآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى

١) من الآية (٦) من سورة الطلاق.

﴿ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[1]، وهذه الآية تبين أن على المرأة المتوفى عنها زوجها أن تعتد عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا، والمراد بالتربص الانتظار عن طلب الأزواج، وظاهر الآية العموم، ولكن المتوفى عنها الحامل تخرج من هذا العموم بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[2]، فتخرج من عدتها بوضع الحمل، ولو بدقائق بعد الوفاة، وهذا منطوق الكتاب العزيز وهو الصحيح، وفي عدة الوفاة أمر هام وهو التحقق من براءة رحم المرأة من وجود حمل من الزوج المتوفى، وفي ذلك صيانة للأنساب، وفيه إجلال للزوج ومراعاة لحقه فيمن يلحقه نسبه من الولد، وليس من أجل الحزن كما يزعم البعض، وعدة الحامل المتوفى عنها تؤيد هذا بوضوح، فإنها بالوضع تنتهي عدتها ولو بدقائق بعد الوفاة.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ففيه حكمهن بعد تمام الأجل أربعة أشهر وعشرا، وذلك رفع الحرج عنهن فيما فعلن من التزين والعودة إلى الحياة المعتادة بالمعروف، ولهن التعامل بما أباح الله ﷻ في حالة الرغبة في النكاح المؤطر بالشرع الحكيم.

(٢/٢٣٥) قال تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

هذه الآية الخامسة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقرر جملة من أحكام التعامل مع النساء المعتدات من وفاة أو طلاق بائن، وذلك بعد تمام العدة بالأطهار

---

١) من الآية (٢٤٠) من سورة البقرة.

٢) من الآية (٤) من سورة الطلاق.

أو بالأقراء أو بالأشهر أو بوضع الحمل، فلا يجوز قبل التمام التصريح بخطبة المعتدة، وإنما يجوز التعريض، بما يشير إلى الرغبة في الخطبة، كقول الرجل للمعتدة: مثلك يُرغب فيه، أو كقوله: لا تفوتينا بنفسك، أو قوله: إنك إمرأة فاضلة يُرغب في مثلك، ولذلك رفع الله الإثم عمن عرَّض، وسواء أظهر التعريض أو كتم في نفسه الرغبة في الخطبة فذاك شيء معفوعنه، لذلك قال رسول الله ﷺ لفاطمة بنت قيس: « **كوني عند أم شريك ولا تسبقيني بنفسك** »[1]، أما المطلقة طلاقا رجعيا فلا تدخل في هذا لأنه لا يجوز في حقها التعريض فضلا عن التصريح، لأنها زوجه ما لم تخرج من العدة.

أما قوله تعالى: ﴿ **عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾ فالمراد ستذكرونهن في أنفسكم أو بالحديث عنهن، ولا حرج في ذلك، ولكن الممنوع مواعدتهن بالحديث في أمر الزواج أثناء العدة، إلا أن يقال لهن قولا معروفا، كالتعريض بالرغبة كقول: إني أرغب في امرأة صالحة، أو لي رغبة في الزواج من امرأة ذات خلق ودين ونحو هذا من القول، لأنه هو المعروف شرعا، وليس فيه ما ينكر.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ** ﴾ هذا حكم في تحريم عقد النكاح قبل تمام العدة، فيما لو ظهر من تعريض الرجل تعريض من المرأة بالرغبة فيما عرّض به، فلا بد من انتظار بلوغ الأجل، فيحل بعد ذلك إجراء خطوات العقد، وختمت الآية بالترهيب والترغيب في قوله تعالى: ﴿ **وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ وهو ترهيب بأن الله ﷻ يعلم ما تكن صدورهم، ليحذوروا مخالفة أمره ﷻ، وترغيب في طلب المغفرة منه تعالى والتعرض لحلمه وكرمه ﷻ.

---

1) أنظر لفظ مسلم حديث (٣٧٧٣) .

(٢/٢٣٦) قال تعالى:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح حكم المرأة المطلقة قبل الدخول، من غير مس: وهو الجماع حقيقة، فتقرر الفرق بين من طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر، فلا تستحق على الزوج شيئ سوى أن يمتعها بما شاء جبرا لخاطرها، أما المطلقة قبل الدخول وبعد فرض المهر فإن لها نصف المهرا حقا على الزوج، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ وهي الآية التالية من السورة.

أما العدة فساقطة عنهما لعدم الدخول، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [١]، سواء فرض المهر أم لم يفرض، وقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢]، أخذ بعض العلماء بعموم المتاع للمطلقات، وهو الأحوط والأولى، لقوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [٣]، والأحوط وجوبه لقوله تعالى: ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وفي إحقاقه على المحسنين، وعلى المتقين إشعار بالوجوب، ولا أحد من المسلمين يقول: إنه ليس محسنا ولا متقيا، وليس للمتاع حد معين يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فلا يلزم من وجوب المتاع تعيين قدره على الصحيح.

---

١) الآية (٤٩) من سورة الأحزاب.

٢) الآية (٢٣٦) من السورة.

٣) الآية (٢٤١) من السورة.

وفيها بيان عدم الحرج في طلاق النساء قبل الجماع، المكنا عنه بالمس، وكذلك لا حرج في طلاقهن قبل فرض المهر، فلهن ما يتمعن به من أموال الأزواج، حسب القدرة في حال الغنى والفقر، ولا حد لأكثر المتاع ولا أقله، ولكن يجب أن يكون شيئا ذا منفعة وقيمة، ولما كان الطلاق يكسر خاطر المرأة، كان المتاع جبرا لخاطرها، وهو عام لكل مطلقة لم تجامع، سواء سمي لها مهر أو لم يسم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾[1].

(٢/١٣٧) قال تعالى:

﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

هذه الآية السابعة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن المرأة تطلق قبل الدخول، المعبر عنه بالمس وهو الجماع حقيقة، وقد فرض لها مهر، فإنها تستحق نصف ما فرض، ثم بين تعالى بعد بيان ما يلزم الزوج للزوجة، أن ذلك لا يمنع من عفو أحد الطرفين عن الآخر، فلو عفت المرأة عن نصف المهر المستحق لها فذلك أفضل، وكذلك الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج على قول فلو عفا عن نصف ما فرض وهو المستحق له، فذلك هو الأفضل، وهو الأقرب إلى التقوى، لما فيه من اللطف والسماحة، ولذلك رغب تعالى في جانب الفضل المعتبر بين الطرفين، مذكرا تعالى عباده بأنه بصير بما يعملون.

(٢/٢٣٨) قال تعالى:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

---

١) الآية (٤٩) من سورة الأحزاب.

هذه الآية الثامنة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أهمية الصلاة وأنها تعين على التقوى وعلى المعروف، فالمحافظة على الصلاة تعني المداومة عليها، ونوه بالصلاة الوسطى وهي صلاة العصر لوقوعها ببن صلاتين نهاريتين: الفجر والظهر، وليليتين: المغرب والعشاء، ولأنها في وقت راحة الناس من أعمالهم فقد تحصل الغفلة عنها، وقد بشر الله ﷻ المحافظين على الصلاة بأنهم في جنات مكرمون[1]، وذم من لم يحافظ على الصلاة وتوعده بالعذاب، قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[2]، وغي: هو واد في جهنم.

(٢/٢٣٩) قال تعالى:

﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩ ﴾.

هذه الآية التاسعة والثلاثون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن حالة الخوف ليست عذرا في ترك المحافظة على الصلاة في وقتها، وتوضح الآية كيفية أدائها في حالة الخوف، بأن يؤديها الماشي والراكب مقصورة، في حالة اشتداد الخوف، فإن شرط قصرها وجود الخوف، وهو قتال العدو، ودليله قوله تعالى: ﴿ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾[3]، ولا يمنع عموم حصول الخوف من عدو أو سباع أو قطاع طرق، وقد حصل العذر في إسقاط بعض صفات كمال الصلاة كالخشوع والاطمئنان، لغرض مراقبة العدو والاحتراز منه، كما بينت الآية الكريمة عدم جواز ذلك في حالة الأمن، بل تؤدى كما هو معلوم من كمالها، في القيام والركوع والسجود والاطمئنان في ذلك كله، وقد حصل للمؤمنين علم كمالها من الله ﷻ بعد جهل به.

---

١) أنظر الآيات (٢٢ . ٣٥) من سورة المعارج، فقد تضمنت صفات المصلين.

٢) الآية (٥٩) من سورة مريم.

٣) من الآية (١٠١) من سورة النساء.

(٢/٢٤٠) قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠ ﴾.

هذه الآية الأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين حكما كان أثقل في بقاء الزوجة حولا بعد موت زوجها، فنسخ بحكم أخف وهو الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا، لغير الحامل؛ لأن عدة الحامل تنتهي بوضع الحمل، وقد تقدم بيان هذا عند الكلام على الآية الرابعة والثلاثين بعد المائتين.

(٢/٢٤١) قال تعالى:

﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ ﴾.

هذه الآية الحادية والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقضي بالمتاع لعموم المطلقات، لأن معنى الآية وللمطلقات على أزواجهن متاع بالمعروف، واجب على المتقين، يطالَب به الزوج كما يطالَب بالصداق، وبهذا أخذ جمع من العلماء، والعجيب في هذا الزمان غفلة الأزواج عن هذا الحق، فلا الزوج يؤدي المتاع المأمور به شرعا، ولا الزوجة تطالب به عند طلاقها، ولعل هذا أخذا بالقول الآخر إذ قال آخرون: هو لغير المدخول بها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾[1]، والأحوط العموم، وقد تقدم الكلام على هذا عند الآية السادسة والثلاثين بعد المائتين.

---

١) الآية (٤٩) من سورة الأحزاب.

(٢/٢٤٢) قال تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾.

هذة الآية الثانية والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تشير إلى ما تقدم من الأحكام وأنها بيان من الله ﷻ ليعقلها المؤمنون ويعملوا بها.

(٢/٢٤٣) قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تأخذ منحًى آخر في إصدار الأحكام، وبأسلوب فيه تذكير بقصة مَن سبق فيها توطئة لإصدار حكم جديد، فالقصة تذكِّر بقوم خرجوا من ديارهم ليسوا قليلين بل هم ألوف، وسبب خروجهم الخوف من الموت، فأماتهم الله ﷻ ثم أحياهم، وهذا إعلام للمؤمنين بأن لا يخافوا الموت أبدا، لأنه لا يكون إلا بقدر من الله ﷻ، فالآية تشجع المؤمنين على عدم الخوف من الموت، وتؤكد لهم أن الفرار لا ينجي منه، ولو كان ذلك لحصلت النجاة لأولئك الذين خرجوا من ديارهم، وقد أكد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١]، وهذه الآية أعظم آية في تقوية قلوب المؤمنين على مواجهة الأعداء، من غير تفكير في الموت، ولا وجل منه، ولو تدبر الناس هذا الفضل من الله ﷻ لما قل شكر الكثيرين منهم.

(٢/٢٤٤) قال تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾.

---

١) الآية (١٦) من سورة الأحزاب.

هذه الآية الرابعة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقرر حكما جديدا بعد أن مهدت الآية السابقة لقبوله برحابة صدر من المؤمنين، جاء الأمر في هذه الآية الكريمة بالقتال في سبيل الله، والمراد الجهاد في سبيل الله عُبِّر عنه بلازمه وهو القتال، وليس المراد إجبار الناس على الدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1]، بل المراد أن تكون كلمة الله هي العلياء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾[2]، والمراد بكلمة الله كلمة التوحيد: لاإله إلا الله، لأن بها يعلوا شأن الإسلام، وكلمة الذين كفروا: المراد بها الشرك، فالمراد من القتال تحقيق ألوهية الله في الأرض فلا يعبد بحق سواه، حينها يكون الشرك وأهله في ذل وهوان، وبهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما الكلمتين [3]، يؤيد هذا قوله ﷺ: « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى** »[4]، هذا هو الهدف من قتال غير المسلمين ولم يكن القتال من أجل الثروات، ولا من أجل الإجبار على الإسلام، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[5]، فالمراد هيمنة الاعتقاد من خلال: لا إله إلا الله، وقد فرضت الجزية لاستقواء الإسلام على رعاية حقوق غير المسلمين المقررة لهم في النهج الإسلامي، وعلى هذا فآيات الأمر بالقتال في كتاب الله العزيز على أحوال أربع:

---

١) من الآية (٢٥٦) من سورة البقرة.

٢) من الآية (٤٠) من سورة التوبة، والآية (٩) من سورة التحريم.

٣) الدر المنثور ٨١/٥، قال: وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله وجعل كلمة الذين كفروا السفلى قال: هي الشرك، وكلمة الله هي العليا قال: لا إله إلا الله.

٤) البخاري حديث (١٢٣) ومسلم حديث (١٤٩).

٥) الآية (٢٦٥) من سورة البقرة.

الحالة الأولى: العموم كآية البقرة هذه، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وغيرها من الآيات، وهذا العموم في بداية الإسلام لإخضاع الكفار والمنافقين لتكون كلمة الله هي العليا.

الحالة الثانية: بعد ظهور الغلبة لكلمة الله قُيدت آيات العموم بآية الجزية، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[2]، فغاية المقاتلة الإسلام أو دفع الجزية، فمن لم يسلم ودفع الجزية فلا إكراه عليه، ومن لم يسلم ولم يدفع الجزية فإن المقاتلة في حقه قائمة حتى يلتزم بأحد الأمرين، لأن الجزية حكم شرعي مقابلٌ لعدم الإسلام.

الحالة الثالثة: قتال الدفاع، وحماية بيضة الإسلام، فذاك مفروض إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[5].

الحالة الرابعة: قتال مثيري الفتنة ولاسيما في الدين، وكل فتنة تُلحق الضرر العام بالمسلمين إذا لم يتسن دفعها إلا بالقتال فذاك أمر مشروع، سواء كان المثير من غير المسلمين، أو من المسلمين كما حدث في حروب الردة، وكانت فتنة في الدين كادت تُذهب شوكة الإسلام، وقد قاتل علي ﷺ الخوارج لما أحدثوا في الدين فتنة

1) من الآية (٧٣) من سورة التوبة.
2) من الآية (٢٩) من سورة التوبة.
3) من الآية (١٩٤) من سورة البقرة.
4) من الآية (٣٦) من سورة التوبة.
5) الآية (١٩٠) من سورة آل عمران.

عظيمة، استحلوا بها دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وقاتلهم ولاة المسلمين تباعا، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، صحيح أن السياق في الكفار وفتنتهم في الدين عبادة غير الله ﷻ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية عامة في كل من يحدث فتنة في الدين.

(٢/٢٤٥) قال تعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

هذه الآية الخامسة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، ولمَّا تقدم في الآية السابقة الأمر بالقتال في سبيل الله، والقتال من لوازمه العتاد والقوة في السلاح وما يلزم لذلك من ركاب وخيول ومؤنة ناسب أن يُرغَّب المؤمنون في الإنفاق في سبيل الله بالمعنى الشامل، وناسب التعبير بالإقراض مع أن الله غني عن العالمين، ليشير إلى أن المؤمنين هم في حاجة إلى قرض يعود عليهم بالخير المضاعف، وسماه الله قرضا حسنا لأنه ينفق في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله، ولذلك أو ضح قدر المضاعفة الموصوفة بالكثرة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، فالمؤمن حينما يعلم هذا وهو يعلم أن الله غني، يتأكد عنده أن ذلك الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، من أجله هو، وبذلك الأسلوب البليغ الذي تتجلى فيه الحكمة في أجل معانيها يعلم المسلم علم اليقين أنه هو المحتاج إلى الإقراض والمضاعفة، فيقرض وينتظر الجزاء الأوفى، الحسنة بعشرة أمثالها، إلى أضعاف كثيرة؛ لأنه آمن بما جاءه من الحق، فتعامل مع الله بصدق وإخلاص وعدم تردد،

---

١) من الآية (١٩٣) من سورة البقرة.

٢) الآية (٢٦١) من سورة البقرة.

ولذلك بادر الأنصار ﷺ إلى نُصرة الله ورسوله، في عمل منقطع النظير لم يسبقهم إليه أحد، ولن يلحقهم بمثله أحد، ولذلك عمم الله ﷻ الثناء عليهم بأنهم لا يترددون في طرق أبواب الخير مهما كانت كثيرة وشاقة على النفس، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [1]، عجبا للأنصار ﷺ فلا أحد يمتلك هذه الصفات سواهم رضي الله عنهم وأرضاهم، على أن المهاجرين ﷺ ضربوا أروع المثل في التطبيق العملي للإيمان، فتركوا الأرض والأهل والأموال في الهجرة الأولى إلى الحبشة إيمانا بوعد الله ﷻ، وفي الهجرة الثانية إلى المدينة، فقابلهم الأنصار بما أنساهم ما تركوا في مكة من أهل وأملاك ومتاع، ولو تأملت الإنفاق على القتال في سبيل الله ﷻ لوجدته متعدد الجوانب، فقد ينفق المجاهد على نفسه، فيؤمّن لنفسه ما يحتاج للقتال في سبيل الله، وقديكون له فضل فيجهز غيره، وقد يكون المؤمن غير قادر على القتال بنفسه، فيجهز غيره، وقد يكون بكفالة أهل المقاتل في سبيل الله ورعايتهم، ولذلك قال ﷺ: « **من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا** »[2]، وقد يكون التجهيز من فرد لفرد، ومن جماعة لفرد، ومن فرد لجماعة كما فعل عثمان ﷺ في تجهيز جيش العسرة.

(٢/٢٤٦) قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾.

---

١) الآية (٩) من سورة الحشر.

٢) البخاري حديث (٢٨٤٣) ومسلم حديث (١٨٩٥).

هذه الآية السادسة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي في سياق قَصص عن بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وقد تقدم الكلام عليهم عند الآية الأربعين من السورة، وهذه الآية فيها عود على بدء في الحديث عن بني إسرائيل، وتذْكُر حقائق عن أخلاق بني إسرائيل، وفيها تنبية للمؤمنين على شناعة التقاعس عن القتال في سبيل الله، فلا يكون مَثلهم كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف مستسلمين للخروج خائفين من الموت، غير مدافعين عن ديارهم وأبنائهم، ولا يكونوا كبني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم صَمُوئيل عليه السلام، أن يعيّن لهم ملكا عليهم ليقاتلوا، فلما كتب عليهم القتال تولى أكثرهم، مع أنهم عرفوا فائدة القتال، حين ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ وقد نالهم من ذلك ذلة وهوان، ولاسيما ما في ذكر الأبناء من إشارة إلى وقوع السبي فيهم، ولكنهم خافوا الموت فجبنوا، فنكصوا على أعقابيهم مدبرين، وفي الآية إشارة إلى غباء بني إسرائيل، حيث لم يقاتلوا مع نبيهم موسى عليه السلام والنصر لا شك معه لو أطاعوه، ولكنهم جبنوا وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[1]، ومن غبائهم أيضا طلبهم ملكا ليقاتلوا معه، مع أن النصر معه ليس أرجى منه مع موسى عليه السلام، ولم يفعله من سبقهم، وقد أوضحَت الآيةُ أن هؤلاء القوم جاؤا بعد موت موسى عليه السلام وانقضاء مدته.

أما قول نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾ ففيه إشارة إلى أنه يعلم من أخلاقهم الجبن، والإخلال بالوعد، فشك في صدق ما قالوا، وقد أجابوا بما يرونه سببا موجبا للقتال، وهو استباحة بيضتهم وإخراجهم من ديارهم وأبنائهم، وهذا سبب كاف للوفاء بما طلبوا، ولكنهم نقضوا ما أبرموا، وولى أكثرهم وهم ظالمون لأنفسهم، وكان النصر للقلة الذين وفوا بما وعدوا.

---

1) من الآية (٢٤) من سورة المائدة.

(٢/٢٤٧) قال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي نص في إجابة طلب بني إسرائيل ملكا ليقاتلوا، ولم يكن تعيين الملك من نبيهم صموئيل عليه السلام، بل كان من الله تعالى: فبلّغ النبي ما قضى الله ﷻ من بعث طالوت ملكا عليهم ليقودهم إلى قتال عدوهم، فلم يعجبهم ما قضى الله ﷻ في شأن طالوت، قائلين: كيف يكون ملكا علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، تطاولٌ على الله ﷻ، وعنصرية ظاهرة وهي من أخلاق بني إسرئيل إلى يومنا هذا، واهتمامٌ بالمال وليس ذلك من لوازم الملك، فرد عليهم النبي ما زعموا، بأن الأمر لله يصطفي من عباده ما يشاء، وكان المصطفى عليهم طالوت، وهذه أولى ركائز الملك، والثانية أنه بسط له في العلم، والثالثة أنه بسط له في الجسم وفي ذلك القوة والهيبة. وكل ذلك من فضل الله وحكمته يؤتي ذلك من يشاء من عباده، وقد قطع نبي بني إسرائيل تعنت قومه ولجاجتهم في الحجج، بكلام قطعي الدلالة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

فـــائدة:

قال شيخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن بريطانيا تحترم نظام المَلَكية إلى هذا الوقت الحاضر بدافع من هذا المعتقد وأنه لا ملك إلا بتمليك الله إياه وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله.

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه من أن ملوك الدنيا لا يملكون أمر الرعية؛ لأن طالوت ملكا عليهم، وليس مالكا لأموالهم، بينما مُلك الله تعالى مُلك خلق وإيجاد وتصرف كما في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن

يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ ١، وعليم قدير هنا من خصائصه سبحانه وتعالى فيتصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملين سبحانه ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ ٢، وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق فيتلاشى كل مُلك قلّ أو كثر، ويذل كل مَلك كبر أو صغر، ولم يبق إلا ملكه تعالى: ﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ٣.

قلت: الملك المطلق في كل شيء لله وحده لا شريك له في الدنيا، وفي الآخرة، أما ملوك الدنيا فملكهم مقيد في تسيير شؤون الناس في الحياة الدنيا فقط وبالعدل الذي أمر الله به، ومن ذلك أن يحفظوا على الرعية المعتقد الذي شرعه الله، ويؤمنوهم في عبادتهم، وأموالهم وأعراضهم ودمائهم، من أي عدو داخلي أو خارجي، وقد جعل الله مسؤليتهم عن هذا عظيمة بين يدي ﷻ.

(٢٤٨/٢) قال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي سياق الكلام عن بني إسرائيل من بعد موسى ﷺ، ولما كان المَلك ذا أهمية كبيرة في قيادة الناس، كان لابد من علامة تؤكد شخصيته ليتعامل مع الناس بثقة وأمانة، وقد بلَّغ النبي صموئيل ﷺ قومه طالبي بَعْث الملك أن الله ﷻ جعل علامة ملكه وبركته عليهم أن

١) الآيتان (٤٩ . ٥٠) من سورة الشورى.

٢) الآية (٢) من سورة الحديد.

٣) الآية (١٦) من سورة غافر، وانظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٩ /١٧٦.

يأتيهم التابوت فيه سَكِينة من الله ﷻ، وبقية مما ترك آل موسى، وهذه معجزة تحدى الله بها بني إسرائيل طالبي تعيين الملك، فاختار الله لهم رجلا يدعى شاوول، وأيده بالآية المذكورة، وهي تابوت العهد، وقد كان عند الفلسطينيين، وقد هيأ الله ﷻ أسباب إرجاعه إلى بني إسرائيل، وهو صندوق صنعه موسى ﵇ على صفة ذكرها العلماء، وهو من خشب السنط من صنف القَرَظ، وغشاه بالذهب من الداخل والخارج، وجعل فيه الألواح التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [1]، أو: جعل رُضاضها حين ألقاها موسى ﵇، أو: نسخة عنها لأن قوله تعالى: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ إشارة قوية إلى أن الألواح الأصلية عوضت بنسخة عنها، وجعل الله ﷻ في التابوت السكينه: وهي الاطمئنان والهدوء، فاحتواؤه على الألواح وما فيها من الخير والبركة، والهدى والرحمة جعل بني إسرائيل واثقين بحسن المنقلب إذا كان التابوت معهم في حرب أو: سلم، وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أن ما بقي من التركه شيء نفيس ولذلك جرى الاحتفاظ به في التابوت، فما يبعد أن تكون عصا موسى ﵇ مما احتواه التابوت، وأشياء من آثار الأنبياء، وفي ذلك إشارة قوية إلى سبب انتصار بني إسرائيل سابقا مع وجود التابوت فيهم، فكانوا يغلبون عدوهم بإذن الله ثم ببركة ما في التابوت، حتى عصوا وظهرت فيهم الأحداث، وخالف ملوكهم الأنبياء، واتبعوا الشهوات، فلما فعلوا ذلك سلط الله ﷻ عليهم أمماً من الكفرة فغلبوهم وأُخِذ التابوت في بعض الحروب فذل أمرهم، وهان شأنهم، وكان من الغالبين لهم جالوت، وأراد الله أن يعيد لهم الكرة بعودة التابوت من قبضة أعدائهم.

أما قوله تعالى: ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ فالمراد تُسيِّر الملائكة من يحمله، كقوله تعالى حكاية عن نبيا محمد ﷺ: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [2]، ولا شك أن في

١) الآية (١٥٤) من سورة الأعراف.

٢) من الآية (٩١) من سورة التوبة.

بعث الملك ورجوع التابوت من غير قتال، وقد كان عند عدوهم، وما احتوى من تركة آل موس، وآل هارون عليهما السلام أن في ذلك كله آية توجب إيمانهم بالله ﷻ، والخطاب لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام.

(٢/٢٤٩) قال تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

هذه الآية التاسعة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين معرفة أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام وملوكهم الصالحين بعَنَت القوم وكثرة مجادلتهم في الحق، فبعد طلبهم تعيين الملك جادلوا في استحقاقه للملك، ولم يتعظوا من عودة التابوت الذي فيه سر نصرهم، وهنا يحذرهم الملك طالوت بأن الله ﷻ سيختبرهم وهو العليم بذوات صدورهم ولكن لتقوم الحجة عليهم، أخبرهم أنه تعالى مبتليهم بنهر، وهو نهر الأردن، قال ذلك طالوت بعد أن هيأهم للقتال، وابتعد بهم عن أهليهم ومنازلهم، وهذا الخبر من طالوت وهو ليس نبيا يوحى إليه يؤكد أن النبي صموئيل عليه السلام أخبره عن الله ﷻ، ولا يصح أن يكون اجتهادا من طالوت، ويقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾** وإنما كان من الله ﷻ ابتلاء لعلمه تعالى بمكرهم وكثرة فسوقهم، فكان شربهم دليل على خروجهم عن الطاعة، ولذلك شربوا إلا قليل منهم، وهم الذين أطاعوا، وليس هذا اختبارا سهلا بل هو شديد لشدة العطش والحاجة إلى الشرب، إذ لا يمتنع والحال كما ذكرت إلا من قوي إيمانه، وصدق في طاعته، ولذلك لم يثبت على هذا إلا القليل،

واستثنى الغَرفة الواحدة باليد للتدقيق في التمايز في قوة الطاعة، ولا ريب أن من لم يغترف أقوى ممن إغترف غرفة بيده؛لأنه لم يشرب أصلا فهو الأقوى على الإطلاق.

أما قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ فالصحيح في عدة الذين معه ما رواه البخاري رحمه الله، عن البراء ﷺ قال: " كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة" ١، وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ القائلون هم الذين شربوا من النهر، وقد ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم لم يرووا، فلاشك أنهم أولى بهذه المقولة، يؤيد هذا ما بعده قول الله ﷻ عن الذين اكتفوا بغرفة واحدة، والذين لم يشربوا أصلا: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قالةَ حقٍ ويقين، وعزيمة صادقة فقد صدقوا في عدم الشرب، وهم أصدق في الثقة بالله ﷻ، وأقدم على القتال وهو ما تبينه الآية التالية.

(٢/٢٥٠) قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾.

هذه الآية الخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين موقف المؤمن المحارب عند اللقاء، فإن أول ما ينتخي من العتاد دعاء ربه، فالله الآمر والمؤمن المستجيب، وهو الداعي والله المجيب، وكان طلب الصبر بصيغة تدل على الكثرة وهي الإفراغ، فكأنهم قالوا: صب علينا الصبر صبا قويا، وطلبوا ثبات الأقدام فلا يولون الأدبار، وهذا مؤشر قوي على عزيمة قوية تأبى الفرار، ولا ريب أن الله ﷻ لا يخيب مَن هذا قوله وموقفه، فكان النصر وهو ما تبينه الآية التالية.

---

١) البخاري حديث (٣٩٥٨).

(٢/٢٥١) قال تعالى:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾.

هذه الآية الحادية والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن انتصار بني إسرائيل على العمالقة كان انتصارا عظيما، من الله ﷻمَنَّ به عليهم رغم قلتهم، فمنحهم النصر لقاء صدقهم ودعائهم وصبرهم، وكان العمالقة بقيادة جالوت، وكان في جيش طالوت داود قبل النبوة، وكان ماهرا في الرمي بالمقلاع، فقتل جالوت، فزوجه طالوت ابنته، وشاطره نعمته وملكه، وجعل الله ﷻ داود ملكا نبيا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أعطاه الملك بعد طالوت، والحكمة: النبوة، وعلَّمه تعالى مما يشاء مم أختصه به.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهي تبين الحكمة مما سلف أن ذلك لعدم فساد الأرض بأعمال بعض بني آدم، فجعل بتقديره تعالى وتدبيره بعضهم يدفع شر بعض، وفي ذلك حماية لمصالح العباد، فيُرد المفسد عن فساده، ويُعان المصلح على إصلاحه، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [١].

(٢/٢٥٢) قال تعالى:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

---

١) الآية (٤٠) من سورة الحج .

هذه الآية الثانية والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وقد تضمنت الإشارة إلى ما سبق ذكره عن بني إسرائيل أنه آيات لقوة وضوحه ودلائله على قدرة الله ﷻ، فكأن السامع به يشاهده بأم عينه ويرى أحداثه، فلا يخالجه ريب في صحتها، والآية تشير إلى إنكار الكفار نبوة محمد ﷺ، ولذلك أكد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بإنَّ واللام، وجاء هذا التوكيد مرة أخرى قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، وفيه تنويه بشأن رسول الله ﷺ، وتثبيت لجنانه فإنه على الحق، وفي هذا تبكيت للمنكرين، وأنه ليس بدعاً بل من المرسلين، أُرسل كما أرسل مَن قبله من الرسل، وهم كلهم على منهج حق ودين قويم، وشرع مستقيم، وقد وردت الإشارة إلى إنكار الكفار رسالته ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]، تأكيدا لكنهم على الضلال، ورسول الله ﷺ على الهدى، كغيره من الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

(٢/٢٥٣) قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾.

هذه الآية الثالثة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وتقدم عند الكلام على الآية الثامنة والثلاثين من السورة بيان أن أول الرسل على الفطرة آدم ﵇، وأن أولهم بعد الاختلاف وحدوث الشرك نوح ﵇، أما التفضيل المذكور في الآية فمن ذلك أن الله ﷻ فضل نبينا محمدا ﷺ بأنه صاحب المقام المحمود، قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ

١) الآية (٣) من سورة يس.

٢) من الآية (٤٣) من سورة الرعد.

٣) الآيتان (٣، ٤) من سورة يس.

﴿رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1]، وتفصيل ذلك في حديث الشفاعة[2]، وأنه ﷺ أُرسل إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3]، وأنه ﷺ خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[4]، والآيات في هذا الصدد كثيرة في كتاب الله العزيز، وفضل الله ﷻ إبراهيم عليه السلام فاتخذه خليلا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[5]، وجعله للناس قدوة، قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[6]، وقد خص كل رسول بفضلٍ تكريما لكل واحد منهم عليهم الصلاة والسلام، وجمعهم في صفة النبوة، وأضاف لآخرين صفة الرسالة، ومنهم أُلوا العزم، وهم أربعة: نوح، وهود، وإبراهيم، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ورفع بعضهم إلى السماء ودلائل ذلك من الكتاب والسنة كثيرة.

أما قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فقد بين تعالى أن منهم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[7]، وخاطبه تعالى بقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[8]، وقد أخذ بعض العلماء من حديث الإسراء[9] دليلا على أن الله تعالى كلم نبينا محمدا ﷺ، في مراجعته للتخفيف من فرض الصلاة، وفي رواية مسلم

---

١) من الآية (٧٩) من سورة الإسراء.
٢) من الآية (٤٠) من سورة الأحزاب.
٣) من الآية (٢٨) من سورة سبأ.
٤) من الآية (٤٠) من سورة الأحزاب.
٥) من الآية (١٢٥) من سورة النساء.
٦) من الآية (١٢٤) من سورة البقرة.
٧) من الآية (١٦٤) من سورة النساء.
٨) من الآية (١٤٤) من سورة الأعراف.
٩) الخاري حديث (٣٨٨٧) ومسلم حديث (٤٢٩).

ما يدل على الواسطة، والله أعلم، وكل ذلك من وراء حجاب، قال ﷺ: « **ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب** » ١.

أما قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ فهو نوع من التفضيل، فالبينات هنا مجملة، وهي المعجزات يوضحها قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٢، قواه تعالى بجبريل عليه السلام وهو روح القدس، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ ٣، يعني القرآن وكذلك الكتب السماوية نزل بها جبريل عليه السلام، فهو روح القدس على الأصح، وهو المرسل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ ٤، وقد يكون المراد بالقدس الرب تقدست أوسماؤه وصفاته، فالإضافة هنا إضافة تشريف وتكريم لجبريل عليه السلام، أو المراد به الطهر والنزاهة، والأول عندي أولى والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ففيه بيان أن ما وقع بعد الرسل بين الأمم من الاقتتال لم يكن خارجا عن مشيئة الله ﷻ وقد جاءتهم البينات، مبينا أن سبب ذلك الاقتتال هو اختلافهم على الرسل، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وتنوعت العقائد الباطلة، فاتسعت هوة الخلاف، إن كان يجمعهم مسمى الكفر، وهذا سبب كبير لوقوع الاقتتال بين الفرق، وتلك سنة الله وقدره، وهو قادر على زوال سبب الاقتتال، فيكونوا أمة واحدة على نهج الرسل، ولكن هكذا أراد الله ﷻ وهو فعال لما يريد.

---

١) صحيح ابن حبان حديث (٧٠٢٢).

٢) من الآية (٤٩) من سورة آل عمران.

٣) الآية (١٩٣) من سورة الشعراء.

٤) الآية (١٧) من سورة مريم.

(٢/٢٥٤) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحث على الإنفاق من الرزوق قلَّ أو كثر في سبيل الله ﷻ، مبينة أن الإنفاق لا يكون إلا في الحياة الدنيا، لأنها وقت للأعمال، ولكنها تنتهي بنهايته، أما اليوم الآخر فهو يوم لا يمكن لأحد أن يشتري نفسه فيه ولو جعل ثمن ذلك ما في الأرض، فلا تباع الأنفس لأصحابها، لأن اليوم الآخر وقت يتعذر فيه استدراك ما فات، وليس فيه صداقة تفيد، فذلك قد يكون في الدنيا أما اليوم الآخر فلا، ولا يمكن لأحد أن يجد شفيعا في اليوم الآخر، وإن قدر عليه في شئون الدنيا، إلا ما ثبت لنبينا محمد ﷺ، ولا تكون الشفاعة لنبينا محمد ﷺ إلا بإذن من الله كما هو مبين في الآية التالية، فيأذن الله ﷻ لمن شاء من عباده تكريما للشافع، كما تقرر ذلك لنبينا محمد ﷺ في حديث الشفاعة[١]، وعفوا عن المشفوع له ورحمة به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وبينت الآية الكريمة أن الكافرين هم الظالمون لأنفسهم بعدم الإيمان بالله ورسوله، فعصوا الله ﷻ والمعصية ظلم، فكل من يعصي الله تعالى فهو ظالم، والآية ظاهرة في الأمر بعموم الإنفاق، فهو يشمل جميع أعمال البر والإحسان، وقد ورد معنى هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾[٢]، وفي هذا توكيد على المبادرة بالطاعات والأعمال الصالحة، في الحياة الدنيا، فإنها سبيل الفوز في اليوم الآخر، وهو يوم القيامة.

---

١) البخاري حديث (٣٣٤٠) ومسلم حديث (٥٠٠).

٢) الآية (٣١) من سورة إبراهيم.

(٢/٢٥٥) قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

هذه الآية الخامسة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي آية عظيمة، أخبر الله تعالى جميع البشر بصفات عظيمة لا تكون إلا له ﷻ، فإن الألوهية لا تكون لأحد سواه، واالحياة المطلقة لا تكون إلا له، والمراد وصف الله ﷻ بأنه لا يموت، والقيوم معناه المضطلع برعاية وحفظ وتدبير شؤون جميع المخلوقات، ولا يكون ذلك إلا لله ﷻ، وهو دليل قاطع على أن تلك الصفات ليست لأحد سواه، وقد وصف نفسه تعالى بالحياة قال تعالى:﴿ **هُوَ ٱلۡحَيُّ** ﴾ ١، وبعدم الموت قال تعالى:﴿ **وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ** ﴾ ٢، قال ابن عطية رحمه الله عن آية الكري: هذه سيدة آي القرآن، ورد ذلك في الحديث وورد أنها تعدل ثلث القرآن، وورد أن من قرأها أول ليله لم يقربه شيطان، وكذلك من قرأها أول نهاره٣، وقد سأل رسول الله ﷺ أُبي بن كعب ﷺ قال: « **يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم** » قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: « **يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟** » قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحى القيوم، قال: فضرب فى صدرى وقال: « **والله ليهنك العلم أبا المنذر** » ٤، زاد أبونعيم « **والذي نفس محمد بيده إن لهذه الآية للسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش** » ٥، وهي مصدَّرة بالاسم الأعظم، للدلالة القاطعة على أنه لا خالق للخلق سوى الله ﷻ، ولا معبود بحق إلا إياه، وأنه تعالى

---

١) الآية (٦٥) من سورة غافر.

٢) الآية (٥٨) من سورة الفرقان.

٣) المحرر الوجيز ٣٠٦/١.

٤) مسلم حديث (١٩٢١).

٥) المستخرج على الصحيحين حديث (١٨٣٦).

منزه عن النقائص، ومن ذلك النعاس السابق للنوم، فهو سبحانه قيوم لا يعوقه عن تدبير الخلق شيء، له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته، فالسماوات والأرض ومن فيهن ملكه وحده لا شريك له، فهو الحقيق بتدبير شؤنها، وأنه ﷻ لا يتقدم بين يديه بالشفاعة أحد كائنا من كان، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بإذنه سبحانه، فيشفع عنده بإذنه تعالى من أراد ﷻ أن يظهر كرامته كنبينا محمد ﷺ، يشفع فيمن أراد الله ﷻ العفو عنه، فهو تعالى العالم بمن يُشفَّع فيه من العباد ومن لا يُشفَّع فيه، لأنه تعالى عليم بما بين أيديهم وما خلفهم، علم إحاطة وشمول، والخلق لا يحيطون بشيء من علمه ﷻ إلا بما شاء، ومن ذلك أمر الشفاعة، وهذا مبطل لعقائد المشركينبغير الله ﷻ، كزعم مشركي العرب أنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله، وقد حكى الله تعالى قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، وزعموا أنها تشفع لهم، وقد حكى الله تعالى قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2]، وهذه المزاعم أنكرها الله عليهم، وأبطلها بهذه الآية العظيمة وبغيرها من الآيات.

أما قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ فإنك تعلم منه عظمة ما خلق الله ﷻ الدالة على عظمة ﷻ، فله ملك السماوات والأرض، وما أعظمه من مُلك، ولا ريب أن من ملك شئا ملك ما فيه، وما في السماوات والأرض من المخلوقات ملك الله ﷻ، وما بينهما ملك الله ﷻ، إذاً فملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن ملك لله الواحد القهار، ولذلك ينادى على رؤوس الأشهاد يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[3]، فما أعظم ملك الله سبحانه، ثم يأتي هذا الجزء من الآية ليؤكد لنا أن ملكا لله أعظم من هذا، وهو الكرسي، وتفيد الآية إفادة قطعية أن الكرسي يسع السماوات الأرض، بل هو أكبر منهما بكثير، قال ﷺ: « **مثل السماوات والأرض في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة،**

١) من الآية (٣) من سورة الزمر.
٢) من الآية (١٨) من سورة يونس.
٣) من الآية (١٦) من سورة غافر.

وإن فضل الكرسي على السماوات والأرض، كفضل الفلاة على تلك الحلقة »[١]، فسبحان من له كمال العظمة وهو العلي العظيم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٢]، فكيف فهمك لعظمة الله وأنت تعلم أن الكرسي موضع قدي الرحمن تقدس عن الشبيه والمثل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره"[٣] ومن فهمك لعظمة الكرسي، وعلمك بأن عظمة العرش لا تُقدَّر، تعلم أن الخالق المستوي على العرش سبحانه، لا يصف عظمته واصف، ولا يحيط بكمالها عالم، وتعلم أن حفظ هذه المخلوقات ذات العظمة لا يُثقل العلي العظيم المتنزه عن مشابهة الخلق، المتفرد بصفات الكمال والجلال والعظمة، نسأله عفوه ورحمته يوم الوقوف بين يديه، لا تخفى عليه من الخلق خافيه، وهو العليم بهم، وهو أرحم الراحمين.

(٢/٢٥٦) قال تعالى:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

هذه الآية السادسة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقرر عدم الإكراه على الإسلام، بعد ظهور الغلبة للدين، وهيمنة كلمة الله في الأرض، وقد قدمنا بيان لفهم الآيات الآمرة بالقتال في كتاب الله العزيز عند الكلام على الآية الرابعة والأربعين بعد المائتين من السورة، ونقول هنا: لا يعارض هذا مايستدل به بعض المغرضين، يقولون: إن حرية اختيار الدين مفقودة في الإسلام، فلو أن مسلما لم يرق له الإسلام ورأى غيره أفضل له فاعتنقه، فإنه يسمى عند المسلمين مرتدا، والمرتد عن الإسلام يقتل، فنقول: هذا زعم باطل، ولا يقوله إلا مستخف بالإسلام، فإن جعل الموت عقوبة من دخل في الإسلام ثم ارتد عنه، تستدعي النظر والاعتناء بفهم

---

١) إتحاف الخيرة المهرة حديث (٢/٣٣٧).

٢) من الآية (١١) من سورة الشورى.

٣) العرش للذهبي ١/٣٢٧ . ٣٢٨.

المقاصد الإسلامية، حتى يكون الداخل فيه على بصيرة بعمومات الأحكام الإسلامية، فلا يدخل إلا عن قناعة تامة، ومن تعجل فلا يلومن إلا نفسه، لأن الله ﷻ قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ ولأن من اعتنى بدراسة الإسلام وفهم تميزه عن غيره من المعتقدات ولاسيما في هذا العصر لا بد أن يخرج بأحد أمرين:

الأول: أن يتبين له الضلال فيما يعتقد، فينشرح صدره للإسلام، وحينئذ يكفر بما كان عليه من الطاغوت: وهو عبادة غير الله ﷻ، ويؤمن بالله معبودا لا شريك له، وهنا يكون قد تمسك بالإسلام، كمن يلتزم حلقة قوية لينجو بها من الهلاك، ومهما قوي تعلقه بها فإنها مأمونة الإنقطاع، فلا تنقطع إطلاقا، وجعل الهلاك في ضده وهو الكفر والإيمان بالطاغوت، ومن كان هذا حاله في معرفة الإسلام والدخول فيه، فإن الارتداد بعيد عنه لقوة قناعته وإيمانه بصحة ما أقدم عليه، وعلى فرض أنه ارتد بعد ذلك فإنه حينئذ تلاعب بالتشريع، واستهزأ بالمشرع الحكيم فاستحق لقاء ذلك عقوبة الموت؛ لأنه أظهر الاستهزاء بالشرع، ولم يكن ذلك إكراها على البقاء في الإسلام، ولذلك لم يقتل من أظهر الإيمان وأبطن الكفر بالنفاق، ومن دخل في الإسلام تجربة من غير قناعة فقد أوبق نفسه إذا ارتد، فالتجارب لا تجوز فيما شرع الإسلام، وكذلك الأديان السماية في عهدها الصحيح، قبل النسخ الارتداد عنها خروج من الهدى على الضلال، فلما نسخت بالإسلام، بقي عدم الإكراه عليه قائما.

ختمت الآية بما يشير إلى الوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة، ولذلك شرع عدم الإكراه على الدين؛ لأن الإكراه على الدين لا يحصل معه المطلوب وهو التزام الحق وتزكية النفس، والنصرة الخالصة، بل قد يكون ضرره بالغا على المسلمين كشأن المنافقين، لأن من عمي عن الحق وكرهه لا يفيد إكراهه على قبول شيء عميت بصيرته عنه فكرهه.

الثاني: من لم يتبين له فضل الإسلام وعدالته، وعميت بصيرته في ذلك فبقي على ضلاله، فإنه لا يكره على الإسلام ولو كان ضلاله بينا للمسلمين، فإن كانت كلمة

المسلمين هي العليا ولهم الغلبة، فالجزية مضروبة على غير المسلمين، وإن كان حالهم كما نعلم اليوم الضعف، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢/٢٥٧) قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

هذه الآية السابعة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح للناس الوَلاية الموجَبة، والوَلاية السالبة، فالموجبة وَلايته تعالى للمؤمنين، ولأهمية الوَلاية الموجبة في الحياتين العاجلة والآجلة للمؤمنين، وردت مكررة في الكتاب العزيز، تارة تبين أن الله ﷻ وليُّ المؤمنين، وثمرتها هنا إخراجهم من الضلال المعبر عنه بالظلمات، والجمع فيه إشارة إلى كثرة طرق الضلال، فيخرجهم منها إلى الهدى المعبر عنه بالنور، والإفراد فيه إشارة إلى أن طريق الحق واحدة لا تتعدد، يؤيد هذا قوله تعالى: **﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾**[١]، أفرد السراط وهو الإسلام، ووصفه بالاستقامة، وأمر باتّباعه، وجمع السبل وهي طرق الضلال، ونهى عن اتّباعها، وبين تعالى ثمرة أخرى لوَلايته للمؤمنين وهي إذهاب الخوف والحزن عنهم، قال تعالى: **﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٢]، أما وَلايتهم له فهي بإيمانهم به تعالى، واتّقائه سبحانه، قال تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾**[٣]؛ لأنهم كفروا بالطاغوت، وآمنوا بالله وهذه وَلايتهم له تعالى، وقد بين تعالى أهمية الوَلاية الموجبة بينه وبين المؤمنين، وبينهم وبين الرسول ﷺ، وبين المؤمنين أنفسهم بقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾**[٤]، وكررها تعالى

١) من الآية (١٥٣) من سورة الأنعام.

٢) الآية (٦٢) من سورة يونس.

٣) الآية (٦٣) من سورة يونس.

٤) من الآية (٥٥) من سورة المائدة.

للتوكيد فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، وللتوكيد أيضا على متانة الولاية الموجبة بين تعالى أن رسوله نبينا محمدا ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[2]، وقد نفى الله الوَلاية الموجبة عن الكافرين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[3]، والمراد لا مولى لهم وَلاية موجبة، أما السالبة فقد أثبتها لهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ وأثبت وَلاية بعضهم بعضا ولاية سالبة لا خير فيها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[4]، وقد بين تعالى ثمرة الولاية السالبة، أنها الخروج من الهدى إلى الضلال، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ولاية لا يأخذ بها إلا أصحاب النار الموعودون بالخلود فيها.

(٢/٢٥٨) قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾.

هذه الآية الثامنة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين حال من تولى الطاغوت ولم يؤمن بالله أنه مرتاب، فيخاصم المؤمنين في إيمانهم بالله ﷻ، فالنمروذ[5]، يخاصم إبراهيم عليه السلام في ربه، ويجوز هنا أن يعود الضمير إلى إبراهيم عليه السلام، أو إلى النمروذ الذي حاج إبراهيم عليه السلام؛ لأن الله ربه وإن أنكر وجوده، فالنمروذ كان ملكا ببابل آتاه الله الملك، ولكنه شك في ربوبية الله للخلق، فكان مثلا لمن

---

١) من الآية (٧١) من سورة التوبة.

٢) من الآية (٦) من سورة الأحزاب.

٣) من الآية (١١) من سورة محمد.

٤) من الآية (٧٣) من سورة الأنفال.

٥) يذكر بالذال المعجمة، وبالدال المهملة.

عميت بصائرهم عن الحق، وهذا دأب الشاكين يكثرون المحاجة بالباطل، فالنمروذ آتاه الله الملك فلم يشكر ذلك، وصار جبارا حتى أنكر وحدانية الله، وربوبيته للمخلوقات، وكان إبراهيم عليه السلام مثلا للمؤمنين الذين انجلت لهم الحقيقة فآمنوا بالله ﷻ، وصدقت حجتهم في ذلك، وقامت المناظرة بين الفريقين: أهل الإيمان يمثلهم إبراهيم عليه السلام، وأهل الكفر يمثلهم النمروذ، فذكر إبراهيم عليه السلام الحقيقة في الإحياء والإماتة إثبتا للبعث، فعارضها النمروذ بالباطل إنكارا للبعث، وزعم أنه يحيي ويميت، وأقام على زعمه إستدلالا باطلا، إذ أتى برجلين حكم عليهما بالموت، فعفى عن أحدهما وزعم أنه أحياه، وقتل الآخر وزعم أنه أماته، ولم يكن هذا قصد إبراهيم عليه السلام، وإنما أراد القدرة على البعث بعد الموت، وأراد بيان عجز النمروذ وانقطاع حجته فلجأ إلى آية كونية هي الشمس خلقها الله وجعلها تأتي من المشرق إلى المغرب ولا عكس، فطلب من النمروذ إن كان صادقا في زعمه فليعكس الأمر، ويأتي بالشمس من المغرب إلى المشرق، فانقطعت حجة النمروذ، لأنه كافر بنى قوله على باطل، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ والكفر من أكبر الظلم والله لا يهدي القوم الظالمين.

فالآية تثبت وحدانية الألوهية لله ﷻ، وهو المتفرد بالخلق والإماتة والإحياء، وتبطل ذلك عمن سواه.

(٢/٢٥٩) قال تعالى:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

هذه الآية التاسعة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي في سياق الرد على الشاكين في قدرة الله ﷻ على البعث، واختلف العلماء في اسم هذا القائل فقيل عزيز

عليه السلام وقيل غيره، وقيل: نبي من أنبياء بني إسرائيل: حزقيال أو: غيره، وإن كان عزيرا فهو النبي أو: غيره من الأنبياء فقد أدهشه ما رأى من خواء القرية وخلوها من أهلها، فتساءل كيف يحيي الله تلك القرية بعد موت أهلها، فالسؤال سؤال استعلام وليس المراد منه الشك في قدرة الله عز وجل، لأن الأنبياء لا يشكون في قدرة الله عز وجل على البعث، وإنما هو في نظري رجل من بني إسرائيل شك في القدرة على الإحياء، وليس هذا غريبا على بني سرائيل فجدلهم بالباطل مع الله كثير معروف، فضرب الله لذلك الرجل الشاك مثلا من نفسه على قدرة الله عز وجل على الإحياء، فأماته ثم أحياه وسأله قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ سؤال ليعلم جهل نفسه، فأجاب إجابة خاطئة تدل على جهله ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فبين الله عز وجل له خطأه ليؤكد له أنه كما أخطأ في تقدير مدة موته هو أيضا مخطئٌ في شكه في قدرة الله على الإحياء فقال تعالى: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ليعود بذاكرته أنه مرَّ عليه من التحلل والبلى مثل ما رأى من حال تلك القرية، وقد اختلف العلماء في القرية فقيل: هي القدس، وقيل المؤتفكة، وقيل غير ذلك، وأراد الله عز وجل أن يُري ذلك الرجل شيئا آخر من قدرته تعالى على حفظ ما يريد حفظه من التلف والدمار، فقال له: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لأنه تعالى حين قضى عليه الموت كان عنده طعامه وشرابه، فلما أماته الله عز وجل، بقي الطعام والشراب محفوظا بأمر الله عز وجل مدة موت الرجل، فكان ما بين موته وبعثه مأئة عام، لم يتأثر فيها الطعام والشراب، المعبر عنه بقوله عز وجل: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بما مر عليه من السنين، ثم لفت نظره على آية أخرى في الإماتة وهي ذلك الحمار الذي كان يملكه أماته الله كذلك، ليرى الرجل ما حل بحماره من البلى، فقال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ ثم أخبره تعالى فقال: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ لأن شكه في القدرة على إحياء القرية بعد موتها هو الذي أورده هذا المورد، ولا ريب أن فيما جرى له آية للناس، وهنا يطلب الله عز وجل من ذلك الرجل أن ينظر إلى آية أخرى يراها في إحياء رميم حماره، ليعلم كيفية إحيائه هو، قال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فنظر الرجل إلى

تلك المراحل في خلق رميم الحمار حتى عاد كما تركه سابقا كأنما لم تمر عليه مائة من السنين وهو رميم، وهنا أذعن الرجل وزال شكه تماما لمّا تبين له من تلك الآيات القدرة على الإحياء فقال: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ وهذا ينفي أن يكون نبيا بل كان رجلا عاديا مر على القرية، لأن الأنبياء يعلمون قدرة الله على كل شيء، ولا يعتريهم شك في ذلك، ولو كان نبيا لعاتبه الله على ذلك لعلمه بالقدرة مسبقا كما عاتب إبراهيم عليه السلام، وهذا الرجل لم يعلم إلا بعد هذا السرد من الآيات البينات، والله أعلم.

(٢/٢٦٠) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

هذه الآية الستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي مثال عكسي لما تقدم يظهر فيه أدب النبوة مع الله عز وجل، فإبراهيم عليه السلام خليل الله عز وجل لديه من البراهين على قدرة الله عز وجل على الإحياء ما وقر به الإيمان في قلبه، ولكنه أحب أن يريه الله عز وجل كيفية الإحياء، فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ولم يقل: أنَّى، لاحتمالها معنى متى، ومع هذا لفت نظره الله عز وجل إلى أن هذا نوع من الشك فقال: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ فقال إبراهيم عليه السلام ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ حب اطلاع وزيادة في الطمأنينة، وهو من باب قول الله تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾[١]، ولا شك في حصول الإيمان بالبرهان النظري، لكنه يقوى بإضافة البرهان العملي، وهذا ما قصده إبراهيم عليه السلام، ولذلك لم يطل الله عز وجل الحوار معه بل قال تعالى: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ إجابة فورية بالبرهان العملي، ففعل إبراهيم عليه السلام ما أمربه، أخذ أربعة من الطير، ولا يهمنا ذِكر أنواعها، فأوثقهن وذبحهن، وقطعهن

---

١) من الآية (٣١) من سورة الدثر.

أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءا، ثم دعاهن فتجمعت الأجزاء بعضها إلى بعض وأتين إبراهيم عليه السلام سعيا: سيرا ليكون أبلغ في رؤية إبراهيم لما طلب، فاستقر البرهان العملي، وذكَّر إبراهيمَ ربُّهُ تعالى بقوله: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مع علم إبراهيم بذلك، ولم يقل تعالى: واعلم أن الله على كل شيء قدير لعلمه تعالى بأن إبراهيم يعلم ذلك يقينا، وإنما أراد الاطئنان، والله أعلم.

(٢/٢٦١) قال تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

هذه الآية الحادية والستون بعد المائتين من سورة البقرة، تقدم بيان فضل الإنفاق في سبيل الله عند الآية الخامسة والأربعين بعد المائتين من السورة، واستشهدنا بهذه الآية هناك، ونقول هنا: ضرب الله ﷻ مثلا للمعقول بالمحسوس، وقد شبه المنفقين في سبيل الله بزارع ألقى بذره في أرض طيبة، فأنبتت الحبة الواحد سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، وقد قال بعض العلماء: إن هذه المضاعفة خاصة بالجهاد في سبيل الله، وفي غيره الحسنة بعشر، بدليل قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]، والصواب في نظري العموم بدليل قوله ﷺ: « **إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك؛ فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة** »[2]، فزاد على ما في ظاهر الآية أضعافا كثيرة، بل في الآية ما يفيد المضاعفة على السبعمائة ضعف، وهو قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي مضاعفة المثل؛ يؤيد هذا أيضا إطلاق المضاعفة في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ

---

١) من الآية (١٦٠) من سورة الأنعام.

٢) البخاري حديث (٦٤٩١).

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١]، فالوصف بالكثرة يؤيد العموم في مضاعفة الثواب على النفقة العامة في سبيل الله ﷻ، وهو الأرجأ للمؤمنين عنده تعالى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(٢/٢٦٢) قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾.

هذه الآية الثانية والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين شرطا للمضاعفة وهو عدم إتْباعهم ما ينفقون مناً ولا أذى، ومفهوم هذا أن من أتبع النفقة مناً أو أذى، فلا يحصل له مضاعفة الثواب المقتضي الوعد بالأجر ، ولا يحصل لهم الأمن من الخوف، والسلامة من الحزن، لأن ذلك للذين أنفقوا ووفوا بعدم المن والأذى، وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في الأية بعد التالية.

(١/٢٦٣) قال تعالى:

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح المفاضلة بين الكلمة الطيبة، والنفقة المؤذية، بل لاخير في الصدقة المؤذية، لخلوها من الإخلاص والرغبة المجردة فيما عند الله ﷻ.

(٢/٢٦٤) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

---

١) الآية (٢٤٥) من السورة.

هذه الآية الرابعة والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين أن المن والأذى يبطل الصدقة، فتكون هباء منثورا لا يؤجر صاحبها، فالمنان كالمنافق الذي ينفق رياء، لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر، يوم الحصاد والغنائم، فإن حاله في ذلك اليوم كحال زارع بذر على صخر عليه تراب، فأصابه مطر شديد، فمحق ما عليه من زرع وتراب، فظهر الصخر أملس لا يستفاد منه في شيء، فانقطع أمل الزارع فيما زرع، وكلا الرجلين: المنفق رياءًا، والزارع لا يقدرون على استرداد شيء مما كسبوا، وقد وقع تشبيه المعقول بالمحسوس في هذه الآية، وقد حرَم الله ﷻ الكافرين من الهداية جراء كفرهم، فذهبت أعمالهم التي ظاهرها الخير سُدا، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾١، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾٢.

والعجيب أن أناسا يقدمون خدمات للآخرين هي في ظاهر الأمر تسهيل منافع لهم في الحياة، كالسعي في إيجاد وظيفة، أو إنجاز معاملة، أو إصلاح ذات البين، وهذا أمر مشروع ولكن من يقدمون هذه الخدمات على حالين:

الأول: أن يقصد بتلك الخدمة وجه الله، وابتغاء الأجر، وينسى أو يتناسى ما قدم، حتى لا يقع في المن والأذى للمخدوم، لينتفع بما قدم لأخيه المسلم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، فهذا دون شك هو الرابح في الدنياء؛ يربح الذكر الحسن، والثناء الجميل، وفي الآخرة الأجر والجزاء الحسن؛ لإحلاصه في ذلك لله ﷻ، وللأسف قليل من الناس من يكون هذا حاله.

والثاني: من يفعل ذلك ويزعم أنه يفعل ذلك ابتغاء وجه الله ﷻ؛ ولكنه يبطل عمله بكثرة ذكر خدماته للآخرين كلما ورد ذكر ذلك المخدوم، فيقول مثلا: فلان هذا أنا سعيت في حصوله على وظيفة، أو: سهلت له المعاملة في كذا، أو: أصلحت بينه وبين فلان، أو: جاءني فأقرضته كذا، أو: لم يرد القرض إلا بعد حين، وقد يريد

---

١) من الآية (١٨) من سورة إبراهيم.

٢) الآية (٢٣) من سورة البقرة.

الخادم مقابل الخدمة ولو خدمة أخرى في يوم ما، فيكرر ذلك المن والأذى للمخدوم ولو مضت عليه سنوات، وهذا مَحْق للأجر، فليس له حظ في الآخرة؛ لاستهلاك ذلك في الدنيا: إما مدحاً وثناءًا في المجالس، وإما مناً وأذى للمخدوم، وللأسف كثير مَن يسلك هذا الجانب السيئ، وسيندم يوم لا ينفع الندم، وهذا من الجاه الذي يُسأل عنه يوم القيامة كما يسأل آخرون، قال أبو هريرة ﷺ: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار "١.

(٢/٢٦٥) قال تعالى:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

هذه الآية الخامسة والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين الفرق الشاسع بين من ينفق ماله رئاء الناس وبين الذي ينفقه ابتغاء مرضاة الله ﷻ، ليعلم المنفق موقعه حسب النية التي بنا عليها نفقته، فالجزاء من جنس العمل على غرار قوله

---

١) مسلم حديث (١٩٠٥).

تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1]، أمـا الذين يبتغون مرضاة الله ﷻ فمثلهم كجنة في ربوة مكانٍ وسط ليست مرتفعة فيهلك ما فيها من الثمار لقوة البرودة، وشدة الريح، ولا منخفضة فتشتد عليها الحرارة أو تجرفها السيول، وهذا يوحي بأن خير مكان للزراعة هو هذا ربوة وسط، فإما أن تسقى بمطر غزيز، أو بخفيف منه، لأن أضعف المطر الطل، وأشده الوابل، ومن الوابل يكون السيل العارم، فالطل سِنٌّ من أسنان المطر، خفي لا يدركه الحس حتى يجتمع، بأن يكون المطر ينزل خفيا عن الحس وهو الطل، ثم يبدو بلطافة وهو الطش، ثم يقوى وهو الرش، ثم يتزايد ويتصل وهو الهطل، ثم يكثر ويتقارب وهو الوابل[2]، كالربوة التى آوى الله فيها عيسى وأمه، قال تعالى: ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[3]، بروة طيبة ثابتة لا اضطراب فيها لا منها ولا بسبب خارج عنها، وماؤها جار، فتكو ثمار الجنة مضرب المثل مضاعفة لقاء ما هي فيه من طيب المكان وحسن السقيا، وهذا مثل الذين تكون أعمالهم ابتغاء مرضاة الله ﷻ، وهو بصير بذلك ﷻ.

(٢٦٦/٢) قال تعالى:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقدم صورة تمثيلية أخرى لرجل عمل في بداية عمره بطاعة الله، فلما كبر أتاه الشيطان فأضلة فعمل

---

١) الآية (٤٩) من سورة الكهف.

٢) التعاريف ٤٨٤.

٣) من الآية (٥٠) من سورة المؤمنون.

بالمعصية، أو لرجل يقوم بأعمال خير لا يبتغي بها مرضاة الله ﷻ، فإن مثله يوم القيامة كمثل من تكون له في الدنيا جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، وهي تحوي كثيرا من الثمرات، وقد بلغ الرجل من الكبر عتيا، وله ذرية: بنين وبنات قاصرون ضعفاء، له أمل كبير في أن تكون جنته مصدر رزق يكفيهم، ويصرف عنهم الحاجة والعوز، فما راعه إلا أن أصابها إعصار شديد لم يعهد مثله فيه نار أحرقت جنته، فكانت حسرته لا حدود لها، وخوفه على ذريته الضعفاء بلغ منتهاه، وهو ذو عمر متهالك لا قدرة له على إعادة جنته إلى سابق عهدها، فذلك مثل من لقي الله يوم القيامة بأعمال كثيرة لكنها صارت هباء منثورا لعدم ابتغاء مرضاة الله في الحياة الدنيا، وأيضا أعمال الكفار لا تخرج عن هذا يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1]، وقد بين الله في لآية المعقول بالمحسوس ليُعمل الفكرُ في قدرة الله ﷻ، فيقْدم العبد على العمل الصالح مبتغيا به مرضاة الله ﷻ، ويجتنب ما سواه من الأعمال.

(٢/٢٦٧) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي توضح نوع ما ينفق من المكاسب، فيخاطب الله ﷻ عباده المؤمنين بأن ينفقوا من أطيب ما يكسبون؛ لأنه مدخر لهم عند الله ﷻ، وما يكسب إما من التجارة والبيع والشراء، وإما مما يخرج من الأرض، وإما من بهيمة الأنعام، والمراد هنا ما ينفق زكاة، ولا يمنع من عموم توخي الطيب في كل ما ينفقه المؤمن من زكاة وغيرها، فذلك ما يدخره عند الله ﷻ، ونهى عن التوجه في النفقة إلى الردي من الحبوب وغيرها، وذكر تعالى أن الردي لو قدم لهم ما قبلوه إلا على مضض، فالأحرى بهم تقديم ما يرضونه لأنفسهم لو قدم لهم،

---

١) الآية (٢٣) من سورة البقرة.

والله غني عن تقديم الردي في سبيله، وهو تعالى حميد لمن توخى الطيب من كسبه فأنفق منه.

(٢/٢٦٨) قال تعالى:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنه والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تحذر من وسوسة الشيطان فتسويله الشح والحرص على المال، وعدم إخراج الزكاة، تخويف من الفقر، وإغراء بالإنفاق من الخبيث الذي نهى الله عنه، وهي وسوسة من الشيطان مآلها الفقر الحقيقي لنزع البركة من الأموال، والحرمان من خيرها في الدنيا والآخرة، وتسويل منه بما فحش من المعاصي، كتعطيل الزكاة المفروضة، والله ﷻ بما ورد في الآية السابقة يدعو عباده إلى رضوانه ومغفرته، ومزيد الفضل والبركة لقاء ما ينفقون من أموالهم، وهو واسع الفضل والعطاء، عليم بأحوال العباد.

(٢/٢٦٩) قال تعالى:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والستون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي مرتبطة بسياق الآية قبلها، فإن الله ﷻ لسعة فضله وعطائه، وإحاطة علمه بما خلق، فقد أعلم العباد ما ينفعهم، وحذرهم مما يضرهم، فإن ما تقدم في آيات الأمر بالانفاق وبيان نوع ما ينفق كل ذلك من حكمته تعالى، ومن رحمته بالعباد أن حذرهم وعود الشيطان، فإنه يخوفهم الفقر، ويأمر بالفحشاء، ولكن من أوتي العلم بالخير ومسالكه، ورزق رجاحة العقل، علم مآل ذلك التوجيه الكريم، فتوجه إلى الخير، وأبعد كل البعد عن الشر، وذلك خير كثير، وما يذكر ذلك ويعمل به إلا ذووا العقول السليمة.

(٢/٢٧٠) قال تعالى:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

هذه الآية السبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تؤكد إحاطة علم الله ﷻ بكل شيء ومنها أعمال العباد وأفعالهم، فالنفقة التي أمروا بها لا تخرج عن علم الله ﷻ بها، وبنية المنفق وما أراد منها، ولما كان النذر قد يتضمن نفقة فقد ورد ذكره في الآية، كل ذلك ليحذر العبد المثبطات عن الإنفاق في وجوه الخير، وعلى رأسها النفقة في سبيل الله، ويحرص على الوفاء بالنذر إذا كان في طاعة الله ﷻ سواء كان نذر عبادة مالية أو بدنية، فالله لا يخفى عليه شيء من ذلك، فمتى ألزم العبد نفسه شيئا من ذلك لزمه الوفاء به على الوجه الذي يرضي الله ﷻ.

(٢/٢٧١) قال تعالى:

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

هذه الآية الحادية والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين المفاضلة بين إظهارها أو الإسرار بها، بينت أن الإسرار أفضل، وذلك عام في الصدقات الواجب منها والنفل، لما في ذلك من البعد عن الرياء، وهو أخطر ما يكون على الأعمال، وقد يكون الإعلان بها أفضل في حالة الاقتداء، وهذه مصلحة ترجح أفضلية إظهار الصدقة، وفي كل خير، وقد وعد الله بتكفير السيئات لقاء ذلك، ونبه تعالى إلى تصحيح النية في الصدقات، فهو تعالى خبير بأعمال ونيات العباد.

(٢/٢٧٢) قال تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

هذه الآية الثانية والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، لما تقدم الأمر بالإنفاق في سبيل الله ﷻ، والناس في ذلك صنفان: من يهتدي وينفق في الخير، ومن لا يهتدي إلا للنفقة رئاء الناس، خاطب تعالى نبينا محمدا ﷺ بأنه غير مكلف بهداية من ضل، وأن الهداية إلى الحق هي منوطة بمشيئة الله ﷻ، وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن نبيا محمدا ﷺ مكلف بالبلاغ لا غير، منها قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ ١، وهو يبشر بالخير، وينذرهم الشر، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ٢، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ٣، وقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي داع يدعوهم إلى عبادة الله ﷻ، فالبلاغ من الرسول ﷺ والهداية من الله ﷻ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

(٢/٢٧٣) قال تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾.

هذه الآية الثالثة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وفيها بيان لوجهٍ من وجوه الإنفاق الواجب، إن كانت النفقة فريضة كالزكاة، والمستحب إن كانت النفقة نافلة، ولهذا الصنف صفتان: **الفقر**، إما بسبب الحالة الاجتماعية، وهم لا يستطيعون التنقل في الأرض بحثا عن الرزق، كالتجارة مثلا لقلة ذات اليد، أو بسبب انقطاعهم للعبادة والخروج في سبيل الله تعالى كأصحاب الصفة، أو بسبب حادث وقع لهم كما في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ٤، كانوا أغنياء

---

١) من الآية (٤٠) من سورة الرعد.

٢) الآية (١١٩) من سورة البقرة.

٣) من الآية (٧) من سورة الرعد.

٤) من الآية (٨) من سورة الحشر.

فافتقروا بسبب ما حدث، والصفة الثانية **الإحصار** بعدو أو بمرض ونحوه، ولا فرق بين الإحصار والحصر على الصحيح، قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾[1]، وهذا حصر العدو، وقد كثر إستعمال الحصر في العدو، والإحصار في غير العدو، ودلالتهما واحدة المنع والحبس، ثم إن هذا الصنف تميز بحالة عدم السؤال والإلحاح فيه، فلهم من العفة والصبر ما حماهم من تكفف الناس، فيظن الجاهل بحالهم أنهم أغنياء، لكن رسول الله ﷺ والحذاق من المؤمنين يعرفون علامة حاجتهم مع عدم السؤال، وإذا تأملت الآية تجد أن في هذا الوصف تأديب للفقراء، بأن يصبروا ولا يتكففوا الناس، فذلك تعفف مطلوب، وكذلك أدّب الأغنياء ألا يجهلوا حال الفقراء، وليتحروا العلامات الدالة على فقرهم، ثم بين تعالى كمال علمه بما ينفق عباده، وذلك تنشيطا لهم على النفقة في سبيله تعالى.

(٢/٢٧٤) قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين فضائل الإنفاق في سبيل الله، لذلك عُمم وقت الإنفاق في أي ساعة من ليل أو نهار، سرا وعلانية، لأن ذلك سبب عظيم في الإخلاص وابتغاء مرضاة الله ﷻ، ومدعاة للقبول ومضاعفة الأجر، لأنهم لا يشغلهم شيء عن طاعة الله والإنفاق في سبيله، ولذلك خُتمت الآية ببشارة المنفقين على هذا الوجه بأن لهم أجرهم عند الله يوم القيامة، وبطيب العيش والسلامة من أسباب الخوف والحزن في الدنيا والآخرة، وهذا عام في جميع أنواع النفقة حتى ما ينفقه الرجل على أهله، قال ﷺ: « **إنك لن تنفق نفقة**

---

[1] من الآية (٩) من سورة التوبة.

تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك »١، يعني من الطعام والشراب.

(٢/٢٧٥) قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾.

هذه الآية الخامسة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، بعد أن تقدم بيان أهمية الإنفاق في سبيل الله، والتوجه بالنفقة إلى الطيب من المكاسب ومما أُخرج من الأرض، وبين ثواب ذلك وفضله، بدأ ببيان المكاسب المحرمة، ومنها الربا، وبين تعالى أن آكلي الربا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كالمتخبط بسبب مس من الشيطان؛ لأنه استحل الربا وزعم أنه مثل البيع، ولم يقبل حكم الله فيه حيث قال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وقد أعطت الآية وصفا منفرا عن أكل الربا، لعُظم المعصية بأكله، وقد أجمع العلماء على تحريم الربا، ولم يخالف فيه أحد، وفي هذا من الحِكم العظيمة حفظ أموال المسلمين من الظلم والتحايل؛ لأن المال قوام مصالح الأمة أفرادا وجماعات؛ ولأن المرابين يعطون بالنقص ويأخذون بالزيادة، لذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾٢، وبين تعالى أنه يقبل من المتعظين توبتهم من ذلك الكسب المحرم، والعفو عما سلف، وهو ما كان قبل التحريم، وحُكم ما وقع من الربا قبل التحريم راجع إلى الله ﷻ، وقد عفى عنَ المتعظين، فلا عقاب عليهم في الدنيا ولا في الآخرة، أما من أكل الربا بعد التحريم فله حكم آخر يأتي بيانه، وقد حذر تعالى من العودة بعد التوبة، ومن عاد فإن العقاب شديد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾وما ذاك

---

١) البخاري حديث (٥٦).

٢) من الآية (١٣٠) من سورة آل عمران.

إلا لأن أكل الربا من الكبائر التي جعل الله عقابها النار، لكنه زاد هنا الخلود فيها، وأهل الكبائر لا يخلدون في النار، فلعل هذا خرج مخرج الوعيد الشديد، أو: أن المراد خلود دون الخلود، والله أعلم.

(٢/٢٧٦) قال تعالى:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبين وعيدا لمن يتعامل بالربا، فإن الله وعد بأنه يمحق الربا، فإن شاء تعالى أذهبه بالكلية وأفقر آكله، وإن شاء أذهب البركة منه فمهما جمع لا يجد فيه بركة، ولا ينتفع به في وجوه الخير، ولو أنفق منه فنفقته باطلة لأنه كسب خبيث، والله لا يقبل إلا الطيب، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾[١]، وقد بين أن الربا لا يزكو ولا يزيد عنده تعالى كما في هذه الآية، ثم بين تعالى أنه يزيد في نما الصدقات وبركتها، ومضاعفة أجرها، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[٢]، وبين تعالى أن البركة والزيادة والنماء لا تكون إلا في الحلال، ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ فيه إشارة إلى أن المصرّين على الربا وسائر المعاصي يتصفون بكثرة العناد، اعتقادا وقولا وعملا، فالعناد يشمل جميع المعاصي من الكفر بالله تعالى وما دونه من المعاصي، وهو وصف لكثرة كفر القلب، وإثم اللسان بالقول، والجوارح بالفعل، فحقيق بكل مسلم أن ينفر من الربا والتعامل به لمافيه منالضرر في الدنيا والآخرة.

---

١) من الآية (١٠٠) من سورة المائدة.

٢) من الآية (٣٩) من سورة الروم.

(٢/٢٧٧) قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾.

هذه الآية السابعة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تبشر المؤمنين الذين يجتنبون ما حرم الله ﷻ، ويبادرون إلى الأعمال الصالحة، وأولها المداومة على الصلاة، وتأدية ما استُحق عليهم من الزكاة، تبشرهم الآية بأن لهم أجرهم على ذلك عند ربهم ﷻ، وأنهم آمنون من الخوف والحزن في الدنيا والآخرة، وهذا ملحظ مهم بعد ذكرم ما تقدم بيانه في الآيات السابقة.

(٢/٢٧٨) قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾.

هذه الآية الثامنة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تنادي المؤمنين بعد بيان حال آكلي الربا، وعاقبته من محْق لعين المال المجموع من الربا، أو إذهاب البركة منه، أن يتركوا ما بقي من الربا في ذمم الناس المتعامل معهم بالربا، وهذا تشريع بعد تقديم الموعظة في الآيات السابقة، وأمرهم الله ﷻ بالتقوى لأنها أصل امتثال ما يؤمر به بعدها، ولازم الإيمان أن لا يطالبوا بما أربوا وقد حرمه الله ﷻ، فالمطالبة به تناقض الإيمان، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

(٢/٢٧٩) قال تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾.

هذه الآية التاسعة والسبعون بعد المائتين من سورة البقرة، وهي تقرر حكما صارما بعد تلك المواعظ بأن عدم تحريم الربا وترك ما بقي منه حرب على الله ورسوله، وما دام الأمر كذلك فليعلموا أنفسهم بحرب من الله ورسوله، وليستعدوا لما اختاروا، تحريم الربا ومسالمة الله ورسوله والأمة، أوك عداوة الله ورسوله والأمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "من كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه"[1]، وفي الآية حكم شرعي لمن تاب من الربا وهو مأمور بأن يترك ما بقي، فإن المستحق له أصل ماله الذي أخذ عليه الربا، فرؤوس الأموال أصولها، فلا يَظلم الآخرين بأخذ أموالهم بدعوى الزيادة، ولا يُظلم بعدم حصوله على أصل المال الذي وقع فيه الربا.

(٢/٢٨٠) قال تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾.

هذه الآية الثمانون بعد المائتين من سورة البقرة، وفيها إشارة إلى ما ورد في الآية السابقة من رد رأس مال المرابي إذا تاب، معجلا غير مؤجل لفساد العقد، لذلك استثنى المعسر ليمهل إلى وقت يتيسر له رد رأس المال من غير مماطلة لصاحبه التائب من الربا، والعسرة تُعرف بحسب القرينه، فقد يكون الإنظار بسببها واجبا، وقد يكون مندوبا، وهو عام في الديون، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتحري صدق دعو العسرة أمر مهم حتى لا يُظلم صاحب المال، وإلا لزم الوفاء ببيع ما يملك المدين، ثم ندب الله ﷻ أصحاب رؤوس الأموال إلى عمل هو خير لهم عند الله ﷻ بأن يتصدقوا بما بقي لهم، فيسقطوا عن المعسر مالهم من دين، وهو خير لما فيه من تفريج الكرب، وإغاثة الملهوف.

(٢/٢٨١) قال تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

---

١) المحرر الوجيز ١/ ٣٤٨.

هذه الآية الحادية والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة، ذكر الله ﷻ فيما تقدم من الآيات جملة من الأوامر، ومن المنهيات، فكانت هذه الآية تذييلا، وتذكيرا فيه الترغيب والترهيب، فالترغيب في فعل ما أمر الله به من الأوامر، والترهيب من فعل ما نهى الله عنه؛ لأن فعل ما أمر الله به استكثار من الثواب وحسن العاقبة، وترك ما نهي الله عنه فيه سلامة من الآثام المترتبة على الفعل، وكل ذلك له يوم الجزاء والحساب، وهو اليوم الذي يرجع العباد فيه إلى الله ﷻ، ولذلك ذكَّرهم الله بأن يتقوا ذلك اليوم؛ لأن كل نفس ستحاسب على كسبها، فالمحسن يثاب على إحسانه، والمسيء يعاقب على إساءته، في عدل تام، للطرفين.

(٢/٢٨٢) قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

هذه الآية الثانية والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة، أطول آية في الكتاب العزيز، وهي تؤسس تعاملا مثاليا في كتابة العدل وحفظ الحقوق، وهي تتناول جميع المداينات، فالآية ترشد المؤمنين أن يكتبوا ما يتداينون به إذا كان مؤجلا، وظاهر الآية الكريمة يوحي بوجوب ذلك على المتداينين؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب، لكن الآية التالية لهذه الآية تصرف الأمر إلى الندب والاستحباب، ومعلوم أن الدائن

يجوز له إعفاء المَدِين، وهذا يؤيد أن الإرشاد إلى الكتابة إنما هو أحوط، وبين تعالى أنه في حالة الكتابة يجب أن يكتب بين المتداينين كاتب بالعدل، فيدون ما هو حق اللدائن، وما هو حق للمدين، ولا يفرط في حق كل طرف، وأيضا من دعي للكتابة فليجب ويبادر إلى الكتابة بالعدل وينعم بذلك كما أنعم الله عليه بالعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فهي تبين أن الذي يملل على الكاتب معلومات ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين إنما هو المدين، لأن ذلك إقرار مباشر منه بحق الدائن، وفيه بيان الرضا بما نطق به وجرت كتابته، ولذلك ذُكِّر بتقوى الله ﷻ فلا يبخس من حق الدائن شيئا، وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ فيه حفظ حق السفيه وهو الذي لا يحسن التصرف مع الآخرين، وكذلك حفظ حق القاصر كالطفل أو المرأة، فإن الولي المعتبر شرعا هو المخول بأن يملل على الكاتب مع اعتبار العدل بين الطرفين: الدائن والمدين.

وبالمناسبة فإنه يحسن ذكر مواطن الشهادة في القرآن وهي ستة[1]:

الأول: الإشهاد في البيع في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

الثاني: الطلاق والرجعة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[2].

الثالث: كتابة الدين لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

---

١) الآية (٢٨٣) من سورة البقرة.

٢) مستفاد من كلام شيخنا الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٨/٢٩٧).

الرابع: الوصية عند الموت لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾١.

الخامس: دفع مال اليتيم إليه إذا رشد لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾٢.

السادس: إقامة الحدود لقوله تعالى: ﴿ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾٣.

السابع: في السنة عقد النكاح لقوله ﷺ: « **لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل** » وهذه كلها مواطن هامة تتعلق بحق الله وحق العباد في حفظ المال والعِرض والنسب، وفي حق الحي والميت واليتيم والكبير، فهي في شتى مصالح الأمة ولذلك وجب الحث على القيام بها، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴾٤، والتحذير من كتمانها قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ ﴾٥.

كذلك يحسن ذكر الأحوال التي ورد فيها تعدد الشهود: فشهادة الواحد في قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾٦، فهذا وإن كان ملفت النظر إلى القرينة في شق القميص، إلا أنه شاهد واحد.

وجاء فيالسنة: شهادة خزيمة ﷺ، لما شهد لرسول الله ﷺ بشراء الفرس من الأعرابي، وجعلها ﷺ بشهادة رجلين.

وجاءت السنة بثبوت شهادة الطبيب، والقائف، والخارص، ونحوهم.

---

١) الآية (١٠٦) من سورة المائدة.

٢) الآية (٦) من سورة النساء.

٣) الآية (٢) من سورة النور.

٤) الآية (٣٣) من سورة المعارج.

٥) الآية (٢٨٣) من سورة البقرة.

٦) من الآية (٦٢) من سورة يوسف.

وجاء في ثبوت رمضان، فقد قبل ﷺ شهادة أعرابي، وقبل شهادة عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما سواء كان قبولها اكتفاء بها أو: احتياطا لرمضان.أما شهادة الرجلين فلقوله تعالى:﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ .

وأما ثلاثة رجال فلقوله ﷺ في إثبات الفاقة والإعسار:« **حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولون لقد أصابت فلانا فاقة** »[١] .

وأما الأربعة ففي إثبات الزنا خاصة قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[٢] .

وأما الطائفة ففي مشاهدة إقامة الحدود لقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، وذلك لما فيه من إشاعة العدل، وحفظ الحقوق، والشهادة على إقامة الحدود.

وأما شهادة المرأة ففي أحوال النساء خاصة كما في حديث عقبة بن الحارث جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إني أرضعتهما فقال له ﷺ: « **فارقها** » فقال: كيف أفارقها لقول امرأة ؟!، فقال له ﷺ: « كيف وقد قيل » وقد وقع الخلاف في قبول شهادتها وحدها ولكن الصحيح ما قدمنا.

وأما المرأتان فعند من لم يقبل شهادة المرأة وحدها، وقيل: عند استهلال الصبي؛ لأن الغالب حضور أكثر من واحدة،وأما جماعة الصبيان ففي جناياتهم على بعض قبل أن يتفرقوا، ولم يدخل فيهم كبير وفيه خلاف، ورجح شيخنا رحمة الله تعالى علينا وعليه العمل بها في مذكرة أصول الفقه في مبحث رواية الصغار.

فالشهادة في الجملة من حيث الشاهد تكون على النحو الآتي إجمالا: رجل واحد، ورجل ويمين، ورجل وامرأتان، ورجلان، وثلاثة رجال، وأربعة، وطائفة من المؤمنين، وامرأة، وامرأتان، وجماعة الصبيان؛ وقد جاءت النصوص بذلك صريحة.

---

١) مسلم حديث (١٠٤٤).

٢) الآية (١٣) من سورة النور.

٣) الآية (٢) من سورة النور.

وأما شهادة الرجل الواحد ويمين المدعي، فلحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قضى رسول الله ﷺ بالشاهد واليمين" وتكلم عليه ابن عبد البر، وأطال في تصحيحه وتوجيهه.

وعند الإمام مالك، ومذهب للإمام أحمد شهادة امرأتين، ويمين المدعي، وخالفهما الجمهور، واتفقوا أنه لا دخل للنساء في الشهادة في الحدود وإنما تكون في المال، أو: ما يؤول إلى المال، وفيما يتعلق بما تحت الثياب من النساء.

وأما شهادة رجل وامرأتين، فلقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[١].

أما قوله تعالى في استشهاد امرأتين: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ فقد استفدت من فضيلة الشيخ الزنداني ما نقله عن علماء المخ قالوا: إن للمرأة في المخ مركزين للكلام: أحدهما في الجانب الأيمن، والآخر في الجانب الأيسر بجوار مركز الذاكرة، أما الرجل فله مركز واحد للكلام في الجانب الأيمن فقط، وله مركز للذاكرة في الجانب الأيسر، ومن هنا يظهر سبب التفريق بين الرجل والمرأة في الشهادة؛ لأن المرأة إذا تكلمت اشتغل المركزان بالكلام، وصار مركز الكلام المجاور لمركز الذاكرة شاغلا لجزء من مركز الذاكرة عندها، فيفوت على المرأة بعض من الكلام، فجعل في الشهادة امرأتين تنطق بالشهادة إحداهما، وتكون الأخرى منصتة لتستوعب ما تقول الناطقة بالشهادة، فتصوبها أو تخطؤها، أما الرجل فمركز الذاكرة عنده متفرغ لتسجيل ما يصدر عن مركز الكلام، قال الشيخ الزنداني حفظه الله: ولم يكتشف هذا إلا في عام (١٩٩٠م).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لم يقل الله ﷻ: ولا يأب الشاهد؛ لأن الشهادة قد تكون من فرد، وقد تكون من اثنين، وقد تكون من ثلاثة، وقد تكون من أربعة، وقد تكون من جماعة، وللشهداء في الشهادة حالتان:

---

١) مستفاد من كلام شيخنا محمد الأمين رحمه الله (أضواء البيان ٨/٢٩٨) .

الأولى: عند الكتابة والشهادة على ما جرى بين المتبايعن، فذلك من حق المسلم على أخيه المسلم، وذلك على التخيير إذا وجد أكثر من شخص يمكن إشهادهم أو إشهاد أحدهم، إن شاء أجاب وإن شاء لم يجب.

وعلى الوجوب إذا لم يوجد الغير ؛ لأنه يجب الفرض على من دعي إذا لم يوجد غيره١.

والثانية: عند الأداء بعد حضور الكتابة وتحمل الشهادة، وهنا يتحقق الوجوب إذا ما دعي الشاهد الواحد أو الشهود الجماعة ولا تخيير هنا لتحمل الشهادة؛ لأن امتناع من دعي يعد كتمانا لما أشهد عليه، وهو مأمور بالأداء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾٢؛ لأن القيام بما عنده من الشهادة أمانة عنده للداعي فوجبت عليه الإجابة وأداء ما عنده؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ جمع أمرين للشاهد: لا يأبا إذا دعي للشهادة، ولا يأبا إذا دعي للأداء، ولكن الأول على التخيير مع كراهة الامتناع، والثاني على الوجوب لكونه تحمل الشهادة، فلا يحل له أن يأبا.

وقد فرق بين الكاتب والشاهد في عدم الامتناع، فيجب على الكاتب إذا دعي للكتابة ألا يأبا، ولا يجب على الشاهد أن يشهد إذا دعي، لأن الكاتب تميز بصفة العلم والكتابة، وهي صفة لا تتوفر في الكثيرين، دون الشاهد إذا امتنع فالناس كثير.

ومن علم بما جرت الكتابة عليه، ولكنه لم يحضرها ولا أشهد عليها، فإذا دعي للشهادة بما علم فهو على التخيير، والأفضل ألا يأبا.

والأولى في ذلك كله عدم الامتناع عملا بعموم النهي في الآية، ولما في ذلك من الأجر، والتعاون على البر والتقوى، فبر المشهود له إقامة الشهادة ليعطى حقه، وبر المشهود عليه إعانته على براءة ذمته من حق الغير، وقد مدح الله ﷻ القائمين

---

١) جامع البيان للطبري ٥/٩٤.

٢) من الآية (٢٨٣) من سورة البقرة.

بالشهادة؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾١، وهذا يفيد القيام بالشهادة مطلقا، في الحضور والأداء.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ يوصي الله ﷻ الذين يداينون الناس إلى ما هو أعدل للطرفين الدائن والمدين، وأضبط لحق كل طرف؛ وهو عدم الملل من الكتابة وتوثيق الحقوق؛ لأن الكتابة أضبط للحق، وأحصى للأجل، ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا في المداينة إلى أجل، والكتابة مطلوبة في القليل والكثير، وهي الأعدل عند الله ﷻ، وأقوم لأداء الشهادة إذا حدث النسيان أو النكران، وهي تنفي الشك لدى كل طرف، وفيها صيانة للدَّين ولو كان يسيرا.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ هذا استثناء مما سبق الأمر به، نوع آخر من التعامل، وهو ما كان نقدا لا أجل فيه ولا تأخير، بل يدا بيد فهذا النوع يدار حاضرا بين المتبايعين فلا جناح في عدم الكتابة، لكن في عصرنا هذا أصبح قيد نوع البضاعة وسعرها فيما يسمى "بالفواتير" أصبح أمرا ضروريا؛ ولا ينبغي إهماله لما فيه من حفظ حق البائع والمشتري، في أمور تعارف الناس عليها كضمان البضاعة لمدة معينة، أو لاكتشاف عيب فيها وغير ذلك، فالكتابة في هذا العصر ضرورة في كثير من السلع.

قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ في هذا القول الكريم أمران:

الأول: الأمر بالإشهاد على التبايع بالتجارة الحاضرة نقدا، لما في ذلك من العناية بحفظ الحقوق للطرفين، وفي نظري أن ما جدَّ في هذا العصر من الكتابة في القليل والكثير وتوثيقه بما يسمى "الفواتير" يغني عن الإشهاد لوجود معلومات التوثيق على "الفوتير" بصورة رسمية.

---

١) الآية (٣٣) من سورة المعارج.

والثاني: عدم مضارّة الكاتب والشهيد، فيدعى الكاتب بأدب واحترام، ولا يغلظ عليه، كأن يقول: الكتابة واجبة عليك ونحو ذلك، وكذلك الشاهد يدعى كل منهما بلطف وحسن خلق، وإذا اعتذر قبل عذره والتمس غيره من غير تعنيف، وإن حدث خلاف هذا فإنه خروج عن الآداب الشرعية في هذا قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴾.

(٢/٢٨٣) قال تعالى:

﴿ **وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)** ﴾.

هذه الآية الثالثة والثمانون بعد المأتين من سورة البقرة؛ وهي تبين في أمر الدَّيْن حكما أخر وهو ما إذا كان المتداينان على سفر ولم يجدوا كاتبا على غرار ما تقدم في الآية السابقة، فقد شرع الله ﷻ في هذه الحال وسيلة أخرى لحفظ الحقوق؛ وهي أن يقدم المدين رهنا ذا قيمة توازي مقدار الدَّيْن أوتزيد عليه، ولا يرهن ما قيمته أقل حتى لا يضيع حق الدائن، يبقى ذلك الرهن عند الدائن حتى يستوفي حقه من المدين.

أما إذا أمن الدائنُ المدين لمعرفة سابقة بصدقه ووفائه، وعدم مماطلته فيما يجب عليه من الحقوق، فلا يجب الرهن في هذه الحال بناء على قوة الأمانة، لذلك قال تعالى: ﴿ **فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ** ﴾ وأداء الأمانة حكم شرعي في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا** ﴾[١]، ولخطورة حمل الأمانة قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ**

١) من الآية (٥٨) من سورة النساء.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1]، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ وهنا ملحظ دقيق وهو أن الأمر بأداء الأمانة واستصحاب التقوى متوجه إلى الطرفين المدين فلا ينكر ما عليه من الحق للدائن، وإلى الدائن فلا يدعي أكثر مما له، ومن لم يرع هذا فإنه يقع في الإثم، ويستحق العقوبة من الله ﷻ مضاعفة لعدم وفائه بالأمانة، ولعدم استصحاب التقوى في ذلك.

(٢/٢٨٤) قال تعالى:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾.

هذه الآية الرابعة والثمانين بعد المائتين من سورة البقرة؛ وهي تبين أن جميع ما في السماوات، وجميع ما في الأرض من مخلوقات وعوالم لا يحيط بها إلا الله ﷻ، هو خالقها ومدبر أمرها، وهي من ملكه الذي لا يخفى عليه منه شيء، ولا شريك له في تدبيرة وتصريفه، وما دام هذا هو الواقع لا مرية فيه فإنه محيط بما لدى العباد ما أبدوا من أعمالهم وأقوالهم وما أسروا، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا بد من محاسبتهم على ذلك، العاصي والمطيع، على حد قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2].

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فذلك سر عملكم وعلانيته، يحاسبكم به الله، فليس من عبد مؤمن يسر في نفسه خيرا ليعمل به، فإن عمل به كتبت له به عشر حسنات، وإن هو لم يُقدر له أن يعمل به كتبت له به حسنة من أجل أنه مؤمن، والله يرضى سر المؤمنين وعلانيتهم، وإن كان سوءًا حدَّث به نفسه اطلع الله عليه وأخبره به يوم تبلى السرائر، وإن هو لم

---

١) الآية (٧٢) من سورة الأحواب.

٢) الآيتان (٧، ٨) من سورة الزلزلة.

يعمل به لم يؤاخذه الله به حتى يعمل به، فإن هو عمل به تجاوز الله عنه، كما قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[1]، وهذه المحاسبة عامة فيما أبدوا أو أسروا من أعمال الخير والبر والإحسان، فإنهم يجزون أوفى الأجر على ذلك، وكذلك الذين أساؤا سواء أبدوا من الإساءة أو أخفوا فإنه لا بد من محاسبتهم على ذلك، فيعاقب من شاء على إساءته، ويغفر لمن شاء منهم إساءته؛ لأن ذلك شأنه وحده لا شريك له، وهو على مايريد من العقوبة والعفو قدير، ولا أرى هذا الوعيد خاصا بالشهادة كما ذكر بعض أهل العلم، بل هو عام في كل سوء، ولذلك شق هذا كثيرا على أصحاب رسول الله ﷺ، وخافوا من العاقبة ﷺ، فقد يحدث المرء نفسة وسوسة بما لا يرضي الله ﷻ، فبركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله؛ كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها.

قال رسول الله ﷺ: « **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** » فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير؛ فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في أثرها[2] الآية التالية.

(٢/٢٨٥) قال تعالى:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[3]، ثناء عطر على تلك الإجابة السديدة، وذلك الخضوع والسمع والطاعة لرب العزة والجلال، ولقاء ذلك أكرمهم الله ﷻ بالتخفيف؛ لأنه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين سبحانه، وسعت رحمته كل شيء، وأنزل تعالى الحكم في الآية التالية.

---

١) الآية (١٦) من سورة الأحقاف، وانظر: جامع البيان للطبري ١٣٥/٥.

٢) الصحيح المسند من أسباب النزول ٤٢/١.

٣) الآية (٢٥٠) من سورة البقرة.

(٢/٢٨٦) قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

هذه الآية السادسة والثمانون بعد المائتين خاتمة سورة البقرة، وقد نسخ صدرهاالوسوسة، وما يخطر سرا، وبقيت المؤاخذة على القول والفعل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ١.

وقد تحقق أن المراد بالمحاسبة ما كان ناتجا عن قول أوفعل، ولطف الله أعظم ورحمته أوسع فإنه حينما يتوجه العباد إليه بالدعاء كما يتحق كرم الله وفضله كما في تمام الآية سجل لهم تلك الإجابة، وذلك الدعاء وجعل ذلك يتلى إلى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾٢، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ قال: نعم ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال: نعم"٣، وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما " قال: قد فعلت" ٤، وبهذا نختم ما تيسر لنا فهمه من هذه السورة الكريمة، والحمد لله الذي بعمته تتم الصالحات ابتداءًا وانتهاءًا وصلاة ربي وسلامه على المبعوث رحمة للعالمين، صلاة تؤهلنا لرضى ربنا وشفاعة نبينا.

---

١) من الآية (٢٢٥) من سورة البقرة.

٢) من الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

٣) مسلم حديث (١٩٩).

٤) مسلم حديث (٢٠٠).

تم تدوين هذا العمل المبارك في ليلة الجمعة الموافق السابع والعشرين من ربيع الأول، سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وألف بالمدينة النبوية على ساكنها نبينا محمد الصلاة والسلام، وعلى ذريته، وآله، وأزواجه، وأصحابه، وأتباعه إلى يوم الدين، وأسأل الله بقدرته على كل شيء أن يجعله حجابا من النار لي ولوادي ولمشايخي ومن له حق عليّ، وأن يعينني على ما عزمت من التمام، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

رياض الأذهان
في
فهم القرآن

إعداد الدكتور :
مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني

(١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م)

الطبعة الأولى
الجزء الأول

طبع على نفقة رجل الأعمال
الشيخ جمعان بن حسن الزهراني
أثابه الله

لا يباع وثمنه قراءته

رياض الأذهان
في
فهم القرآن

إعداد الدكتور :
مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني

(١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)

الطبعة الأولى
الجزء الأول

طبع على نفقة رجل الأعمال
الشيخ جمعان بن حسن الزهراني
أثابه الله

ⓒ مرزوق هياس آل مرزوق الزهراني ، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الزهراني ، مرزوق هياس آل مرزوق
رياض الأذهان في فهم القرآن . مرزوق هياس آل مرزوق الزهراني
مكة المكرمة ، ١٤٣٤هـ
٣٥٠ص ، ٢٤ سم
ردمك : ١ - ٢٧٨٠ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- القرآن - التفسير الحديث أ.العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٤/٧٥٢

رقم الإيداع : ١٤٣٤/٧٦٥٢
ردمك : ١ - ٢٧٨٠ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨